

892.

Ha39

LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



W.B. LIBRARY

892.78³³₃ 13
Ha3939 A

قَرْنِي ظَالِمَةٌ

الدكتور
محمد كاظم حسين

مطبعة مصر مركز تيسار مصر

١٩٥٤

مكتبة



بغداد

بغداد

بغداد

فهرس

صفحة

يوم جمعة ١

عند بنى اسرائيل

قمة الجبل ٦
 رجل الاتهام ٩
 دكان حداد ١٨
 المفتى ٣٠
 لازار ٣٨
 قيافا ٤٨
 دهر الندوة ٦٤

عند الحواريين

المجدلية ٧٨
 الجندى المسيحى ٩٦
 مريضة ١٠٣
 اجتماع الحواريين ١١٤
 خروج الحواريين ١٣٨

عند الرومان

صفحة

١٥٣	•	•	•	•	•	•	•	قائد حازم
١٥٧	•	•	•	•	•	•	•	الخائن
١٧٨	•	•	•	•	•	•	•	المحاكمة
١٩١	•	•	•	•	•	•	•	بيلاتوس
٢٠٠	•	•	•	•	•	•	•	ثم اظلمت الدنيا
٢١٥	•	•	•	•	•	•	•	عود الى موعظة الجبل
٢٢٩	•	•	•	•	•	•	•	خاتمة

يوم جمعة

كان اليوم يوم جمعة

لكنه لم يكن كغيره من الأيام

كان يوما ضل فيه الناس ضلالا بعيدا ، وأوغلوا في الضلال حتى بلغوا غاية الاثم ، وطفئ عليهم الشر حتى عموا عن الحق ، وهو أوضح من فلق الصباح . وكانوا مع ذلك أهل دين وعلم وخلق ، وكانوا أحرص الناس على اتباع الهدى ، وأحبهم للخير ، وأعمقهم تفكيرا ، وأقدرهم على تعقب دقائق الأمور . وكانوا أكثر الناس حبا لقومهم ، وحببا على وطنهم ، وإخلاصا لدينهم . وكانت بهم حمية وشجاعة وإخلاص ، فلم ينجحهم تفقهمهم في الدين من الضلال ، ولم يعصمهم عقلهم من الخطأ ، ولم يهدم إخلاصهم الى الخير . وكانوا أهل شورى ، فأضلتهم الشورى . وكان حكمهم الرومان أهل نظام ، فخذلهم النظام . وتآلبت على أهل اورشليم في ذلك اليوم كل عوامل الغي ، وهم عنها غافلون ، فتردوا فيه ، وغابت عنهم كل عوامل الرشاد ، فتخبطوا تخبطا شديدا ، كأنهم لم يكن لهم دين ولا عقل .

فى ذلك اليوم أجمع بنو اسرائيل أمرهم أن يطلبوا الى
الرومان صلب المسيح ، ليقضوا على دعوته . وما كانت
دعوة المسيح الا أن يحتكم الناس الى ضميرهم فى كل
ما يعملون وما يفكرون ، فلما عزموا أن يصلبوه لم يكن
عزمهم الا أن يقتلوا الضمير الانسانى ويطفئوا نوره ، وهم
يحسبون أن عقلهم ودينهم يأمران بما يعلو أوامر الضمير ،
ولم يفتنوا الى أن الناس حين يفقدون الضمير لا يغنيهم
عنه شئ ، فالضمير الانسانى قبس من نور الله ، لا يكون
للناس هدى بغيره ، وكل فضيلة تنقلب نقصا ، وكل خير
يصبح شرا ، وكل عقل يصير خبالا ، ما لم يكن للناس
من ضميرهم هاد ، مثلهم فى ذلك مثل المدينة المظلمة ، اذا
طلع عليها القمر كانت معالمها ومبانيها هداية لأهلها ، تريهم
أى طريق يسلكون ، أما اذا أظلمت عليهم حقا فان هذه
المعالم الجميلة ، والمباني الرائعة ، تصبح كلها عقبات وعثرات
يصطدمون بها فتؤذيهم وتضلهم . كذلك الناس فى حياتهم ،
ان يشرق عليهم الضمير تكن فضائلهم رشدا ، وان يظلم
عليهم يكن كل ما فيهم من عقل وخير عليهم وبالا .

فى ذلك اليوم أراد الناس أن يقتلوا ضميرهم ، وفى
هذا الذى أرادوه تتمثل نكبة الانسانية الكبرى ، وفى
أحداث ذلك اليوم تبيان لكل ما يدفع الناس الى الاثم ،
فلم يحدث فى العالم شر الا كان أصله ما يريد الناس من

قتل ضميرهم ، واطقاء نوره ، والتماس الهدى من غير
سبيله ، ولن يصيب الناس شر الا ومرجه ما يعترهم من
رغبة في تجاهل أوامر الضمير . وليست أحداث ذلك اليوم
من أنباء القرون الأولى ؛ بل هي نكبات تتجدد كل يوم ،
في حياة كل فرد . فالناس أبدا معاصرون لذلك اليوم
المشهود ، وهم أبدا معرضون لما وقع فيه أهل أورشليم
حينذاك من اثم وضلال ، وسيظلون كذلك حتى يجمعوا
أمرهم أن لا يتخطوا حدود الضمير .

عزري اسرائيل

عَنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

قِمْةُ الْجَبَلِ

لم يكن أحد من أهل أورشليم يدري حين أقبل هذا اليوم انه سيكون يوما يذكره الناس كافة على مر الدهور . كان يوما من أيام الربيع التي ألفها أهل فلسطين ، هادئا صافيا مشرقا . وما كادت شمس تطلع حتى أخذ الناس يعدون أنفسهم لما تعودوا عمله كل يوم . بكر الرعاة يسوقون أغنامهم الى المراعى الخضر حول المدينة العتيقة . ولم يكن حولها الا كُثبان سهلة المرتقى ، يبلغ السائر أعلاها في غير مشقة أو عنف ، وأودية مطمئة ينحدر إليها الرعاة في سهولة ويسر ... أرض لا تشعر بالعنف ، ولا توحى بالقسوة . وكان الرعاة يسرون في هذه المراعى الشاسعة حتى يرهقهم حر الشمس ، فيقبلون تحت الأشجار القليلة التي حولهم . ذلك دأب الرعاة ، يوما بعد يوم ، وعاما بعد عام ، وقرنا بعد قرن . ومن الناس من يظن أن حياة الرعى حياة خافتة ، يذبل معها الفكر ، ويخمد الذكاء . على أن الواقع أن الذين أفاض الله عليهم من نوره يفيدون من هذه الحياة الصبر والأناة ، وحب التأمل الطويل ، والتفكير العميق ، فيبلغون بذلك أرقى مراتب الحكمة .

وخرجت فتاة صغيرة ، رثة الثياب ، بادية الفقر ، تسوق

قطعة من الغنم ، فيها النمرء ، وغير النمرء ، وكان لهذا شأن عند الرعاة ، فقد جاء في التوراة ان الله بارك ليعقوب في النمر . تركت الفتاة جبل الزيتون وما حوله من المراعى الخصبة ، لمن هم أكثر أغناما وأقدر على الكفاح ، وما زالت نسير على غير هدى حتى بلغت جبلا يسمى كالفارى ، ويطلقون على قمته اسم الجولوجوتا أى الجمجمة . بقعة موحشة ، كلها حجارة صلبة ، لا ينبت فيها شئ ، وفيها أخشاب منتشرة ، وعظام مبعثرة ، وشجرة واحدة . وكانت الأغنام أعلم بالمرعى من هذه الراعية الصغيرة ، فشرد كثير منها الى حيث يطيب المرعى . وأجهد الفتاة أن تجرى وراء كل شاردة من أغنامها لتردها اليها ، فلما أعيأها الجهد استظلت بهذه الشجرة ، يأسفة متعبة ، وعادت أغنامها اليها عند الظهيرة تلتمس الظل ، ونامت بجوارها ، فلم يبق على هذه الراعية الصغيرة الا أن تنتظر مغرب الشمس ، على عاداتها كل يوم ، ولم يكن لها أن تعلم شيئا عن ما سيحدث عصر ذلك النهار ، على بعد خطوات من حيث كانت تنام أهدأ نوم .

أما المدينة فلم يكن من شأن أهلها أن ييكرؤا الى عملهم كما ييكرؤ الرعاة ، بل خرج أكثرهم يتشاقلون الى السوق والحوانيت . وكان من طبعهم الجدل والخصومة فى أكثر أمرهم ، صغيره وكبيره ، وكان جدلهم اليوم عنيفا ، لا يكاد

الرجل يلقي صاحبه حتى يحدثه عن ما تم في دار ندوتهم
بالأمس . وكان جلهم يرون أن ما قرره علماءهم حق من
غير شك .

أما أصحاب الرأي منهم فقد أروهقهم ما قضوا فيه
ليلتهم ، من جدل ونقاش عالين ، إذ دار بحثهم حول هذا
الرجل الذي جاءهم ببدعة أقضت مضاجعهم . ذلك أنه
أخذ يدعو الناس الى دين جديد ، وما زال يسفه أحلامهم ،
ويضل رجالهم حتى خيف من دعوته على دينهم ونظامهم .
وكانوا قد حكموا عليه بالصلب . وتواعدوا دار ندوتهم
يوم الجمعة ، ليبلغوا حکامهم الرومان مقرر عليه رأيهم في
شأن هذا النبي الجديد .

رجل الاتهام

كان من بين أولى الأمر في بني اسرائيل شاب يتولى اتهام من يخرجون على القانون . وكانت أسرته من أعرق أسرهم ، وأعظمها شأنا ، وأكثرها علماء . وكان قد بلغ من النجاح مبلغا عظيما ، وهو بعد في مقتبل العمر . وكان الناس يحبونه ويعجبون به ولا يحسدونه ، لما لأهله عليهم من فضل ، أبا عن جد . وكانوا يعلمون عنه انه أسعد الناس ، فقد كان حديث عهد بالزواج ، وكانت امرأته أجمل فتاة في اورشليم ، ومن أوسط أهلها حسبا ، وكان بها مغرما ، وكانت به حفية . وكانت تؤوم الضحى ، على عادة المترفات الفاتنات في كل عصر . ولكنها رأت أن تبكر في هذا اليوم ، على غير ما ألفت ، لتحدث زوجها أعذب الحديث ، وكانت تريد أن تطلب اليه أشياء ، ولم يكن يجهل ما تريد . وهم أن يسبقها الى ما ترغب ، ثم رأى أن يمهلها حتى تتقدم اليه في دلالها العذب . ولم يخطئ ظنه ، فلم يلبث الا قليلا حتى أقبلت عليه تقول :

— اليوم عيد مولدى —

— وهل تظنين أنى أنسى ذلك ؟ —

— وأريد أن تجعله يوما لا أنساه أبدا

— لك ذلك

— وأريد أن تختصني به ، فلا يشغلك عني أمر آخر

— ما كان أسعدني بذلك لولا ما سيجري في اورشليم

اليوم

— لا يعنيني من ذلك شيء . وأحب أن لا تلتمس

الأعذار ، فأنك تعلم أنني لا أغفر مثقال ذرة اذا كان الأمر يتعلق بحبك اياي .

— وأنا لا أطيق أن يمر بخاطرك أنني أقصر في ما ترغبين

الى عمله ، ولكن لى في دار الندوة اليوم شأننا أى شأن !

— وماذا في دار الندوة اليوم ؟

— انهم يطالبون بدم رجل قامت عليه قيامة الناس

عامة ، جمهورا وقساوسة وعلماء ، ولا بد أن نحسم أمره
اليوم .

— ومالى ولذلك كله . أترى أن موت رجل من عامة

الناس أدعى الى عنايتك من حبك اياي . انهم يصلبون

رجالا كثيرين كل يوم ، أما اليوم فهو يومى ، ولا يكون
الا مرة كل عام .

— وقد لا يتكرر صلب رجل مثل هذا النبى ، أبد

الآبدى .

— وماذا تنقمون منه ؟

— انى عددت عليه بالأمس من الذنوب ما أحفظ
عليه قوم اسرائيل كافة ، وجمعت عليه من التهم ما جعل
جريمته واضحة لا تقبل فيها رافة ولا رحمة ، فحكموا عليه
بالصلب ، وأعجب الناس ببلاغتى ، وهنأوني على ما أبدت
من حرص على الايمان ، وعناية بالوطن ، وعلم بالتوراة ،
ولا بد أن أتبع نجاحى بالأمس نجاحا جديدا اليوم ، حتى
لا تهن عزائمهم فينكصوا .

— ألا يزال النجاح معبودكم الأكبر ، انه ليفترسكم
ويقضى على فضائلكم كلها

— ان تعلقى بالنجاح يرجع الى حى لك ، انكن
لا تعبان بمن يخفقون

— انا لنزهد فى النجاح اذا صحبه نفص فى اخلاصكم
لنا ، وأخشى أن تكون قد بلغت هذا الحد من النجاح .
وما الذى دفعك الى هذا الاتهام العنيف ، آكان ذلك حبا
فى النجاح أم كنت مخلصا ، وماذا علمت عنه حتى ألبت
عليه قومك . أبك موجدة عليه ؟

— انه يريد أن يجعل الجهلاء أندادا لأمثالنا ، ويريد
أن يجعل الفقراء وايانا سواء ، وفى ذلك قضاء على نظام
بنى اسرائيل كله . أيروق لك أن يساوى بيننا وبين ذلك
الحداد الذى يعمل أمام بيتك ؟

— انى لا أرى لك فضلا عليه الا أنى امرأتك وليست

له امرأة مثلى ، ولا أعتقد أن مساواته بك تكون جريمة
يصلب من أجلها الناس

— ثم انه كفر بالله ، وأنكر الصفات التي له في
التوراة ، فهو لا يقول بجبروته وانتقامه ، وانما يقول ان
الله هو الحب . ويريد أن لا يخاف الناس الله ، وانما
يريد لهم أن يحبوه لأنه يحبهم ، وفي ذلك خروج على
تعاليم التوراة ، لا بد أن يؤدي الى الفوضى

— أقتلون رجلا أن يقول ان الله هو الحب ، تلك كلمة
لا يقولها مجرم . الله هو الحب !

— انك متعة حقا ، وجمالك ولطفك يضيفان على
خطئك عذوبة ، وعلى سوء فهمك للامور لذة ليست الا لك .
أتظنين ان الحب الذى يدعو اليه يمت الى حب المرأة
بصلة ، انه لا يعرف شيئا عن المرأة .

— ان المرأة تحب الرجل الذى يفهم الحب أكثر من
حبها الرجل الذى يفهم النساء فأكثر هؤلاء منافقون . ان
حب المرأة هو الخطوة الأولى الى حب الله

— انى لا أعرف رجلا خرج من حب المرأة الى حب الله .
— قد يصدق ذلك على الرجال أما النساء فيخرجن من
الحب الى حب الله .

— ان المرأة لا تعرف الحب كما يعرفه الرجل ، فالرجل

يجب المرأة ، ولكن المرأة تحب أن ترى نفسها محبوبة عند رجل بعينه ، فهي تحب أن ترى نفسها في مرآة ، هي ذلك الرجل الذى تحبه .

— ان رأيك فى المرأة لعجيب . وهل هذا رأيك فى .
أترى أن حبيبى هو الذى قعد بك عن حب الله ؟

— انك لا تزالين على ضلالك القديم . تجعلين كل حديث بيننا ، مهما يكن عاما ، يرجع فى نفسك اليك والى .
ان الحب يملأ قلوبكن ولكنه لا يملأ قلوب الرجال ، اذ ليس للمرأة فى الحياة شىء غير الحب . أما الرجل فله بعد ذلك عقله وعمله

— أترى أن العقل يصحبه البرود حتما
— قد يكون ذلك غير محتوم ، ولكنه أمر مألوف
أن يسمو الحكماء فوق العواطف

— ان البرود العقلى ليس غاية الكمال . انى أراك تبدلت منذ أمس ، كان قلبك يخفق لأشياء غير العقل والحكمة ، أترى ذلك راجعا الى ما وفقت اليه من نجاح
— ان قمم الجبال العالية مغطاة دائما بالثلج

— انى على ذلك أفضل أسفل الوادى ، حيث يكون الدفء ، ولك أن ترقى وحدك الى حيث تكون الثلوج
ثم سكت كل منهما ، وكان رأسها الى صدره ، فرفعته ونظرت اليه ، فوجدت رجلا غير الذى تعرفه . خيل اليها

أن هذا الذي كانت تحبه قد تغير في غمضة عين ، وهمت
أن تتركه . وأحس هو بذلك فأزعجه أن يكون قد دب
بينهما شقاق ، وهو على حبها حريص أشد الحرص . وخشى
أن يكون تلاعبه بالألفاظ والمعاني قد حملها على الشك فيه ،
وهو لم يقصد الى شيء من ذلك

وأدركت هي أنها أسرفت ، وأن ما حدث لا يتعلق بحبه
اياها ، فتاب اليها اطمئنانها وقالت :

— انى أقدر واجبك حق قدره ، وأعلم ما يجب عليك
عمله اليوم ، فأغفبك من التفكير في ، وفي عيد مولدى

— الآن عرفت فيك العقل وحسن التقدير ، بعد أن
كدت أنكر منك هذا الغضب . ان عهدى بك أنك غاضبة
أجمل منك راضية ، ولكن غضبك اليوم جد لم أفهمه .
وستكون غدا أسعد الناس ، فما يوم واحد بمغير شيئا من
حب أعتقد انه أخلص ما يكون الحب

— وان غدا لقریب . وستكون قد نصرت الدين
والوطن والأخلاق

— الآن اطمأن قلبى ، وسأعود اليك عما قريب فأجذك
على ما عهدتك محبة رقيقة

وأراد أن يقبلها فأشاحت بوجهها فى رفق . وقبل جبهتها
فأحس عرقا باردا يتصبب منها ، وأصابه من ذلك قلق
شديد .

خرج من بيته وهو أقل ما يكون ثقة بنفسه ، ولم يعد مطمئنا الى ما كان يراه بالأمس ، من أنه قام بواجبه خير قيام ، ولم يعد يؤمن أنه كان في جانب الحق حين حمنت بلاغته الناس على المطالبة بدم هذا الرجل الغريب .

أما هي فقد أنهكتها هذا التغير العميق في احساسها ، فقد كان طريقها الى السعادة الحب الذي دفعها الى اللذة ، وكان الحب يزيد في سرورها بلذات الحياة ، وهذه تزيد في الحب ، وبين هذه وذاك ، كانت أسعد الناس . ثم جاء عيد مولدها ، وكانت ترجو أن يكون أجمل الأيام ، فحال بينها وبين السعادة أن رجلا سيصلب في هذا اليوم . ثم ملأ قلبها حديث هذا الرجل حتى نسيت نفسها ، وكان ذلك عليها جديدا .

« الله هو الحب ! » رأى لا يضع من قدر الله ، ولكنه يرفع من قدر الحب . ان اله اليهود جبار هائل ، وقد يكون مصدر خير أو شر . ولكن اله هذا الرجل لا يكون الا خيرا . سيصلبونه اليوم على أنه كفر بالله ، وما كفر الا برأيهم في الله . سيقتلونه لأنه أجرم ، اذ يقول ان الله هو الحب ، تلك كلمة لا يقولها الا ملك كريم . ليتنى أذهب الى حيث يريدون قتله ، فأنظر الى وجه هذا الذي يقول ان الله هو الحب . ومن يدري لعلى أعكف حينذاك على هذا الحب الجديد . انى أخادع نفسى اذا حاولت أن أتجاهل ما غمرنى من هذا

النور. قد يفسد ذلك على حبي الذي تمتعت به حتى الآن ،
وقد لا أصلح بعد اليوم أن أكون امرأة جذابة محبة ، أو
زوجا شغوفا . أبحسب زوجي أنى سأظل كما كان يعهدنى
بالأمس حين كنت فى حال طبيعية أحبه حبا هادئا معقولا .
انى اليوم محموعة ، والرجال لا يفهمون النساء حين تشتد
بهن حمى الحب. عند ذلك يكن أحد طبعاً وأرهف حساً من أن
يخضعن لعقل أو لحكمة أو يبقين على عهد . ان حمى الحب
تجعل المرأة أشد تقلباً ، وأقرب الى التحول ، وأسرع غضباً
على من تحب ، وأسهل عدولاً عن الشغف بمن شغفت به
قبلاً، وأقبل لحب جديد حتى اذا كان على غير ارادتها وهواها .
فليحذر الرجال النساء حين تشتد بهن حمى الحب ، فليس
فى طبيعهم ما يدلهم على بطشه بهن ..

أما هو فأخذ طريقه الى دار الندوة مهموماً ، يفكر فى
أمر نفسه ، وساوره الشك فى صدق اتهامه العنيف لرجل
لم يقترب اثماً ولم يدع الى منكر . ثم ذكر ما قال بالأمس
من أن الرجل سيكون سبب فتنة وشقاق بين بنى اسرائيل ،
وأن دعوته تهدم نظام أمتهم ، وهم من تقوم حياتهم على
احترام كتابهم ودينهم وعاداتهم . وكان قد ثبت عندهم
أن ذلك الدين قد أصبح جنتهم دون خطر التفكك الذى
تعرضوا له منذ احتل الرومان بلادهم ، وأن المحافظة على
الدين أصبحت أملهم الوحيد فى الحياة . ذكر كل ذلك

ليقنع نفسه أنه كان على حق في موقفه من الدعوة الجديدة ،
وخيل إليه أنه اطمأن ، وان يكن في الواقع انما احاط
نفسه بسياج من حججه القديمة ، حتى لا ينفذ اليها وخز
الضير وألم الشك .

دكان حداد

خرج هذا المدره النابغة من داره ، وسلك طريقه الى دار الندوة . وكان أمام داره دكان صغير قذر لحداد فقير . وكان يرى من واجبه نحو نفسه ودينه وعلمه أن لا يلقى بالا الى هذا الجار الجاهل الفقير . ولم يكن ذلك منه غرورا ولا زهوا ؛ بل كان يعتقد مخلصا أن الدنيا لا تستقيم أمورها الا أن يكون الناس طبقات تحترم كل منها الطبقة التى هى أرقى وأعلم . فلم يكن ليعبأ بالوقوف عند هذا المصنع لولا حديثه مع امرأته عنه ، ولولا أنه رأى أمام الدكان رجلا من التجار استشاط غضبا فأمطر الحداد وابلا من الشتائم ، وقد علا صوته حتى كاد يخنق :

— أين الحديد الذى وعدتنيه بالأمس ، وأين المسامير الأربعة الكبار التى أوصيتك أن تصنعها ، وما لكورك خلوا من النار ، أتدرى ما سيجره على إهمالك ، سأخلف موعدى مع أولى الأمر من الرومان ، ولم يحدث قط أن أخلفت وعدا وعدتهم اياه ، وإذا حدث ذلك اليوم فسأفقد ثقتهم بى ، وهى أكبر ما أعتر به . ان ثقة الناس ببنى اسرائيل سر نجاحهم . والناس يعرفون عنا الجد والصرامة والصدق ،

وهي فضائل ورثناها عن آبائنا الأولين ، وليس لمثلك أن
يفرط فيها فيصرف الناس عنا ، وليس لرجل فيه جهلك
وغباؤك أن يسيء الى قومنا على هذا النحو . ثم ان كسلك
سيكون سببا في خرابك ، وسيذهب بقوت عيالك وستتضر
الى الاستجداء . ان من السهل على أن أتركك الى غيرك ،
فاني أعرف حدادا آخر سأعقد عليه من المال ما يجعله في
سعة حين تكون أنت في هاوية الفقر . ولكنني مع ذلك أريد
أن أرفق بك . سأضع لك الأجر ، على أن توقد نارك
وتبدأ العمل لساعتك ، فان الوقت لم يضع بعد . خذ هذا
المال ، وسأعطيك أكثر منه بعد أن تبدأ .

فأخذ الحداد المال ، وهم أن يلقيه في أعماق الكور ،
فهجم عليه الرجل ، واستنقذ ماله وقال له :

— ماذا تفعل ، أبك جنة ؟ انك مريض ، انك تؤذي
نفسك وأهلك وقومك وصناعتك ، ألا تستطيع أن تذكر
سببا لذلك ؟

ولم يرد عليه الحداد بشيء . فلما ضاق به ذرعا أراد أن
يستعين عليه برجل ذي لحية طويلة كان قد جلس بباب
الدكان منذ مدة ، مطرقا حزينا ، لا يلتفت الى كثير مما يجري
حوله ، وكان يحمل مفتاحا كبيرا لا يفارقه .

ولما وقع نظر التاجر عليه ذكر أنه من أكبر أتباع النبي
الجديد ، وأدرك أن هذا الرجل هو الذي منع الحداد أن

يصنع ما طلبه منه لأنه كان يعلم أن الحديد الذى يريده
انما كان لاعداد الصليب الذى يموت عليه نبيه وزعيمه ،
وأن المسامير الكبيرة أعدت لتدق فى يديه ورجليه .

— الآن وضع السر الذى لم أتبينه من قبل . أليس هذا
الأحمق هو الذى طلب اليك أن لا تعمل ما أمرتك به ، أليس
هو الذى أنبأك أن ذلك كله سيصنع منه الصليب الذى
يموت عليه زعيمه ، انه أغبى منك وأحقر . انى لا يعيظنى
شئ أكثر من هذا الحمق الذى يدفعك ويدفعه الى الظن
بأن بنى اسرائيل ، وفيهم ما فيهم من ذكاء وجد وعلم يتبعون
مثلك ومثله . على انى سألقى عليك قولاً لا أظنك تفهم
كثيراً منه . استمع الى :

— ان كان هذا الرجل كاذباً فموته حلال لا غبار عليه ،
بل تثاب عليه جميعاً ، وان كان صادقاً ، وكان قتله ظلماً ،
وكنتم تخافون عذاب الله ، فاعلموا أنى حسبت لذلك
حساباً طويلاً . هب قتله جريمة كبرى يعاقب عليها الله فنحن
فى منجاة من هذا العقاب . انى أعلم ما سيعمل بالحديد ،
ولكنى لا أصنعه ، بل أبيع وأشتريه ، والله لا يعاقب على
البيع والشراء ، فليس ذلك فى التوراة . وأنت تصنع الحديد
ولا شأن لك بما سيعمل به ما دمت لا تعلم عنه شيئاً . ثم
انى لن أمسه بيدي ، بل انى مرسله الى الرومان مع طفل
لا يدرى شيئاً ولا يعاقب على ما يعمل . أفهمت ؟ ان أكبر

الجرائم اذا وزعت على عدد من الناس أصبح من المستحيل أن يعاقب الله أحدا من مرتكبيها ، فنحن نحتاجه بالتوراة ، وهو لا يجوز عليه أن يخالف ما جاء في كتابه . وإذا كان الذى يعلم الجريمة لا يصنع أداها ، والذى يصنع أداها لا يعلم عنها شيئا فانها تتم فى سهولة . ان هذا التوزيع يجعل الناس فى حيرة ، أين يقع عذاب الله . هكذا ترتكب أكبر الجرائم دون عقاب . ألا ترى أن الله والناس لا يعاقبون أحدا على ما يرتكب فى الحروب من فظائع يرتعد من هولها كل من يسمع بحديثها ، بعد أن تذهب عن الناس الحمى التى تعتر بهم عند نشوبها . وان الله والناس لا يعاقبون على هذه الجرائم ، لأنها ترتكب باسم الجماعة ، ولأن الذنب فيها موزع توزيعا يجعل العقاب الرادع ظلما اذا عوقب به فرد بعيته ، ولا يجوز على الله أن يظلم أحدا ، أما العقاب العادل على الذنب الفردى فان التوزيع يجعله أقل من أن يحفل به أحد . أترأى تفهم شيئا من هذا ؟

عند ذلك هم الحداد أن يقذف عليه بمطرقة ، لو أصابته لقتلته لساعته . ولكن الشيخ الذى كان يباب الدكان منعه من ذلك ، ونظر كلاهما الى هذا الشيطان وشيعاه ، وهو يتعد عنهما ، بنظرات كلها بغض واحتقار .

ولما سمع رجل الاتهام هذا الحديث سرت الرعدة فى ظهره ، وامتنع لونه ؛ أ يكون هو أيضا ممن يشاركون فى

الخطيئة الكبرى مجزأة حتى لا يدري أحد — ولو كان
اله بنى اسرائيل نفسه — على من يكون العقاب ، وفكر
طويلا فى قول هذا الشيطان ، وأخذ يحدث نفسه :

— ان ضمير الفرد لا يمنع أن ترتكب الجماعة أعظم
الذنوب ، ما دامت ترتكب باسم الجماعة . والضمير وحده
هو الذى يصرف الناس عن الشر ، والجماعات لا ضمير
لها ، ولا يزعج ضمير أحد من أفرادها ما ترتكبه
جماعته ، مهما يكن الائم عظيما . انظر الى ما يحدث
فى الحروب ، ان الذين يتقصون أخبارها بعد أن ينتهى
أمرها ، يذهلهم ما يحدث فيها من ما لا يطيقه
ضمير انسان ، مهما تكن فيه من غلظة وقسوة ، ولعل
الفتنين المتقاتلين لا يكون فيهما رجل واحد يرضى عن
الحرب التى يقاتل فيها لو احتكم الى ضميره وحده .
ولكن الجماعة تقدم عليها راضية مستريحة ، بل قد تقدم
عليها مبتهجة فرحة . تلك أمور لا يقبلها العقل ، ولم أهتم
الى فهمها من قبل ، ولكنى سمعت الآن ما يفسر هذا
التناقض : ان الجريمة مهما تكن مبينة سهل وقوعها اذا
وزعت توزيعا يجعل نصيب الفرد من ذنبها أصغر من أن
يضطرب له ضميره .

ألم نسمع حديث قائد جيش هزم عدوه، وأراد أن ينتقم
من الأسرى ، ففقق له ذهنه أن يققأ أعينهم جميعا ، على أن

يترك على رأس كل مائة واحدا أعور يقودهم ، ولو أنه
تولى هذا التعذيب بنفسه لهاله ما أقدم عليه . ولو أن
القاضي حين يحكم بالاعدام يتولى هو تنفيذة لكان له رأى
آخر فى قيمة الأدلة . والقائد الذى يأمر جيشه أن يسرف فى
القتل انما يأمر ، وعلى غيره أن يقتل . وقديما قتل الأنبياء ،
وكان قتلهم يتم على هذا النحو ، موزعا على الناس توزيعا
يجعل الجماعة وحدها هى القاتلة .

ثم هدأت نفسه قليلا حين أخذ يفكر فى طريق الخلاص
من هذا كله .

— ان ضمير الفرد الانسانى أقوى ما يهدينا الى الخير ،
بل هو وحده سبيل الهدى الى الحق ، ولكنه يخطئ
ويضطرب ويحار ، حين تعرض له أمور الحياة ، ويكون
عليه أن يختار بين أمرين لكل منهما وجه من الحق .

ثم عاوده الاضطراب واليأس ، وأخذ يحدث نفسه :

— ان الخير والشر واضحان وضوحا لا ريب فيه
حين نتحدث عنهما التوراة . وكنت أحسبهما لا يختلطان ،
ولكنى لم أعد أتبينهما على ما كنت أعهد من وضوح . انى
كنت أسمع جدى ، وهو شيخ كبير ، يقول انه لم يعد يعرف
الفرق بين الخير والشر ، وانهما اختلطا عليه ، حتى لا يدرى
على التحديد أين يقع الحد الفاصل بينهما . وكنت أعد
ذلك منه تفاخرا ، كأنه يقول انه سما فوق الناس ، خيرهم

وشرهم ، وكنت أعد هذا التسامى نقصا ، بل كنت أعده دليلا على أن الانسان تضعف انسانيته حين يكمل عقله . وكنت أرى أن قوله هذا يدل على ما أصابه من ضعف حين أسن وكبر . أيمن ان أكون قد بلغت هذا الحد من الضعف النفسى ، وأنا بعد فى عنفوان الشباب ، أ يكون شأننا فى التفريق بين الخير والشر ، أو بين الحق والباطل ، انما يتعلق بقربنا منهما أو بعدنا عنهما ، كما تكون الحال عند التفريق بين الجمال والقبح . ألا ترى أن أجمل النساء يستوين وأقلهن جمالا اذا نظرت اليهن من قمة جبل ، كما يستوين اذا نظرت اليهن عن قرب يجعلك لا ترى منهن ما يزيد على قدر الأنملة . ولعل قربنا من حادث الأمس يمنعنا أن نرى أحق هو أم باطل . ألم يعبد آباؤنا العجل ، ونحن نرى ذلك أكبر الخطأ ، ولم يكونوا يرونه كذلك لقربهم منه زمانا . ثم ان قيصر لا يعرف الفرق بين الثلاثة الذين سيصلبون اليوم لبعده عنهم مكانا ، ونحن لا تفرق بينهم لقربنا منهم . أ يكون خير اليوم شرا بعد عشر سنين ، ثم يعود خيرا بعد عشرين ، أ يكون ما نراه هنا خيرا يراه الناس فى روما شرا . أين الخير ، وأين الشر ، انهما يتشابهان ما لم تكن منهما على بعد خاص فى الزمان والمكان . وما هذا البعد ، وماذا بقى بعد ذلك من قدسية الخير .

وأصابه من هذا التفكير دوار ، فخرج على دار صديق له ، وأخذ يحدثه عن ما رأى وسمع ، وعن ما جال بفكره منذ الصباح ، وكان بادى الاضطراب . قال له :

— ما كنت أحسب أن في قومنا مثل هذا التاجر . ان
الشیطان نفسه لا یزین للناس أعمال السوء بأكثر من هذا
الذی قاله ذلك الرجل . انه یؤكد لهم أنهم بمنجاة من
الخطیئة والعقاب ، ما دام الجرم موزعا بینهم .

— لا تسرف فی الطعن علی قومك . ان أمة اسرائیل
هی الانسانیة كلها ، ولكنها مشوهة كما يشوه الناس أمام
المرأة المقهورة المحدودة یر الناس أمام هذه المرأة فترى
جزءا من جسمهم یعظم جدا ، وآخر یصغر جدا ، ثم ینتقلون
فاذا الجزء الضخم یصبح دقیقا ، والدقیق یصبح ضخما .
هكذا اسرائیل ، فیها كل الصفات الانسانیة خیرها وشرها ،
الا أنها تتضخم فضائلها وتصغر عیوبها حینا ، ثم تصغر
هذه الفضائل وتعظم العیوب حینا آخر . اننا لم نأت بجدید
وانما نمثل الناس جمیعا علی هذا الوجه .

— انی انما أريد أن أعلم شیئا واحدا : أنحن علی
صواب فی اتهام هذا الرجل وصلبه ، أم علی خطأ .
— احتكم الى ضمیرك وحده فهو الذی یهدیک .

— لیس الأمر للضمیر وحده . انما یتعلق أكثره بالعقل
وعقلی هو الذی یوحی الى أن فی دعوته خطرا علی بنی
اسرائیل ، ولذلك طالبت بدمه . وانی أريد أن أتبین هل
هو حقا خطر علينا ؛ أريد أن أعلم الى أى طریق یسیر بنا
العقل ، ألى الحق أم الى الضلال .

— نيس الى ذلك سبيل ان كان العقل وحده دليلك .
أستطيع النملة أن تعلم أسائرة هي صوب قمة الجبل أم
الى أسفل الوادى ؟ ان قصر نظرها ، وصغر خطواتها
يمنعها أن تدرك الغاية البعيدة ، وهي مع ذلك أكثر
ما خلق الله صوابا فى عملها ، انها تقدر الخطأ والصواب
القربين ، ولا شأن لها بالغايات البعيدة .

— ولكن الانسان ليس نملة ، انه يرى الغيب بعقله .
— وهذا مصدر أخطائه الكبرى . انه يظن فى نفسه
القدرة على أن يرى المستقبل بعقله ، ويخيل اليه أنه يستطيع
أن يهيم الأسباب التى تؤدى به الى غايات بعينها ، وهو
تقدير كل عناصره خطأ . ولو أنه دبر أمره على ما يوحى
اليه ضميره حاضرا ، ولم يسرف فى الثقة بما يصوره له
عقله من نتائج بعيدة لقل خطؤه .

ان أعظم الناس ذكاء لا يدري ما سيكون لما يعمل من أثر
بعد عام أو عشرة . والذين يحسبون مثل هذا الحساب
يظنون يتخبطون فى ظلمات الضلال . ألم يأتك نبأ ذلك البناء
الذى عرفه المصريون واليونانيون ، ذلك البناء الذى جعلوا
له طرقا ملتوية ، من دخلها صعب عليه أن يجد له منها
مخرجا ، ما لم يرشده دليل . ان السائر فيه لا يستطيع أن
يقدر ، عند كل مفترق ، أمخطىء هو أم مصيب . كذلك
الحياة ، لا يدري أحد عندما يختار طريقا بعينها ، أسائر

هو الى النجاح أم الى الاخفاق ، وهل ما يعملُه صواب أو خطأ .

— انى أريد أن أهتدى الى الصواب فى هذا الأمر البسيط ، أصلب هذا الرجل اليوم حق أم باطل .

— حاسب ضميرك وحده . ثم أخلص لهذا الضمير ، وليس عليك أن تعلم هل سيرى الناس عملك حقاً بعد مئات السنين ، فليس للانسان سبيل الى علم ذلك .

— ان ضميرى وحده لا يرى عليه مأخذاً .

— وهل سنقول ذلك اليوم .

— وددت لو استطعت انقاذه .

ثم سكت وسكت صاحبه برهة ، ثم استأنفا الحديث :

— ألا تريد أن تقوم مقامى اليوم فتدعو الناس أن يعدلوا عن قرارهم بالأمس ، ان ذلك عليك أسهل .

— لعلى أشد حرصاً على هداية نفسى منى على هداية

غيرى . ثم انى لا أرى أن الذين يقومون على أمور الناس

يحق لهم أن يتولوا ذلك ، الا أن تكون قد كملت شخصيتهم ،

واستقرت طباعهم ، وهدأت نفوسهم ، وبرئت من أدرانها ،

حتى لا يصبوا الناس بأدوائهم . ولم يتهاى لى شىء من ذلك

بعد . والذين يعملون فى الحياة العامة يجب أن يكونوا قد

خلصوا من صعاب حياتهم الخاصة ، ولما أبلغ هذه الغاية ،

فليس لى فضل من جهد أبذله فى الحياة العامة .

— ألا يستهويك أن يكون لك على الناس سلطان ،
وأن تشعر بسبقك غيرك ، وأن يكون بيدك البطش والعفو ،
كأنك تخلف الله في خلقه . الا يغريك النجاح . أو لا تدفعك
نفسك أبدا الى الشهوات ، فتخرج بك عن حد العقل . انى
لأغبطك على هذه السكينة التى تملأ قلبك ، وهذا البعد
عن ما تأمر به النفس ارضاء لجشعها . انى أشعر وأنا أغالب
الناس فأغلبهم ، وأتولى الحكم فيهم ، أن الأنانية هى الدافع
الأول لى ، ويزيد من ألى لهذا الذى أشعر به أن أتحدث
الى امثالك ، ممن لم تقتك بهم الأثرة .

— لنفرض ان الأنانية وحدها هى التى تدعوك الى
خدمة الناس ، فأى أثرة فى ذلك . ان الترهيب أكبر مظاهر
الأنانية ، مهما يكن فيه من ارهاق وحرمان . انه لا يراد به
الا أن ينفع الراهب نفسه فى الدنيا أو فى الآخرة ، ولا ينفع
تبتله أحدا غيره ، ثم انك ان تكن تغبطنى على السكينة فانى
أغبطك على هذا الشعور الحاد بالحياة ، وحبك التمتع بها
كاملة . ولو أنك أخلدت الى السكينة ، وهى ليست من
طبعك ، لشقيت بها . ولو اندفع مثلى الى الكفاح ، وليس
من طبعه ، لكان شقيا .

— ولكنى قد أضر أو أنفع ، وقد أخطىء أو أصيب ،
وقد اودى الأبرياء ، أو أرفع المجرمين ، وقد أفعل كل ذلك
فى سبيل ارضاء نفسى وبلوغها أمانها ، وفى سبيل التمتع
بهذا الشعور العميق بالحياة .

ان خدمتك للناس فضل منك ، مخطئا كنت أم مصيبا .
انما يرهق أمثالك أنهم يرون الحياة سباقا ، ومن رآها
كذلك فلن يقنع بشيء ، ولن يرضى عن نفسه ، ولو أوتى
ملك القياصرة . ولو أنهم راضوا أنفسهم على أن الحياة
ليست سباقا ، وانما هى تحقيق ما ركب فيهم من قوة
وقدرة ، ولو أنهم علموا أن كل واجبههم أن لا تقصر همتهم
عن تحقيق ما خلقوا له ، وماركب في طباعهم من قوة أو
ضعف ، لانفق لهم بذلك كل ما به يسعدون .

— ان قولك هذا يخفف عني كثيرا من ألمى واضطراب
نفسى ولكنى مع ذلك أريد أن لا أذهب الى دار الندوة
اليوم حتى لا أحمل الوزر كله .

ثم خرج صاحبنا ولم يكن فى الواقع أقل قلقا وحيرة ،
ولم يكن لهذا الحديث أن يهدىء من ثورته ، أو يهديء
طريق الصواب . وأخذ يقول لنفسه : ان أكبر الجرائم
ترتكب فى سهولة ويسر ، اذا وزعت توزيعا يجعل نصيب
كل فرد أصغر من أن يضطرب له ضميره ! لم يجد الشيطان
اغراء للناس يسوقهم الى جهنم أقوى أثرا من هذا القول .
أترانى أسير أنا أيضا وراءه الى جهنم ، غير عالم بشيء مما
يدفعنى اليه عقلى وعلمى ؟ .

المفتى

كان في أورشليم عالم فقيه تقى ، وكان قومه يحبونه ويجعلونه ، وكان يتولى افتاء بنى اسرائيل في أمور دينهم ، وهم قوم في حاجة دائما الى الفتيا ، ذلك أنهم لا يفتأون يلتمسون تأويلا لنصوص التوراة حين تعترض سبيل حياتهم ، وما أكثر ما يحدث هذا الاعتراض . وما يؤثر عن المتدينين منهم أنهم يرون أن الرجل يجب أن يمهر عرسه قطعة من ذهب . فان كان من الفقر بحيث لا يملك ما يقدمه لها فأنهم يبيعونه خاتما من ذهب بثن بخص ، درهم أو اثنين ، يقدمه اليها ، ثم يشترونه منها بعد ذلك بدقائق ، ويرون ذلك خيرا من اعفاء الفقير من هدية الذهب ، لأن الاعفاء لم يرد به نص في كتبهم . ومثل هذا كان لرجل الافتاء عند اليهود شأن ، وكان لهذا المفتى شأن أكبر ، اذ كان حريصا أشد الحرص على أن تكون فتواه خالصة لوجه الله .

وكان له ابن من أذكى الناس ، يصحبه دائما الى الندوات ، يستمع ويتعلم ، وكان يعد نفسه لأن يلى الافتاء من بعد أبيه . وكان في صباح ذلك اليوم ممثلا نشاطا

وسرورا ، حين جاء الى أبيه مبكرا فسلم عليه وقبل يده ،
وجلس اليه ، على عادته كل يوم .

— يا أبت انى سمعت بالأمس حديث رجل الاتهام عن
صاحب الدعوة الجديدة ، وما كان أسعدنى بهذا الحديث
العجيب الذى جمع الى العلم الغزير حدة الذكاء ، وسحر
البلاغة المتدفقة . ولا أشك أنك أعجبت به كما أعجب الناس ،
فقد كانوا يستمعون اليه فى دهشة ، وهم منصتون الى كل
كلمة يقولها ، كأنما بهرهم جميعا حسن بيانه ، وصدق
اخلاصه ، وعظيم حبه لوطنه . وما كنت أحسب قبل اليوم
أن أحدا يستطيع أن يهر علماء بنى اسرائيل ، فيملك عليهم
قلوبهم وعقولهم كما فعل هذا العالم الخطيب . وما أعجبت
بشئ اعجابى بقوة حجته ، فقد أخذ يسرد وقائعه منظمة
على أدق وجه وأحكمه ؛ كان يبدأ بأصغرها ، ثم يتبعها
ما هو أكبر منها ، ويأتى بعد ذلك بما هو أشد خطرا ،
وتراه يقوى أسلوبه ويعلو صوته تبعا لذلك . وهكذا
أخذت حججه يتلو بعضها بعضا ، على نظام منطقى بديع ،
حتى لم يعد أحد يشك فى شر هذه الدعوة . ولم يكفه
ذلك ، فعمّظ على مستقبل بنى اسرائيل ، وصوره لنا
صورة رائعة ، ووصف ما سيجيق بأمّتنا لو أن رجال عصرنا
خارت قوتهم ، فتركوا القوضى تدب فى حياتنا وعقائدنا .
وأخذ يشرح لنا أن مستقبل اليهود بعد ألف عام أو أكثر
سيقوم على ما تفعله اليوم ؛ فان أخذتنا الشفقة ، وأحجمنا

عن القيام بواجبنا قضى على أمة إسرائيل كلها ، فإذا قاومنا البدع فسيحمد لنا قومنا شجاعتنا هذه بعد ألفى عام. وكان كل ذلك واضحا كأنه يراه رأى العين ، وهو بعد لا يزال من أبناء الغيب البعيد . أليس الذكاء نورا الهيا نرى به ما سيقع بعد أن نوارى التراب نحن وأبنائنا وأحفادنا ، أيمكن أن يكون هذا الذى تنبأ به خطأ مع هذا الوضوح كله.

وما أنس لا أنس قوله : « ان حياة بنى إسرائيل ، شعبا وديانة ونظاما ، أمانة فى عنقنا ، فليس لنا أن ندع أمتنا يعصف بها كل من يأتيها ببدعة جديدة . ان البدع لا تؤثر فينا ، وان كثرت ، فنحن أقوى ايمانا من أن نضطرب لشيء مما سمعتم ، ولكن البدعة كضربة المعول فى الجدار ، قد لا تؤثر فيه أول مرة أثرا ظاهرا ، ولكنها تفعل به فعلا خفيا يجعله أسهل سقوطا عند الضربات التالية . فاقطعوا دابر الفتنة فانها فتنة حقا . وقد رأيتم من فتوى المفتى ، وهو على ما تعلمون علما وفضلا ، أن معجزات صاحب الدعوة الجديدة ان صحت لا تدل على صدقه ، ورأيتم ما قاله شيخ علمائنا من أن المبادئ الخلقية التى يدعو اليها — بالغة ما بلغت من السمو — تنقض ما أمرنا به الله . أليس الله أعلم بما يصلح للناس ، أيجوز لمثل هذا الرجل أن يرتفع فوق ما أمرنا به سبحانه وتعالى . انه يأمر رجاله أن يحبوا أعداءهم ، ونحن وان كنا أسلم عقلا من أن نستمع

الى هذا الكلام الخلاب ، لانستطيع أن نسكت عنه ؛ فان فيه القضاء التام على بنى اسرائيل . ولو آمنوا به لانحلت وحدتنا وضاعت شخصيتنا وتلاشت أمتنا في من حولنا من أعدائنا وهم أقوياء . ان ذلك لن يكون أبدا . ان كل مانعلمه عنه يرجح كذبه وشدة مكره ، ويحتم علينا أن نقضى عليه . على أنى أذهب الى أبعد من ذلك ، هبوه صادقا ، وهبوه ذا قوة وسلطان ، يأمر الجبال فتسير ، والموتى فيقومون ، هبوه يستطيع أن يرسل الصواعق فتقضى علينا نحن الذين نحاكمه ، هبوا ذلك كله واقعا علينا لا محالة ، فاني أدعوكم ، رغم هذا كله ، أن تتمسكوا بالقضاء عليه . من منا لا يقبل أن يموت في سبيل حياة بنى اسرائيل ، وأية تضحية لا تهون في سبيل شعب كشعبنا ، ودين كديننا ، اذكروا قوم اسرائيل بعد ألفى عام ، واحكموا على هذا الداعى الى البدعة بما يكون فخرا لكم ولهم في ذلك المستقبل السحيق »

أليس ذلك أجمل ما سمع الناس وما قرءوا
فقال له والده :

— وهل في هذا الجمال ما يدل على صواب رأيه ،
وصدق حكمه .

— انه انما استرشد بفتواك ، ورأى كبير العلماء .
— كلافا يعلم أنه أخذ من قولنا ما يعجبه ، وترك ما لا يوافق هواه . ألم أحذرك نصف الحق فهو شر من الباطل .

- ولم لهم تذكر ذلك بالأمس ؟
- سأذكره اليوم .
- لن يكون لذلك أثر ؛ فقد ثبت لدى الناس أن صلبه واجب .
- أهذا ذنبى
- أترأه ذنب القائم بالاتهام ؟
- قد لا يكون ، وقد لا يكون ذنب الناس ، فهم انما اقتنعوا بما قال كبارؤهم .
- اذا كان ما حدث بالأمس خطأ فمن المخطئ ؟
- علم ذلك عند الله وحده .
- ألا يمكن أن يكون ما قرر العلماء بالأمس صوابا
- وقد يكون خطأ . قد يصير هذا اليوم سبة لبنى اسرائيل الى الأبد ، وقد يكون سبب نكباتهم ، شعبا ودينا ونظاما ، مدى عشرات القرون . وانا لنعلم أن الصواعق لن تنزل علينا اليوم ، مهما يكن عملنا ضلالا . فدعوى التضحية بأنفسنا فى سبيل حياة قومنا ، وطهارة ديننا ، دعوى رخيصة ، اننا نريد انقاذ اليهود بهذا القرار ، وقد يكون عملنا سببا فى سبيل قتل آلاف اليهود ، وقد يعذب من قومنا مئات الآلاف وهم أبرياء لا ذنب لهم الا هذا القرار الذى دفعنا اليه خطاب أعجبك زخرفه
- ان الشك عندما يحين وقت العمل لا يغنى شيئا ،

أليست هناك وسيلة نعرف بها وجه الصواب في مثل هذا الأمر .

— لا أدري . ولكنى أعلم علم اليقين أن هناك طريقين تؤديان الى الخطأ : أن نرجع الى التاريخ نلتبس فيه الموعظة والأمثلة ، وأن نسترشد بالمستقبل كما يهيئه لنا تفكيرنا ، فنقدر حاضرنا على أساس ما تتصوره من نبوءات ، ولعل التاريخ ، على ما به من ضعف ، أهدى الى الحق من دعوى التنبؤ بالغيب ، فان هذا التنبؤ لا يمكن أن يقوم على صحته برهان ، وانما يعجبنا بريق الذكاء الذى يصحبه غالبا . ألم تر كيف أعجب فرعون بالنبوءات التى ذكرها يوسف ، قبل أن يقوم عليها برهان ، ولم يكن تصديقه له ، واعجابه به الا لما فى قوله من دليل على الذكاء . واذا كان يوسف قد أصاب فى قوله ، فان ذلك لم يكن من عمل عقله ، ولكنه وحى أوحى اليه . أما غير الأنبياء من المتنبئين الذين يعتمدون على ذكائهم ، فانهم كاذبون ، وخطؤهم أكثر من صوابهم .

— وما سبيل الناس الى الصواب .

— اتركوا الغيب لله ، فليس الى العلم به سبيل ، وهو أظلم علينا من أن يكون لنا فيه هداية . وليكن حكمنا قائما على ما فينا من قدرة على تقدير الحاضر ، على أن لا تتعدى حدود الضمير . وليس فينا من يرضى ضميره

عن صلب هذا الرجل ، وانما يرضى عنه عقلنا وحده .
أما الضمائر التى خلصت من شوائب التفكير الخاطيء فلن
ترضى عن عملنا هذا .

عند ذلك أطرق الشاب ووجه . ودخلت عليهما أمه
تحمل طعامهما فوجدتهما على غير ما تعهد ، وقال الأب انه
لا يريد أن يأكل شيئا ، وقال الابن ان الحديث قطع عليه كل
رغبة فى الطعام ، وكان قبله أكثر ما يكون نشاطا . ولما
علمت أمه بما دار بينهما قالت لابنها .

— ان أباك خلق وبه داء الشك والتردد ، ولم أعهد أفتى
فتوى رائعة الا عاد الى نفسه يقول ليتنى لم أفعل .

— انى لن أفتى بعد اليوم ، انهم أساءوا فهم فتواى ،
ويريدون أن يقتلوا بها رجلا أرى ضميرى لا يرضى عن
قتله .

— لعلك تريد اليوم أن تعدل عن رأيك .

— وما الذى يمنعنى من ذلك . انى لا أريد أن تبقى
فتواى على مر الزمن سببا فى صلب رجل لا أعلم عنه
شرا .

— ألا يمكن أن تكون الفتوى صوابا

— اثمها ان تكن خطأ أكبر من تفعلها ان تكن صوابا

— ان الناس جميعا آمنوا أن صلبه واجب ، ولن
يعدلوا عن رأيهم ، بعد ما سمعوا ما تداولتموه بينكم .

بالأمس ، ولن يكون لرأيك الجديد من أثر فيهم . فان العامة لا يفهمون التشكك ، حتى حين يكون الشك هو الصواب ، بل هم يتبعون من يؤكد لهم أن رأيه هو الحق الذى لا ريب فيه ، ولو كان خطأ كله .

— انى أترك سياسة العامة لغيرى ، فليس أمرهم من شأنى ، انما يعيننى أن لا يبنى الخطأ على رأى ينسب الى .
واذا كنتم تريدون الحق الثابت فابحثوا عنه فى غير هذه الدنيا ، أو عند غير الانسان . وأنا لا أريد أن أكذب على العامة فأصنع لهم رأيا بعينه صبغة الحق الثابت ، ولا أريد أن أموه عليهم ، ولو كان ذلك خيرا لهم . واذا كنتم ممن يرون أن الكذب تسوغه السياسة . فاعلموا أن ذلك انما يرجع الى ما اختاره رجال السياسة لأنفسهم ، فهم يختارون أسهل السبل وأقربها الى بلوغ غاياتهم ، وأقلها مشقة .
وانك لتراهم يتهافتون على الكذب ويتسابقون اليه ، حين يكون أسهل السبل الى غاية يريدونها . ولو اتبعوا سبيل الصدق لبلغوا هذه الغايات على ما قد يكون فى طريقهم من مشقة وصعاب . واذا كان من رجال الدين من يرى رأى أهل السياسة ، فذلك أنهم يضعون السياسة فوق الدين ، أو يضعون سياسة الدين فوق الدين نفسه ، وهذا هو الضلال المبين .

لازار

كان في اورشليم رجل اسمه لازار ، بعث بعد موت ، وكان بعثه معجزة تحدث بها الناس ، فأمن بها قليلون وأنكرها كثيرون . وكثر الحديث عنها في دار الندوة حين بحثوا في أمر النبي الجديد الذي يدعى له أنصاره القدرة على احياء الموتى . ولم يكن هناك شك أن لازار مات أياما ثم لجأت أخته الى المسيح طالبة أن يبعثه من أجلها ، اذ لم يكن لها في الحياة غيره . وكانت مؤمنة بالمسيح ، فاستجاب لايانها ، وعادت الحياة الى أخيها . الا أن الذين عرفوه من قبل شابا جميلا مرحا ذكيا ، أنكروه بعد أن بعث ؛ فقد أصبح بعد البعث شاحب اللون ، غائر العينين ، قليل الكلام ، شارد الفكر . وكان الناظر اليه لا يرى في وجهه أثرا للعواطف الانسانية الطبيعية ، فهو لا يفرح ولا يحزن ولا يضحك ولا يبكي ، وانما كان يغضب غضبا عنيفا اذا غاظه أمر من الأمور ، ويهيج في غير اعتدال لأتفه الأسباب . وكان شديد القزع ، دائم الخوف ، ترى ذلك في نظراته الحائرة التي هي أشبه الأشياء بنظرة السبع . حين يحاط به فلا يجد سبيلا للنجاة .

ولم يكن يألف أحدا من الناس ، حتى أخته التي من

أجلها بعث ، ولم يعد يتحدث الى أحد ممن عرفهم من قبل ، وصار لا يجلس الى أحد ، ولا يسير الا في الدروب الضيقة وكانت أخته وحدها من بين أهل أورشليم تجلس تحت قدميه وتقبله وتعطف عليه . وكانت هي وحدها التي ترى أن عودته اليها نعمة وبركة . ولم يكن يعنياها على أية صورة عاد ، فان فقدوها اياه كان خليقا أن يحرمها كل أمل في الحياة . وكان تعلقها به تعلق الذي بعثت له أمنية عزيزة ، كان يظنها ضاعت الى غير رجعة . أما أهل أورشليم فكانوا يتشاءمون منه . وكانوا يبادلونه البغض والضيق والضجر ، وكلهم برم به ، لا يريد أحد أن يعرفه ولم يسأله أحد عن صفة الموت وهو وحده الذي عاد بعد أن ذاق طعم الموت وخبر أمره . ولم يقبل عليه أتباع النبي الجديد ولم يعدوه واحدا منهم . انما كانوا يتخذونه آية من آيات الله ، وبينة على صدق رجلهم الذين آمنوا به . واتفق الناس جميعا على أن بعثه لم يكن نعمة عليه ولا على أحد ممن حوله . وكانوا يعدونه أتعس أهل أورشليم ، وكأنه حين بعث انما عادت اليه الحياة ولم تعد اليه الروح أو النفس . وتساءل الناس : هل البعث الى هذه الحياة الدنيا — وهو حلم الانسانية كلها — لا يتم الا على هذه الصورة ، وأجمعوا على أنه اذا كان هذا شأن البعث فلا حاجة بالناس اليه .

وبينا لازار يسير مبكرا في ذلك اليوم اذ رآه بعض الأطفال فتجمعوا حوله ، وأخذوا يرشقونه بالحجارة

ويسخرون منه ويؤذونه ، واتبعوه في الطرق الضيقة التي كان يألفها ، يتتعدون عنه حين يهجم عليهم ، ويجرون وراءه حين يريد الإفلات منهم . وكان في الطريق الضيق الذي سلكه دكان حداد فقير لا يكاد يكسب قوت يومه لقلّة ما يطلب اليه عمله ، ولكنه كان سعيدا في ذلك اليوم أن قدم عليه تاجر معروف يطلب اليه أن يوقد النار من فوره ، وأن يعمل له أشياء لا بد من صنعها اليوم ، ويخبره أن ذلك لأمر جليل لم يشأ أن يذكر عنه شيئا .

وأجزل التاجر العطاء لهذا الحداد ، ووقف غير بعيد ينظر الى الكور بعد أن أوقدت فيه النار ، والى الحديد يطرق والشرر يتطاير منه ، واطمأنت نفسه أن ما وعد به الحاكم الروماني سيتم عما قريب .

وأقبل لازار والأطفال من حوله ، وقد بلغ منه الذعر ، ورأى أن يلجأ الى دكان الحداد فدخل فيه . ولكن الحداد حين وقع نظره عليه صاح صيحة انخلع لها قلب لازار ، أن اخرج من هذا المكان فلن أدعك تدخله وأنت أشأم الناس ، وكفاني بؤسا ما لقيته في حياتي ، فلا تجلب علىّ الشؤم في هذا اليوم الذي لاحت لي فيه بارقة أمل . ولوح الحداد بمطرقة وهو يتميز من الغيظ ، واضطربت يده ، فأفلتت المطرقة ووقعت في الكور فتطايرت قطع من النار ، أصابت احداها التاجر في عينه فزأر من شدة الألم ، وهول المفاجعة .

وجن جنون الحداد فاندفع صوب التاجر ليرى ما حدث له
فزلت قدمه ووقع على الأرض فتلقاها بيده ، وكان في الأرض
مسامير كثيرة ، دخل أحدها في يده اليمنى فخرج من ظهرها .
وعلا الصياح واشتد الهرج ، وأقبل الناس من كل فج ،
وشغلوا بانقاذ المصابين ، وكان في الوقت متسع للازار ،
فهرب واختفى عن أعين المطاردين حتى بلغ مأمنه . فلما
رأته أختاه على هذه الحال من الرعب ، حزتنا حزنا شديدا ،
وطفقتا تصليان ، وتدعوان الله أن يتم نعمته عليه ، وأن يرد
اليه صحته وعقله وجماله ، فاستجاب لدعائهما . ولكن
لازار لم يعد يطبق الحياة في بلده هذا فعزم على أن يبرحه
وأن يهاجر الى بلاد نائية يبشر فيها بالدين الجديد .

وأراد التاجر أن يطمئن الى أنه لا يزال يرى بعينه
الأخرى فنظر الى الحداد فوجده يلوح في الهواء بيد فيها
مسمار اخترقها . عند ذلك هدأ صياحه ونزلت عليه السكينة
— على ما كان فيه من ألم لا يطاق — وطلب الى الناس أن
يعينوه على الذهاب الى بيته ، وأن يحملوا الحداد الى
طبيب وقال لأصدقائه انه يريد أن يحتمل ألمه دون شكوى ،
فانه يعلم ما لا يعلمون ولا يريد أن يبوح بما يعلم ، وان
في ألمه شفاء لنفسه من داء لا يعلمه الا هو .

تجمع في مكان الحادث خلق كثير ، وعلا ضجيجهم ،
واشتد هرجهم ، وأخذوا يطالبون بالانتقام من أولئك

السحرة الذين يعيثون في الأرض فسادا ، ويؤذون الأبرياء .
فلما سمع التاجر ذلك طلب اليهم أن ينصرفوا ، فهو لا يريد
انتقاما ، ولا يعتقد أن الحادث من أعمال أتباع النبي الجديد
ولكن الذين تجمعوا في ذلك المكان أحسوا بقوتهم ،
وصمموا على الانتقام ، وقالوا ان كان هؤلاء يشفون المرضى فهم
قادرون على احداث المرض في الأصحاء ، وان كانوا يحيون
الموتى فهم قادرون على قتل الأبرياء . وتنادوا بينهم أن
هلموا الى دار الندوة نطلب دمهم جميعا ، هو وأتباعه .
ورأوا بينهم رجلا منعه ضعفه أن يشاركهم في حماستهم ،
فحسبوا ذلك منه استنكارا لما يعملون ، فضربوه حتى أغمى
عليه . وقال رجل منهم هذا ظلم ، انكم تقتلون بريئا لا ذنب
له ، فنظروا اليه نظرة ملؤها البغض والغضب وحب الاجرام ،
وقالوا هذا أيضا من رجاله ، اقتلوه . وهموا به فامتنع لونه ،
وعلم أن الانسان يقف أمام الجموع الهائجة كما يقف أمام
الحيوان المفترس ، ونظر الى من هم أقرب اليه ، فأجفلوا
عنه واحدا واحدا ، ولكن الجمع لم يجفل ، وكادوا يبطشون
به في غير ذنب جناه ، لولا أن قيض الله له رجالا يعرفونه حق
المعرفة ، أفتقدوه منهم . ومنذ ذلك اليوم كره الجموع
الحاشدة ، اذ يقن انها لا تفهم الحق ولا العقل ولا العدل ،
وانها لا تفهم الا القوة ، ولا تخضع الا لها .

وأقبل على بيت التاجر رجل من علماء بنى اسرائيل
كان من أشد الناس غضبا على صاحب الدعوة الجديدة

وأتباعه . فلما سمع بما حدث تأقت نفسه أن يثبت فيكون ذلك دليلا جديدا على فساد هذه الطغمة التي لا يمكن أن يكون فيها خير . واختلى بالتاجر ، وسأله عن حقيقة هذا الحادث العجيب .

— انى لا أرى فيه ما يدعو الى العجب . كنت أقف بجانب النار ، وكان يجب أن أقف بعيدا عنها ، ولو فعلت ما أصابنى شيء ، ثم سقطت مطرقة من الحديد فى النار ، فتطاير الشرر فأصاب عيني ، فأية غرابة فى هذا ، ثم وقع رجل على الأرض فدخل فى يده مسمار ، أليس ذلك طبيعيا جدا ، فمالكم تؤولون ما حدث كل هذا التأويل .

— ألم يحدث فى تلك اللحظة أن مر بكم هذا الذى بعث بعد موت ، وانك لتعلم أن هذا الرجل هو أصل البلاء فى هذه الأيام ومصدر الشقاق بين بنى اسرائيل . ان الناس يكرهون أن ينظروا اليه ، رعبا وفرقا ، وان هيئته وحدها لتدل على أن بعثه من عمل الشيطان . والروح الذى نفخ فيه ليس هو روحا الهيا ، بل هو روح الشر . انه حتى لم يفقد بعد صفات الموت ، كأنما بعثت فيه الحياة وحدها فبلغ مرتبة الدواب ، ولم يبلغ درجة الانسان .

— أليس فى الناس من يتبرك به ويود أن يلمسه تيمنا به ، أو ليس الله قد اختصه بما لم يختص به غيره من العالمين .

— لا أظن أحدا يراه مباركا إلا أخته ، فهي تكاد تعبدته .
أما الحواريون أنفسهم فلا يألفونه ولا يجلسون إليه ،
الاحين يريدون أن يقيموا الدليل على صدق نبينهم وقدرته .
— انى لا أفهم سببا يدعو الناس الى كل هذا التشاؤم .
ألا يمكن أن يكون لبعثه معنى خاص .

— لقد سمعت شيخ علما لنا يذكره يوما فيقول : انه
رمز للضمير الانسانى بعد ارتكاب الخطيئة والتوبة . ان
الله يتوب على الناس بعد المعصية فيرد اليهم ضميرهم بعد
موته — فان ارتكاب المعصية قتل للضمير — ولكن الضمير
يبعث على هيئة هذا الرجل ، شيئا بين الحى والميت ، ولا يمكن
أن يكون ضمير الرجل بعد التوبة طاهرا تقيا ، كضمير
البرىء الذى لم يرتكب اثما .

— هذا رأى جميل لا يستطيعه الا من أوتى حظا عظيما
من الحكمة والعلم ، أما جمهرة الناس فلا تفهم الرمز
على انى لا أزال أؤكد أن وجود هذا الرجل لم يكن سببا فى
ما حدث اليوم .

— ان الناس يتحدثون بشؤمهم ، ويقولون ان
ما حدث لك نذير بما سيحقيق بكثير منا ان لم نأخذ حذرنا
منهم . وآخرون يقولون ان مثل هذا الحادث العجيب يكون
عادة عقابا الهيا يقع على من اقترف ذنبا أو خطيئة ، ونحن
لا نعرف عنك ولا عن الحداد المسكين ذنبا يتفق وهذا

العقاب . ولما كان الناس جميعا يرون أنكما بريئان فلا شك أن ما حدث لكما من عمل الشيطان ، وهذا ما أعتقده . وسأذهب الى دار الندوة اليوم أقص عليهم هذا النبأ ، وأسوقه دليلاً على أن بين هؤلاء وبين الشيطان نسباً . وأنه يتخذهم أداة يؤذى بها الأبرياء أمثالك ، وانه لا بد أن تقضى عليهم جميعاً .

— وهل تصر على رأيك هذا اذا قلت لك ان ما حدث لنا اليوم معجزة تدل على صدقهم . ألا فاعلم أن ما يدعوكم الى تكفيرهم يدعونى الى الايمان بهم . ان هذا الرجل لذو قوة خارقة ، وسأسر اليك ما أود أن لا تذيعه عنى . ذلك أنى كنت فى ذلك الدكان لأعد الحديد الذى لا بد منه للصلب الذى سيصلب عليه نبيهم اليوم . ولأعد المسامير التى ستدق فى يديه ورجليه . وكان الحاكم الرومانى قد طلب الى ذلك ووعدته به ، ولم أرد أن أخلف وعدى . فلما فتحت عينى ونظرت الى الحداد ووجدته يلوح فى الهواء بيد قد نفذ فيها المسمار — بدا لى أن ذلك رمز للجرم الأكبر الذى سيرتكب اليوم ، كأنه عقاب الهى لهذا الذى يصنع أداة الاثم ، فخفق قلبى بالايمان ، وعلمت أن يد الله فوق أيدينا ، وأن رجله هذا مظلوم .

عند ذلك دهش هذا الصديق العالم وقال

— أحق ما تقول ، انك تكاد تقلب آرائى رأساً على

عقب ، أيمن أن يكون هؤلاء من المخلصين لله ، لا من أتباع الشيطان ؟

— هذا ما لا أشك فيه منذ اليوم

عند ذلك وجه هذا الصديق ، وخارت قوة حجته ، وشك في نفسه مدة من الزمن ، ثم غلب عليه الغرور وحب الظفر ، وخشى قول الناس فيه وغضب الجمهور عليه ، فقال لصديقه :

— هذا كله من نسج خيالك . أترى شعب اسرائيل كله مخطئا لأنك رأيت في يد ذلك الحداد مسمارا فخيّل اليك انه عقاب له على صنعه مسامير يصلب بها صاحب البدعة الجديدة . أيسمح لى عقلى وعلمى أن أتبع خيالك فأغلبه على الرأى الراجح والحكمة الناضجة ، وهل تظن ان الله في حاجة الى مثل هذا الرمز ليقنع الناس أن رجله مظلوم ، أليس الله بقادر على أن يرسل علينا صاعقة من السماء تذهب بنا جميعا قبل أن نقتل نبيه ، وهل يبلغ الله عندك من الضعف أن لا يمنع صلب رسوله الا بهذا الرمز البعيد . ألا ان خيالك لمريض ، ولن يكون لرأيك هذا وزن عندى .

— انك لم تفقد عينك ، ولم يدق المسمار فى يدك ، ولو أصابك ما أصابنى لآمنت .

— وهل تظن أن سبيل الله الى ايمان عباده به أن يفقأ أعين الناس ويدخل الحديد فى أيديهم .

— هذه سبيله في الدين لا يؤمنون ، والذين في طبعهم الكفر .

— ترى ما الذي سيصينى وأنا أصعب منك تصديقا وإيمانا .

— ان الله يهدى من يشاء من غير بينة ولا آية ، ويهدى غيرهم بالبينات والآيات ، أما من أراد له الضلال فلا هادى له .

— ان رأيك في الله بسيط جدا كراى الجهلاء والأغبياء يظنون أنه ينظر اليهم أفرادا ، ويحصى عليهم أعمالهم واحدا واحدا وعملا عملا ، وان الذين أوتوا قليلا من العلم والذكاء ليضحكون من رأيكم في الله . ان ايمان أمثالك أكبر سبب في الحاد الملحدون الذين انما ينكرون ما تواضعتم عليه أتتم من أنه صفات الله .

— فلتظل على علمك وذكائك . أما أنا فقد سمعت من أتباعه من يقول ان العباوة والجهل والفقر طريق الهداية ، واذا كان يعينك أن تعلم شيئا عنى فاعلم أنى تركت قومك الى قومهم وأنى بعد اليوم غبى جاهل فقير .

وسكت كل منهما ، وخرج هذا العالم محنقا مغیظا ، وسار الى دار الندوة وقد أخذته العزة ، وصمم على أن يكون عند رأيه بالأمس ، وان كان قد شعر فى قرارة نفسه أن الحق لم يعد بينا كما كان يظن منذ ساعة .

قيافا

حين أُلقيت مقاليد بني اسرائيل الى قيافا فرح أكثر الناس أن سيحكمهم رجل عالم عادل طيب . ولم يكن ذلك جديدا على بني اسرائيل ، فقد ولى أمرهم من قبل أنبياء وقضاة وملوك ، وكان من بين الملوك رسل وأولياء . وكان اليهود قد سمعوا عن فلسفة اليونان ، وعلموا أن لهم حكمة وان لم ينزل عليهم كتاب ، ولم يهذب ضمائرهم دين . ونفى اليهم أن أحد كبار المفكرين اليونانيين كان يرى أن توكل أمور الحكم الى الفلاسفة ، وكان قيافا فيلسوفهم وعالمهم فاطمأنوا الى حكمه ، وحسبوا أن عهدا جديدا في تاريخ قومهم قد بدأ وأنه سيكون عهدا سعيدا .

وكان بنو اسرائيل في تلك الحقبة من حياتهم في محنة لا تعدلها محنة ، منذ فتح الرومان بلادهم وأعملوا فيهم القوة . وكان أشد ما يزعجهم أن يتحكم فيهم وثنيون لا يفهمون من أمور الدين شيئا وهو أعز شيء عليهم . وكان على من يتزعمهم أن يقيهم شر الظلم وشر الوثنية ، وأن يبقى دينهم قويا ، وحياتهم طاهرة ، على الرغم من الرومان وجبروتهم — كان عليه أن يبقى النار والماء متجاورين

لا يظن أحدهما على الآخر . وكانوا يرون أن قيافا وحده قادر على تحقيق ما يريدون ان كان الى ذلك سبيل .

وحسده فريق منهم فطعنوا عليه وقالوا انه لن يستطيع حكم بنى اسرائيل ، فهم شعب صعب القياد شديد المراس . ذلك أن قيافا كان لا يؤمن بالقوة ، ولا يرى أن يكره الناس ، حتى على الخير . وكان يقول ان القوة اذا انتصرت للحق فالنصر للقوة لا للحق ، وان القوة من طبعها الشطط فلا تلبث أن تنتصر للباطل . وكان يرى أنه اذا اصطدم الحق والباطل وانهمز الحق فان ضمير الناس وسير التاريخ كفيلا باصلاح الخطأ ، أما اذا استعان الحق بالقوة فالغلبة لها ، وما دام الحق في المحل الثانى فسيان أن يكون خاضعا للقوة أو للباطل . ومثل هذه المبادئ التى عرفت عن قيافا ظن بعض قومه أنه لن ينجح فى حكم بنى اسرائيل لشدة مراسهم ، ولن ينجح فى اقناع الرومان ، فهم لا يؤمنون بغير القوة ولن يفهموا شيئا مما سيحتاجهم به . أما أنصاره فكانوا يرون أن مقاومة بنى اسرائيل للرومان بالقوة مقضى عليها بالاخفاق حتما ، وأنه لا بد من مقاومة الطغاة بشيء غير القوة ، وأنه ليس فى بنى اسرائيل من هو أقدر على ذلك من رئيس كهنتهم هذا .

وعاب عليه قوم أنه كان يقول بالزهد فى السلطان ، وكان يزعمه أن يكون له من الأمر ما يغير به حياة الناس

ومستقبلهم لكلمة يقولها قد تكون عن غير اعمال روية أو كثير تفكير . وكانوا يقولون ماله قد قبل أن يتولى من السلطان ما يزعجه ويقلق ضميره ، وما كان ينبغي له الا أن يظل عالما فيلسوفا ويدع أمور الحكم لمن لا يرى فيها ازعاجا للضمير . والواقع أن الذين يتولون الصدارة صنفان ، منهم من يسعى اليها جاهدا مجاهدا يتخذ اليها كل سبيل حسن أو قبح ، ومنهم من يضعهم قومهم في الطليعة لثقتهم فيهم . وكان قيافا من هؤلاء ، فلم يكن له أن يحجم عن الزعامة وان كان لها كارها ، لأنه كان يعلم أن الطامعين كثير ، وأنه أقلهم ضررا وأبعدهم عن القسوة والظلم والأثرة .

أما رجال السياسة فكانوا أشد الناس قلقا حين رأوا قيافا يتولى أمرهم ، فقد كان له في السياسة وفي رجالها رأى معروف — كأن يرى أنهم لا يستطيعون أن يرتفعوا فوق الواقع ، وأنهم لذلك لا يرجى منهم اصلاح ، بل الاصلاح عليهم مستحيل ، ذلك أن السياسة عند أهلها غايتها تحقيق الممكن ، أما الاصلاح فهو تحقيق ما يبدو أنه غير ممكن ، فكيف يتفكان . وكان يقول ان السياسيين أجهل الناس بما يتولون من أمر ، وان عظماءهم قوم يسايرون الحوادث ويحسبون انهم يسايرونها ، ويخضعون للعامة ويحسبون انهم الأعلون ، ما دام لهم من العظمة مظهرها . ومن مأثور قوله

أن بين أمر الله وأمر السياسة ما بين الأخلاق والحياة —
تتافرا وتباعدوا واختلافا ، ليس أصلها التناقض وانما مرجعها
الى صعوبة ترجمة أوامر الله الى أعمال السياسة كما تصعب
ترجمة مبادئ الأخلاق الى أعمال الحياة .

وقضى قيافا مدة يتولى حكم بنى اسرائيل ، ووفق في
كثير مما عمل ، واستطاع أن يقف من الرومان موقفا وسطا
بين الشدة واللين ، ووقف من قومه موقف العادل المختص
لهم فأمنوا أنه لا يبغي الا الحق . وحملهم هذا الايمان على
أن يحتملوا منه ما لم يكونوا ليقبلوه من غيره . ذلك أن
حسن ظن الناس بالحاكم أكبر أسباب نجاحه ، الا أنه أمر
شاق ، لا يناله الا قليل ، وسر التوفيق فيه الاخلاص المطلق ،
في غير تدبير أو حساب أو تمويه أو ادعاء . وكان قيافا
من هؤلاء الحكام الموفقين الذين يؤمن الناس بعديلهم ،
وصدق حكمهم ، وشدة اخلاصهم .

لم تكن حياة قيافا سهلة لينة ، ولكنه كان يرى الحق
بيننا ، والباطل بيننا ، فلم يخنه صواب الرأي ، ولم يضطرب
حكمه الا نادرا ، وكانت له قواعد خلقية بسيطة واضحة
تهديه الى الخير ، وقواعد عقلية ثابتة عنده تهديه الى
الصواب ، فكان صادق الحكم على الأشياء وعلى الناس .
وأعانه على ذلك أن الحاكم الرومانى — على ما كان فى
الرومان من صلف — كان ممن يقدر على المبادئ السامية

ويفهمون مشكلات الحق والضمير الى الحد الذي يستطيعه
من نشأ بين القواد الرومان .

ظل قيافا موقفا للخير ، راضيا عن نفسه ، حتى قامت
الدعوة الجديدة بين بنى اسرائيل ، فملكته الحيرة في ما يجب
أن يفعل بها وبصاحبها . وكان في قرارة نفسه معجبا بكثير
مما جاءت به ، الا أنه حرص على أن لا يعرف ذلك عنه .
ومما أعجبه من النبي الجديد أنه وافقه على سياسته ازاء
الرومان ، فان قيافا رأى أن يتركه الرومان يدبر أمر قومه
في الدين والحياة الخاصة على أن يترك لهم أن يحصلوا على
ما يريدون من جزية . ولكنه كان يغبط صاحب الدعوة
أشد الغبطة على تعبيره عن هذه السياسة بما لم يرتفع اليه
علم قيافا ولا ذكاؤه ، وذلك حيث يقول : أعطوا ما لقيصر
لقيصر ، وما لله لله .

وبلغ اعجابه بالنبي الجديد غايته حين سمع بمملكة
السماء ؛ ذلك أن قيافا ظل طول حياته يبحث عن حل حاسم
لمشكلة خلقية لم يعثر لها على حل في ما بين يديه من آراء
الأنبياء والفلاسفة . ولم تكن هذه المشكلة التي أهمته
الا البحث عن جزاء للفضائل السلبية ، والفضائل المستترة ،
والسلبية المستترة . فالناس جميعا يعلمون جزاء الفضائل
الايجابية كالشجاعة والكرم وعمل الخير ، جزاؤها واضح ،
هو تقدير الناس واحترامهم وحبهم ، وحسن الأحدثوة ورضى

النفس . أما الفضائل المستترة كالصبر والامتناع عن عمل الشر والعطف على الضعيف ، والبر بالفقير ، والأمانة ، فليس لها جزاء واضح الا اذا علم أمرها وذاع خبرها ، وذلك يذهب بفضلها ، وقد ينزل بها الى أن تصبح من ورءاء . والفضائل السلبية كالتواضع واحتمال الأذى ونبد الشر حين تدعو الى الشر دواعي المنفعة أو التقية أو الأثرة ، أو الرغبة في تجنب الأذى أو نشوة النصر ، وكثيرا ما تكون هذه الفضائل السلبية أقسى على النفس ، وأصعب احتمالا من الفضائل الايجابية البراقة الرنانة . وكثيرا ما فكر قيافا في ما عند الفقراء والجهلاء وبسطاء النفوس ، من هذه الفضائل ، وكان يدرس حياة هؤلاء فيجد فيها من البطولة السلبية المستترة ما يملأ قلبه اعجابا . بل كان يبحث في حياة العاهرات ورجال الخمارات فيجد فيها مثلا غليا لشجاعة الاحتمال ، وبطولة التضحية ، وفضل الصبر . وكان يود لو يستطيع أن يجد لهم جزاء فانه من الظلم أن يكون تقدير الفضائل مقصورا على بعض الناس دون البعض ، وعلى طبقة دون طبقة . ولم يكن يكفيه ما يقال من أن جزاء هذه الفضائل رضى النفس ، فذلك وحده لا يفي لهم بما يستحقون من جزاء ، واذا كان ذلك كل الجزاء فان أكثر الناس سيجدون من الصعب عليهم أن يتمسكوا بهذه الفضائل طول حياتهم ، دون أن يعتريهم يأس أو ملل .

واهتدى أخيرا الى حل فرح به ، هو أن طبيعة الانسان كل لا يتجزأ ، فهي وحدة متماسكة ، وكل فضيلة — مهما يكن أمرها خفيا — تعد حجرا في بناء الشخصية ، ولا يضع أثرها ، وان خفى على الناس فضلها . والذين يظنون أن تضحياتهم تذهب هباء ، وأن صبرهم على المكروه لا يعرفه أحد ، وأن تعففهم عن السوء يحرمهم خيرا كثيرا ، ثم لا يعرف أحد عن هذا التعفف شيئا ، كأنهم والذين لم يتعرضوا للأغراء سواء ، كل هؤلاء يجب عليهم أن يذكروا أن ما يعملون يكون لهم شخصية طيبة لا يخطئها أحد وان خفيت على الناس أعمالهم تفصيلا ، وأن يعلموا أن فضائلهم وتضحياتهم لا تذهب سدى ، وعليهم أن يظلوا عاملين على شاكلتهم فان هذه الشخصية الطيبة التي تعرف عنهم جزاء أوفى .

ولكنه وجد أن النبي الجديد جاء لهذه المشكلة بحل أروع وأجمل ، ذلك أنه خلق لهم مملكة السماء جزاء على هذه الفضائل المستترة والسلبية ، وجعل دخولها حقا للفقراء والبسطاء والخطئين والجهلاء. فرد لهم بذلك اعتبارهم وأعاد اليهم انسانياتهم ، وجزاهم خيرا على ما يكون فيهم من فضائل . وكان ذلك عند قيافا حلا رائعا يحقق نوعا من العدل حرمة هؤلاء من قبل .

ولم يعجبه كثيرا ما تهجم به صاحب الدعوة الجديدة

على الفريسيين ، ولم يكن قيافا يحبهم أو يأبه لهم ، ولكنه كان يقول ان اعلان العبادة والتقوى ينشر لواءها بين الناس ، فان كان المتعبد التقى منافقا فسيحرمه الله ثواب عبادته وتقواه، ولكن هذا التظاهري يقى على التدين حتى لا ينسأه الناس ، وقد يدعو ذلك كثيرا منهم الى التعبد الحق .

وأنكر قيافا انكارا تاما ما حكم به صاحب الدعوة الجديدة فى أمر المرأة التى أراد الناس أن يرحموا ، فكان يقول ان هذا الذى حكم به السيد المسيح — مهما يكن سموه ونبله — تهجم شديد على أمر صريح من أوامر الله لا سبيل الى تأويله ، وان هذه بداية اذا اندفع فيها من فى قلبه زينغ فلن يعلم أحد مدى ما يبلغه الناس من تنكر للدين وتأويل لأوامره . وكان قيافا لا يعبأ كثيرا بمعجزات النبى الجديد ، انما كان اعجابه به أنه أتى بمعجزات من المبادئ السامية ، والحلول الرائعة ، لمشكلات فى الأخلاق لم يوفق أحد قبله الى حلها على هذا النحو البديع .

وكان قيافا يعتقد أن أحدا لا يفهم الدعوة الجديدة ، مداها ومغزاها ، الا هو وصاحبها . وكان يغبطه على توفيقه فيها من الناحية الخلقية ، ولكنه كان يؤكد أنها لن تنجح فى تغيير طبائع الناس وحياتهم . وكان يقول لنفسه ان النبى الجديد — بالغا ما بلغ من سمو فى المبادئ ، والعمق فى التفكير — لن يوفق الى نجاح يذكر فى اصلاح حال

الناس ، وانه ان يكن قد بين حدود الضمير الانسانى عند الفرد فانه عجز عجزا تاما عن أن يخلق للجماعات ضميرا ، كأنه يظن أن الجماعات تكون طيبة اذا كان أفرادها طيبين ، وهو خطأ مشهور . انما يجب أن نخلق للجماعات ضميرا يمنعها أن ترتكب الشر ، على أن يكون ذلك بوازع من الضمير وحده ، دون أن تحمل عليه قهرا ، وان لم تفعل فسيظل الشر بيننا قائما وان أنكره كل فرد منا . وكان يقول عن النبی الجديد ، انه يريد أن يضع الضمير فوق التدين ، ولكن أهل التدين سيقضون عليه قبل أن ينقذه أهل الضمير . ويريد أن يرفع صغار الناس الى أن يساوى بينهم وبين من هم أعلى منهم ؛ ولكن هؤلاء سيقضون عليه قبل أن ينقذه من يريد أن يرفعهم . ويريد أن يرفع الانسانية فوق الوطنية والقومية ، ولكن الوطنية ستقضى عليه قبل أن تنقذه الانسانية . انه لم يؤذى أى فرد من بنى اسرائيل ، ولن يؤذيه أى فرد منهم ؛ ولكنه يؤذى اسرائيل مجتمعة ، وجماعتهم هى التى ستنتقم منه ، وان كره كل واحد منهم أن ينتقم منه بنفسه . ثم يقول مع ذلك انه نبى ، ويقول أتباعه انه اله . أليس اخفاقه عجزا ، ومتى كان العجز من صفات الربوبية ، الا عنده هو وأتباعه . سيتبين له بعد قليل أن مجرد انسان مثلى أقدر منه على الاصلاح ، وان أمدته روح القدس . ألا فليعلم أن الاصلاح أقرب ما يكون الى

النجاح حين يكون قريبا من الواقع ، وأن الإصلاح الجارف الذى يسمو عن ما يكون عليه الناس سموا كبيرا لا أمل له فى النجاح ، وأن المصلح الحق هو الذى يرتفع بالناس عن ما هم فيه ارتفاعا قليلا . عليه أن يعلم أن الزمن عامل من أكبر عوامل الإصلاح ، ولا يستطيع الأنبياء ولا الآلهة أن يغلوه . والدعوة التى قد تصلح للناس بعد آلاف السنين تكون عليهم وبالا اذا عملوا بها قبل أن تنهيا لها نفوسهم . انه ان يكن خيرا منى ضميرا ، وأظهر منى نفسا ، وأسمى خلقا ، فانى خير منه عملا ، وأجزل فائدة للناس .

كذلك كان يفكر قيافا حين يخلو الى نفسه ، يبحث فى أمر الدعوة الجديدة وصاحبها بحثا هادئا ، ولم يكن فى حاجة الى غير البحث الهادىء فى هذه الأمور . ثم تألبت اسرائيل كلها على النبى الجديد تطلب دمه وأجمعوا على أن يحكموا عليه بالصلب . عند ذلك رأى قيافا أن الأمر أصبح جدا لا يحتمل البحث الفلسفى المجرد ، بل أصبح واجبا عليه أن يقبل ما رأوه بالأمس ان كان حقا ، أو أن يعارضهم ان كان ما قرروه باطلا .

لم يعرف قيافا فى حياته أمرا حار فيه كما حار فى هذا الحكم الذى أصدره قومه بعد بحث دقيق وجدل طويل . وكان من قبل يذهب الى أن الحق أمر طبيعى واضح ، وأنه ليس أسهل على المخلصين من أن يتبينوا سبيله فيتبعوه .

أما اليوم فقد ظهر له أن اخلاصه وعقله وحكمته لم تسعفه .
وغم عليه الأمر فلم يعد يدري أين يكون الحق . وآلمه أن
يكون الحاكم الرومانى الوثنى — على ما فى طبعه من
جفاء — أحد ذهنا وأرق طبعاً . ألم يقل لبنى اسرائيل حين
طلبوا اليه أن ينقذهم من صاحب البدعة الجديدة باسم
الحق « الحق ! وما هو الحق » . وندم قيافا على أنه لم يكن
قائل هذه الكلمة ، وود لو أنه قالها لقومه قبل أن يستفحل
الأمر لعلهم كانوا يهتدون .

قضى قيافا ليلته هذه مؤرقاً يقاب الرأى على كل وجه .
وكانت أفكاره مضطربة تعلو وتهبط فترتفع به الى أسмы
العواطف تارة ، وتنحدر به الى ما دون ذلك تارة أخرى ،
عنى غير نظام منطقى معقول . وحاول أن يجد لنفسه
قاعدة ، بها يمكن أن يجمع بين واجبات ضميره وواجبات
السياسة ، فلم يوفق . وحاول أن يغلب أحد الوجهين على
الآخر فلم يوفق . وألمت بخاطره أشياء من أعماق تاريخ
حياته قديما ، وحوادث من عهد شبابه لم يكن يظن أنها
لا تزال تؤثر فيه بعد أن تقدم به العمر . وكانت ليلة
ليلاء ، استعرض فيها — على غير ارادته — حياته كلها ،
العقلية والنفسية ، مما لا علاقة له بالأمر الذى أهمله ، وكان
ذلك على نحو لم يعهد له مثيلا من قبل .

وأخذ يقول لنفسه ، وهو يفكر هذا التفكير المضطرب

— ما لهذا الرجل اختص بدعوته بنى اسرائيل ، ونحن
أهل دين وخلق ، ونحن أكثر أهل الأرض تمسكا بأوامر
الله . وماله يريد أن يطهر ضميرنا ، ونحن أطهر أهل الأرض
ضميرا . ألم يكن أجدر به أن يذهب الى روما ، يقوم
بدعوته فيها ، فأهلها وثنيون ظالمون جهلاء . ولم لا يحاول
هداية هؤلاء الظالمين من أهلها ، وهم أحوج ما يكونون
الى حكمته . ولو وفق الى ذلك لخدم الانسانية خدمة
كبرى . ان روما سيدة العالم وبيدها البطش والسلطان ،
على حين ان دعوته اذا نجحت بين شعب اسرائيل لم تفد
من ذلك أمة من سائر أمم الأرض . انى لأعجب بدعوته
الاعجاب كله ، ولكنى لا أريد أن يقوم دينه بيننا ، فنحن
في محنتنا هذه في أشد الحاجة الى التساند والتوافق
والهدوء . والذي يعني أن لا تكون دعوته سببا في
الشقاق والفرقة بين صفوفنا ، ويستوى عندي بعد ذلك
أن يرتفع الى السماء ، أو أن ينفي الى أقصى الأرض ، أو
أن يصلب اذا أراد الله له أن يقتل مظلوما . واذا تم له ذلك
فانه يكون قضاء الله ولا راد لقضائه ، وهو أعلم بالغيب منا .

لعل هذا أول النور الذي اهتدى به الى الصواب
فلأبدأ من حيث أريد أن أنتهي . انى لا أريد أن يظل بيننا
على أية حال ، فان لم يكن الا الصلب سبيلا الى ابعاده
عنا فليصلب ، ويكون صلبه صوابا ، ويكون واجبا على

أن أقر ما حكمنا به عليه بالأمس في دار الندوة . ولكن
 كيف يستقيم لي هذا الرأي . يجب على أن أقر ما اتهموه
 به ، وهو ما لا أراه ، فقد اتهموه بالباطل ، وهو برئ من
 كل ما ادعوه . وكيف أبرئه من الذنوب ثم أوافق على الحكم
 عليه بالموت . وإذا أعلنت براءته فيجب أن يظل بيننا ، وهذا
 في رأيي يكون خطأ . فأنا منه بين أمرين ؛ اما التخلص منه ،
 وذلك لا يكون الا باتهامه ظلما وكذبا في سبيل غاية أراها
 حقا ، واما أن أعلن براءته فيبقى يثبت دعوته فينا ، وهو
 شر لا أراضاه . على أنني اذا اتهمته بالباطل آكون قد ارتكبت
 ما كنت أعيبه على أسوأ الناس انغماسا في حمأة السياسة
 الجاهلاء . وهل يليق بي أن أتبع الوسائل السيئة لبلوغ
 الغاية الحسنة ، ألم أقض عمرا أقول للناس ان من أكبر
 الخطأ أن يظنوا أن الغاية الحسنة تبرر الوسيلة السيئة ،
 لأن الوسيلة السيئة لا تؤدي الى الغاية الحسنة أبدا ، فالشر
 لا يؤدي الى الخير مطلقا الا وهما والى حين ، ثم يطفئ
 الشر . ثم ان شعوري بالعدل ، وهو أعز شيء على نفسي ،
 يأبى على أن أترك هذا الاتهام يلصق به ظلما . انهم أخذوا
 عليه أرقى ما في دعوته من مبادئ . اتهموه انه يدعو الى
 التوكل والبر وحب الأعداء ، وقالوا ان ذلك يقضى على
 فضائل شعب اسرائيل ونظام حياتهم . واتهموه بالسحر
 وما هو بساحر ، واتهموه بالدعوة الى مخالفه كتاب الله ،

وقالوا ان ذلك كفر به ، وهو انما ذهب بالايمان خطوة أبعد
مما ذهب اليه موسى في شريعته ، وما أرى في ذلك كفراً ،
بل هي سنة الله في الرقي . انما ذلك كله من عمل القائم
بالاتهام . انه يريد أن يصعد سريعاً الى الزعامة ، ولو كان
سبيله الى ذلك الظلم والعدوان . ان الظلم فيه موروث .
أليس هو من تلك الأسرة التي أبت على في شبابي أن أتزوج
فتاة منهم احتقاراً لشأني ، ثم أليس غرضهم الأول أن
يضعوه مكانى .

وعندما ألم به هذا الخاطر احمر وجهه خجلاً واضطرب ،
كأنه فاجأ نفسه وهو يفكر على نحو لا يليق به أبداً . ثم
استمر يحدث نفسه .

كل هذا بالطبع لا شأن له في انكارى موقفه بالأمس .
انه ارتكب خطأ في التفكير لا أحب أن أقع فيه ، ذلك أنه
كون رأيه أولاً وهو أن الرجل مجرم ، ثم أخذ بعد ذلك
يبحث عن ما يسوغ به رأيه ، وأكثر الناس يقعون في هذا
الخطأ ، وقليل جداً من يجمعون الأسباب أولاً قبل أن يتكون
لهم رأى في أمر من الأمور . فأكثرهم يكون الرأى ثم
يلتمس الأسباب ، وهو خطأ كنت أظن أنى تحررت منه من
قديم . ولكنى أرانى أعمل اليوم ما أعتقده خطأ ، ألم أقرر
أولاً انه لا بد أن يزول من بيننا ، وها أنذا ألتمس الأسباب
بعد أن قررت ما قررت ، وهل أستطيع أن أنقذه الآن بعد

أن اقتنع الناس كافة بخطرهم عليهم . انى أخشى أن يكون
انقاده اليوم مستحيلا ، وكان علىّ أن أمنعهم من الاستمرار
فى الاتهام ، وما معنى من ذلك الا أن يظن بى الناس الظنون ،
وأن يتهمونى بالخوف منه ، أو بالكفر ، كما اتهموه . انى
ان قاومتهم خلعونى ولا يكون انقاده ، وان خضعت
لاجماعتهم نفذ أمرهم فيه ؛ ففى كلتا الحالتين لن أستطيع
أن أنقذه . ثم انى اذا استطعت ذلك فانه يبقى بيننا ويستفحل
أمره ، وهو ما لا أراه . ان الحيرة فى أمره ترجع الى أن
وجوده خطر ، وهو برىء ، فكيف التخلص منه دون أن
نظلمه أليس هو صاحب المعجزات ، فليحدث له ما يحدث ،
فان كان الله أراد له أن يقتل فما أنا بمنقذه ، وان كان أراد
له النجاة فليس علىّ أن أجد سبيلها . هذا أضعف الايمان ،
وما كنت أظن أنى أبلغ هذا القدر من ضعف الرأى ، ولكنى
أستهدى عقلى فلا أجد عنده هدى .

وأقبل الصباح ، وقيافا متعب محزون . خرج الى دار
الندوة وهو لا يدرى ما يجب عليه عمله ، وكان آخر رأيه
أن يترك الأمور تسير على هواها ، وأحس انه ليس له
سلطان يوجه به الأحداث الوجهة التى يريد ،
فعزم أن يلزم جانب الحيطة ، وأن يقر ما يتفق عليه أهل
العلم وقادة الفكر من قومه ، وحسابه وحسابهم على الله .
فقد ثقته بنفسه ، وفقد ثقته بالشورى ، وكان من

المؤمنين بها ، يراها وسيلة الى خلق الضمير عند الجماعة ،
فان الجماعة وهى لا ضمير لها تختار أفرادا يتشاورون ،
ولهؤلاء الأفراد ضمير يرجى منه أن يؤثر فى ما يعملون باسم
الجماعة . وقد ثقته بالحق وبالعدل وبالدين وتعاليمه ،
فهى لم تهده الى الصواب فى هذا الأمر الذى غم عليه ،
وأصبح يعتقد أن هداية الدين انما تكون هداية عامة
لا تنصب على موقف بعينه ، وأحس أنه أفلس افلاسا
تاماً ، وأنه اليوم أضعف الناس ، وأنه عند الشدائد يستوى
وأجهل بنى اسرائيل وأقلهم قدراً .

ولو قدر له أن يرى هذا الذى حكم عليه بالصلب لرأى
رجلاً آمناً مطمئناً هادئاً ، لا يرتقى اليه الشك أو القلق ،
ولعلم أن الفرق بينهما أن النبى الجديد يتكلم عن يقين ،
ولا يعبأ بما ستحدثه دعوته من أثر فى حياة الناس لأنه
لا يعنيه منها الا أنها الحق . ان دعوته تتعلق بالضمير وحده ،
وهو قد أهمل سياسة الناس اهمالاً تاماً ، ولم يتمسك
الا بالروح والضمير . أما ضعف الطبيعة الانسانية الذى
يقلب الخير شراً ، ويخلط بين الحق والباطل فلم يكن يجوز
عليه ، لأنه لم يكن يستمع الا الى الضمير خالصاً ، ومن
اهتدى بهدى ضميره وحده فلن يضل أبداً .

دار الندوة

اجتمع خلق كثير أمام دار الندوة يصيحون بأعلى صوتههم : اقتلوه ، اصلبوه ، حرقوه ، انه ساحر خطير ، اقتلوا أتباعه الخونة المارقين . ودخل قيافا مكان الاجتماع مكتئبا حزينا متعبا ، وحيا الحاضرين تحية فاترة بعيدة ، وجال بعينه فيهم فرأى رجل الاتهام ، ولما وقع بصره عليه علا الدم الى وجهه ، وقال يحدث نفسه ان قام اليوم يقول مثل قوله بالأمس تصديت له وحملت عليه ، وفندت قوله وسفهت رأيه ، وليكن بعد ذلك ما يكون . وكان يظن هو وغيره أن هذا الشاب سيكون أول من يتكلم ، وأنه سيتابع اتهامه بمثل ما تجلى في قوله من قبل من قوة واقتناع ، وأنه سيحمل الحاضرين على التمسك برأيهم ، ولكنه ظل في مكانه ساكنا ، ونظر اليه الناس فاذا هو شارد الفكر لا يريد أن يهتم بالكلام .

كان أول المتكلمين شيخ حطمته السنون ، أخذ يقول :
— انى سألقى الله بعد قليل ولا أحب أن ألقاه كاذبا أو مكذوبا على . وقد سمعتم بالأمس عنى قولاً كثيراً . قيل لكم انى أرى أن أحدا لا يجوز له أن يدعو الى قانون خلقى أسمى من القانون الذى نزل على موسى ، لأن ذلك يكون استداركا على الله ، وهو كفر صريح ، أو يكون دليلا على أن الله بعد أن وضع ناموسه بدا له أن يغير فيه ، كأن علمه كان ناقصا ، وكلا الأمرين كفر لا يقبله أحد ممن يدينون بدين بنى اسرائيل .

وما قلت في الواقع شيئاً من ذلك . انى لا أنكر المثل العليا التي يدعو اليها هذا الرجل ، ولكنى آخذ عليه أنه جعلها جزءاً لا يتجزأ من الدين ، وأنه يريد أن يحمل الناس جميعاً عليها بقوة التنزيل . والرأى عندى أنها يجب أن تظل نبراساً يهتدى به ، فمن استطاع أن يتبعها مختاراً فهو خير له ، ومن لم يستطع فلا ضير عليه ولا يعد مخالفاً للدين . وإذا ظلت كذلك فليس فيها ما يمس العقيدة من قريب أو بعيد .

وما حملنى على أن أرى هذا الرأى الا خوفاً على الدين . فان علينا أن نحافظ على حرمة وقديسة أوامره ونواهيه . ومن الخطر على الدين أن يتهامس الناس بينهم أن أوامره عسيرة لا يقدر عليها الا القليل . وأن نواهيه تمنع خيراً كثيراً ولا ترد الأذى الا نادراً . وقد دلتنى خبرتى بطباع الناس على أن من يخالف أوامر الدين في ما هو عسير يسهل عليه بعد ذلك أن يخالفه في ما هو يسير . وإذا أصبحت أوامر الدين من السمو بحيث لا يستطيعها الا قليل من الناس بعدت الشقة بينه وبين الحياة ، وذلك يضعف من أثره في اصلاح حال الناس ، اذ أن قدرة الدين على الاصلاح مرجعها الى هيئته . ومما يذهب بهيئته أن يتجرأ الناس عليه وأن يفشو فيهم القصور عن اتباع تعاليمه .

ورجال الدين والعلم في هذا الأمر فريقان ، فريق يرى

أن الدين انما ينفع الناس اذا كان قوة مرغمة . وهؤلاء يقولون ان الناس كالثقافة يجب أن تسير على قدر ما يستطيعه أبطأ فرد فيها ، ما دام ذلك لا يعطل سيرها ولا يعرضها لأذى ولا يفوت عليها نفعا . أما حملها على السير بأسرع ما يستطيعه أقواها فهو ارهاق يؤدي الى تفككها فلا تقطع أرضا ولا تبقى ظهرا . وهؤلاء يقولون ان الله أعلم بما يصلح للناس ، وأن ما يأمرنا به يجب أن يتبع كما أنزله الله لا نزيد فيه ولا ننقص . وبنو اسرائيل من هذا الفريق ، وهذا ما أعتقده وما أدعوكم اليه .

وهناك فريق آخر من كبار الأتقياء يرى أن الدين يجب أن يكون جماع المثل العليا التي يعرفها الناس ، وسواء على الدين أن يستطيع الناس أن يوفقوا بين حياتهم وتعاليمه كلها . انما عليه أن يظل حقيقة ثابتة دائمة سامية . وانه اذا قيس بما يصلح لقوم بعينهم في عصر من العصور فان ذلك يجعله عرضة للأخطار التي تأتيه من الرقى الطبيعي ، ومر الزمن ، وتقدم الناس ، واتساع العقل والعلم . وقد تتغير النظم الاجتماعية وقد يسمو شعور الناس بالعدل الاجتماعي الى ما هو أرقى مما يصلح لنا في عصرنا هذا . عند ذلك تكون أوامر الدين أقل شأنا مما تأمر به القوانين الوضعية ، وفي ذلك الخطر كل الخطر على الدين كله .

هذا رأى أعتقد أن النبي الجديد أخذ به فجعل دينه

من السمو بحيث لا يعلو على قانونه الخلقى شيء ، ولم يعبأ
بأثر الدين في حياة قومنا . ولست أرى هذا الرأي ولكني
لا أدعى العصمة ولا أقول ان دعوته كفر . وقد يكون رأبي
خاطئا ، وقد تكون طبيعة دين بنى اسرائيل هذه سببا في
منع انتشاره بين الناس . وقد يكون بعد الدين الجديد
عن الحياة التي نعرفها سببا في عظمته وانتشاره . كل هذا
من علم الغيب لا أعلمه ، ولكني على قدر عقلي أرى أن من
الخطر على الدين أن تصبح المثل العليا جزءا منه ، وأن
تصبح أوامره ونواهيه من السمو بحيث لا يستطيعها الا
الخاصة وهم قليلون ، فان ذلك يدعو الناس الى اغفال
الدين ما سهل منه وما صعب .

استمع الناس الى هذا الشيخ الفاني وهو يتهمم أنهم
شوهوا آراءه ، وعجزوا عن فهم قوله . ولما كان تقده
منصبا على ما جاء في خطبة الاتهام ، ظن الحاضرون أن خطيب
الأمس لن يسكت على ما قال هذا العالم الكبير ، فاشأبت
اليه أعناقهم يتوقعون منه ردا ، ولكنهم وجدوه مطرقا
لا يريد أن ينطق بكلمة ، وكان هذا منه عجبا .

ثم وقف المفتي يقول : ان خطأ وقع في تفسير قوله في
المعجزات ، فهو لم يقل بكذبها ، ولم يطعن في من تمت
على يديه . وأخذ يشرح نظريته المعقدة في المعجزات ، وفهم
الناس اجمالا ، وان لم يفقهوا كثيرا مما قال ، أنه لا يرى
بأسا بصاحبها .

— ان الناس أسرفوا في الحديث عن هذه المعجزات .
 ونحن بنى اسرائيل من عادتنا الاسراف في القول ، وبلاغة
 لغتنا تدعو الى التعميم ، فاذا قلنا ان الطوفان عم الأرض
 فاننا لا نريد أن نقول شيئا أكثر من أن الطوفان عم القرى
 اننى نحن فيها ، واذا قلنا أظلمت الدنيا فانما نريد أن نقول
 ان الظلام أحاط بنا ، وكثير مما يقول الناس عن المعجزات
 فيه هذا الاسراف ، ولو جردنا ما يقال عن المعجزات من
 هذا الاسراف لوجدنا مابقى حقا لا شائبة فيه .

وتابع حديثه فقال :

من العبث أن ننكر وقوع الحوادث التى سميت بمعجزات،
 فهى قد وقعت من غير شك ، ومن العبث أن نلتبس لوقوعها
 تأويلا يجعلها تمويهها أو خداعا وما هى بتمويه ولا خداع .
 ولكنها عندى أمور لا تخرج عن سنن الكون الا من حيث
 وقت وقوعها ، وكيفيته، والنتائج التى تترتب عليها. ولأضرب
 لذلك مثلا رجلا هم بقتل رجل آخر ظلما وعدوانا فأصاب
 الأول صاعقة قضت عليه لساعته فى يوم عاصف مطير —
 حادث مألوف يقع كثيرا للأبرياء ، وقد يقع للرجل وهو
 يصلى لله مخلصا . لكن وقوعه فى هذا الوقت بالذات ،
 وقضائه على الظالم يعد معجزة عند من يعلمون أنه ظالم ،
 أما الذين لا يعلمون فلا يعدون موت رجل بصاعقة من
 المعجزات .

انظروا الى المعجزات التى قام بها صاحب الدعوة الجديدة ، فمن معجزاته أنه أطعم الناس ، وهم آلاف ، ببضعة أرغفة ، وأنه أحال الماء نبيذا ، وأنه أحيا ميتا ، وأبرأ مرضى كثيرين . ان أحدا لم يقل انه أطعم ببضعة الأرغفة آلافا من الخيل الجامحة ، أو الأسود الضارية ، ولم يقل أحد انه دعا لهم فشعروا بالشبع ، كل ما حدث أنه أطعم قوما مؤمنين طعاما قليلا فقتنعوا به وأشبعهم ايمانهم بهذا القليل . وكذلك قصة النبيذ ، فانه سقى الناس ماء فأحسوا منه طعم النبيذ وأثره . فالمعجزة فى هذا الحادث قوة تأثيره فيهم، وشدة ايمانهم به. ثم انه أحياميتا وليس فى ذلك خرق لسنة الكون ، فلم يدع احياء لازار الى الأبد ، ولم يحيى الموتى جميعا . أما ابرأؤه المرضى فبركة ونعمة ، ولا يمكن أن نطعن عليه من أجله . ان المعجزة لا تكون كذبا الا اذا نقضت قانونا طبيعيا أوليا فلو أننا رأيناها يأمر حجرا أن يرتفع فى الهواء فارتفع لعدده ساعرا يمويه علينا ، أما اذا كانت المعجزة تتعلق بأمور نفسية يؤثر فيها الايمان والعقيدة فلا محل للطعن فيها .

وأدرك أن الناس فى شغل عن تتبع هذا البحث العويص فاختتم حديثه بقوله :

— سواء أكان حقا ما أرى فى المعجزات أم باطلا ، فمما لا مزية فيه أن معجزات هذا الرجل كلها لخير الناس ،

ولم نعلم عنه أنه آذى بها أحدا من قومنا ، أو أنه انتقم بها من عدوه ، أما ما سمعتموه عن حادث اليوم من أنه أصاب بالأذى تاجرا وحدادا بريئين لا ذنب لهما فقول سخي لا يليق بكم ، وإن صدقته العامة . ولو كان به حب الانتقام من أحد من قومه لاتقم منا نحن الذين حكمنا عليه بالموت . لم يصنع اليه كثير من الحاضرين ، ولكنهم علموا أنه يدافع عن صاحب المعجزات ، وأنه يرى أن ما عمله لا يعد كفرا يعاقب عليه بالموت بل كانت معجزاته كلها خيرا وبركة . دهش قيافا حين رأى قومه لا يابون أن يستمعوا الى من يدافعون عن هذا الرجل ، كأنهم ندموا ، كما ندم هو ، على ما فعلوه بالأمس ، وبلغت دهشته أقصاها حين وقف آخر يقول :

— اتهمناهم بالأمس أنهم يخونون وطنهم ، وهي تهمة بشعة شنعاء ، فإن حب الوطن فضيلة لا ينكر أحد قدرها ، ولكنها ليست غاية الفضائل في هذا الباب . إن حب الوطن طور من أطوار الرقي الاجتماعي ، فالرجل يبدأ محبا لنفسه وحدها حين يكون جبهها أنفع له ، وأمنع للأذى عنه ، ثم يتبين أن في حبه لأسرته وحمايته لها ما يجلب له من النفع ويمنع عنه من الأذى ما لا يستطيعه وحده فتتسأ فيه عاطفة التضحية بنفسه في سبيل أسرته ، ثم يتبين أن حبه لقبيلته أو لمدينته يجلب له من النفع ويمنع عنه

من الأذى ما لا يستطيعه لو كان دفاعه مقصورا على أسرته
ويتبين له أن الضرر الذى يقع على قبيلته أو مدينته
يعود عليه بضرر لا يستطيع دفعه وحده ، عند ذلك
يصبح من الطبيعى أن يضحي بنفسه وأسرته فى سبيل
قبيلته أو مدينته ، ثم يتبين له أن حب الوطن والدفاع عنه
يجلب من النفع ويدفع من الأذى ما لا تستطيعه القبيلة
أو المدينة ، ويتبين له أن الشر الذى يصيب الوطن
يقع عليه فيؤذيه وقد يحرمه أعز شئ عليه ، ولو لم يكن
له دخل فى جلب هذا الشر على وطنه ، عند ذلك يرضى
عن طيب خاطر أن يضحي بحياته فى سبيل حماية هذا
الوطن ، ونراه يضع الوطن فوق نفسه وأسرته وقبيلته .
الا أن هذا ليس آخر المطاف ، بل سيأتى يوم يكون فيه
النظام الاجتماعى كافيا لاقتناع الناس ان حب الانسانية كلها ،
والدفاع عنها ، أجدى على الوطن من حب الوطن وحده .
سيكون العالم كله وحدة تجعل حب الانسانية يجلب لكل
وطن فوائد لا تتحقق بخدمة الوطن وحده ، ويمنع عنه
من الأذى ما لا يمنعه الدفاع عن الوطن وحده ، عند ذلك
يبدأ الناس فى التفكير الانسانى ، وعند ذلك نراهم يفضلون
خدمة الانسانية على خدمة الوطن ، ولا يكون فى ذلك
خيانة له ، بل يكون أجمل دفاع عنه وأكثره نجاحا . قد
يكون هذا الرجل أول من بلغ هذه الدرجة من الرقى
الخلقى ، على أنى لا أكتسبكم أنى لا أستريح الى أخذ

بنى اسرائيل بهذا المذهب الذى يضع المبادئ الانسانية فوق الوطنية ، ما دمننا فى محنتنا هذه ، التى جعلتنا ضعافا أذلة فى بلادنا ، وقد يكون هذا ضعفا فى ، فانى أفهم هذه المبادئ التى تضع الانسانية فوق الوطن عقلا ولكنى لا أرانى أو من بها ايمانا تاما ولعل ذلك لضعف فى عقيدتى ولعلى كنت أرى أن لا حرج فى تطبيقها علينا فى عصرنا هذا لو آمنت بهذه المبادئ ايمانه بها .

وضرب لهم مثلا يبين رأيه فى هذا الموضوع

— ان حب الوطن حلية خلقية ، كما يكون الخلخال حلية للمرأة . وقد تكون المرأة عطلا من الخلخال لفقرها ، كما يكون الرجل خلوا من حب الوطن لفقره الخلقى ، ولكن المرأة الراقية قد تكون بلا خلخال ، لأنها تراه حلية دون مقامها . وكذلك الرجل ، قد يكون عطلا من حب الوطن لأنه يرى نفسه أرقى من أن يتحلى بهذه الفضيلة الضيقة ، ولأنه يرى نفسه أكبر من أن يدين بهذه الولاءات الصغيرة ، على أن ذلك لا يصدق الا على من تملك حليا أكثر من الخلخال وأجمل ، وعلى من يملك فضائل أكبر من حب الوطن وأرقى اذ لا يجوز للرجل أن يترك نفسه عطلا من كلتا الفضيلتين . وليس شئ يمكن أن يكون أكبر من حب الوطن وأجمل الا حب الانسانية كلها ، فهو طور من الرقى الخلقى أروع من حب الوطن ، ولا يصح أن نعهده

عيبا أو نقصا في هذا الرجل الذي حكمنا عليه بالخيانة ،
فهو أرقى من أن يرى نفسه أمينا على الوطن ، ما دام أمينا
على الانسانية كلها .

وقع قوله هذا وقع الصاعقة على من كانوا قد آمنوا
بخيانة صاحب الدعوة الجديدة ، ومع ذلك لم يحرك أحد
منهم ساكنا . وظن قيافا أن الاتهام قد انهار ، وانهم
سينقضون حكمهم الذي أبرموه بالأمس . وزاد عجبه
وحيرته وشكه في كل شيء ، وعزم أن يترك الأمور تسير
وحدها دون توجيه منه ، فانها تسير سيرا مرضيا له ،
وفرح لذلك فرحا شديدا .

وعلت الأصوات خارج الدار تنادى بقتل الرجل
وأتباعه ، وحجتهم في ذلك أن علماءهم قرروا ذلك وهم
أدري وأعلم ، ولا يمكن أن يجمعوا على خطأ . أما هؤلاء
العلماء أنفسهم فكانوا يعلمون أنهم أخطئوا ، وكانوا
يخشون أن يخرجوا الى الناس معترفين بخطئهم ، معلنين
التوبة ، فان مثل هذه الشجاعة قد يستطيعها بعض الناس
أفرادا ، ولكنها على الجماعة ضرب من المحال ، لأن الجماعة
أقدر على الاندفاع منها على التعقل وأقدر على التماذي في
الباطل منها على الرجوع الى الحق .

وبينا هم كذلك اذ دخل عليهم رجال المال والتجارة
والصناعة وذوو النفوذ الديوى . جاءوا يهنئونهم على

حكمهم الصائب ، فلما وجدوا عندهم التردد والشك غضبوا وقالوا لهم ما خطبكم ، أتظنون أنكم تستطيعون أن تعدلوا عن رأى رأيتموه بعد أن ذاع خبره ، واقتنع به الناس . أنظنونهم يقبلون أن يستهزأ بهم وبعقولهم الى هذا الحد . ان حكمكم أطلق سيلا من الغضب لن يستطيع أحد أن يقف أمامه . وماذا يقول الرومان لو ذهبتم اليهم اليوم تنقضون ما قررتهم من قبل ، أتحسبون انهم يظنون بكم الجذ ، أو يقولون لكم بعد اليوم رأيا ، ان الشعب هائج ولن تهدأ ثأثرته حتى يصلب هذا الرجل اليوم .

اقتحم الناس الدار وهم يصيحون : اقتلوهم ، حرقوهم جميعا . لا بد من قتله وقتلهم معه . وساد الهرج ، وغلب ذوو الرأى على أمرهم فانقضوا ولم يغيروا من قرارهم شيئا وسَّارت الجماهير الى دار الحاكم الرومانى تطالب بدم هذا الرجل وأتباعه ، ولم يكن فيهم من يعلم عنه شرا ، ولم يكن فيهم من يريد قتله عن عقيدة واقتناع شخصى . هكذا تمت أكبر جرائم التاريخ ، جريمة الحكم على المسيح بالصلب ، لكفره بالله ، دون أن يعلم أحد من أهل اورشليم من الذى يريد قتله ، ولا على من يقع وزر هذه الجريمة الشنعاء .

الواقع أن أحدا من بنى اسرائيل لم يعلم علم اليقين عن أهل هذه الدعوة شرا ، ولكنهم اندفعوا وراء من قال بشرهم . ولعل من قال ذلك أولا انما كان يرى رأيا لم يتبين

مداه ، ولم يقصد غايته . مثلهم في ذلك مثل القطيع من الأغنام يدخل أولها بابا أو يتبع طريقا ، فتسير الأغنام كلها وراءه في حماسة تمنعها أن تغير وجهتها ، ولو أراد أولها عدولا ما استطاع لها ردا .

وهكذا حكم على المسيح بالصلب من أجل كفره بالله ؟
فهل يبقى بعد ذلك لأحد ثقة في حكمة الانسان ؟!

ان الجريمة تمت في ما يتعلق بالانسان حين حكم على المسيح بالموت . ولا ينقص من اثمها شيئا أن رفعه الله اليه .

ولم تتم هذه الجريمة الا لأنها وزعت على عدد كبير من الناس ، حتى لم يعد أحد يرى نفسه مسئولا عنها .

هذه سبيل الضلال التي أوغل فيها الناس حتى بلغوا هذا الحد من الغى ، وهى سبيل لاتزال مفتوحة أمام بنى آدم ، ولا يزالون يمعنون فى السير فيها ، وسيظلون كذلك حتى يهديهم الايمان بالضمير سبيل الرشده ، ولا عاصم لهم من الزلل الا هذا الايمان .

المجدلية

كان في قرية المجدل ، من أعمال فلسطين ، أسرة تولت أمرها منذ كان للقرية أمر ، وخضع الناس لهؤلاء السادة راضين حيناً ، وكارهين أحياناً ، فقد كان منهم الطيبون والطغاة ، وفيهم المصلحون والمفسدون . وكان من أثر هذه السيادة الطويلة الأمد أن تخلق رجال هذه الأسرة بخلق النبلاء ، ما حسن منه وما قبح . وكذلك تتكون أخلاق النبلاء ، يكون ذلك في صغار القرى ، كما يكون في أمهات المدن ، وإن اختلفت المظاهر .

كان رب الأسرة في ذلك العهد رجلاً طيباً عادلاً ، كل همه أن يسود السلام مملكته الصغيرة ، وأن تسعد رعيته بحياة هادئة . وكان يمدحهم بماله ويحميهم بجاهه ، فسارت أمور الحياة العامة سيرا حسناً ، وفرغ هو إلى حياة خاصة هنيئة ، وكان بذلك سعيداً . وكانت له ابنة هي أعز شيء عليه وعلى امرأته ، فكانا يتباريان في تدليلها ، لا يدخران في ذلك وسعاً . وكبرت هذه الفتاة معززة مكرمة لا ترد لها رغبة . فلما بلغت أشدها اكتملت أنوثتها ، وكان جمالها رائعاً عنيفاً ، يقهر الرجال ويغلبهم أكثر مما يجذبهم إليها

أو يغريهم بها . وما لبثت أن أصبحت قبله شباب القرية ،
كلهم يريد لها زوجا . وكان أهلها يودون أن تختار
لنفسها رجلا كفتا ، ولكنها كانت ذات كبرياء بلغ حد
الصلف الذى لا يطاق . وكان من عاداتها أن تنظر الى الناس
نظرة ملؤها الاحتقار . وكانت طويلة أملودا ، فأغانها
ذلك على الزهو والتعالى حتى لم تر لنفسها ندا بين شباب
القرية فأعرضت عنهم جميعا .

وخطر لأحدهم أن يؤلب عليها أقرانه وأن يسخر من
كبريائها ، وحمله ذلك على ما لا يليق من القول والفعل .
وغضب لها أخوها ، ورأى واجبا عليه أن يحييها وأهله من
عبث العابثين . وانقسم رجال القرية فريقين ، فريق مع
الأخ وفريق مع عدوه ، ووقعت بين الفريقين معركة استعملت
فيها العصي ، ثم احتدم النزاع فاستعملت المدى والخناجر
وزادها اشتعالا ما كان عليه الشبان من حق وثورة على
السيادة الأبدية التى لهذه الأسرة عليهم ، فقتل فى المعركة خلق
ولقى الأخ حتفه ، وعم الحزن أهل القرية الآمنة المطمئنة ،
وعاد أهلها الى ديارهم محزونين منكوبين ، منهم الشكلى ،
والأيم ، ومن تندب أخا أو عزيزا . وزاد فى حزنهم السبب
التافه والمفاجأة المؤلمة .

حزنت الفتاة كما حزن الناس . ولكن عبء الحزن كان
عليها ثقيلا مرهقا ، أن كانت هى سبب ما حدث ، وأن كان

ذلك كله من أثر كبريائها وغرورها . ولم يزل الحزن والندم يعصفان بها ، وتحاشاها الناس ، وتشاءوا بها ، ولم يكونوا غضابا كارهين ، ولكنهم انصرفوا عنها انصرافا ألمها حتى ضاق صدرها بهذه الحياة ، ولم تجد لها صديقا ولا مواسيا ولا من يلتمس لها عذرا يخفف عنها ألم الندم على ما جرته على قومها . ثم بلغ بها اليأس غايته حين رأت أن والدتها جعلت هي أيضا تعرض عنها ، فلم يبق لها من يعطف عليها الا أبوها . عطف عليها عطفًا مشوبًا بكثير من الحذر والتكلف . أما أمها فكانت تعرض عنها مدة ثم تذكر أن واجبها يحتم عليها مواساة ابنتها ، فكانت تقوم بهذا الواجب في غير ايمان ، وكان ذلك منها أقسى على الفتاة المرفهة الحس من البغض الصريح ، والعداء السافر .

ورأت ذات يوم أنها صائرة حتما الى حال من الاضطراب قد تدفعها الى الجنون اذا هي بقيت في تلك القرية . واعتزمت الرحيل الى اورشليم حيث يجهل الناس كل شيء عن جيرانهم ، على عادة أهل المدن الصاخبة . وادعت أنها تريد أن تحج الى الهيكل ، تلتمس المغفرة ، ولم تقف أمها في سبيل هذا العزم حين علمت به ، وخرجت المسكينة من القرية ، لم يودعها أحد ، ولم يندم لفراقها أحد . وخيل اليها حين خلفت القرية وراءها أن أهلها سيتنفسون الصعداء حين يعلمون بخروجها ، وكادت تسمعهم يفعلون .

دخلت أورشليم على حال من اليأس والحزن أفقدتها العزم والتفكير ، وكان معها من المال ما يكفيها أمدا طويلا ، فلم تكن قلقة ، ولكنها لم تكن تدري ما تفعل في هذه المدينة الكبيرة . وكانت تريد أن تكفر عن خطيئتها التي أصلها الكبرياء ، ولا يكون التكفير عن الكبرياء الا بأن تذلل نفسها الى أقصى حد الذل . وكانت تريد أن تعيش مع أذل الناس فان من الطبقات الدنيا من هن أقل منها ذنبا وأهون خطيئة .

ورآها بعض أهل المدينة وحيدة حائرة ، فأقبل عليها أحد الذين لا يتركون سيدة وحيدة دون أن يحوطوها بوسائل الاغراء — وهم كثيرون في المدن الكبيرة — وأخذ في التحدث معها ، والتودد اليها ، واستطرد في حديثه .. فذكر لها حياة اللذة والسرور ، التي تستطيع أن تحياها في منازل يعرفها هو ولا يؤمها الا النخبة القليلة من علية القوم . وكان نصيب هذا الذي بلغت به الجرأة أن يحدثها هذا الحديث ويعرض عليها هذه الحياة ، أن أوسعته ضربا وركلا . ولكن الاقتراح راق لها من ناحيتين : انه يبلغ بها الدرك الأسفل من الذل والانحطاط فيكفر عنها سيئاتها ، وأنه يدع للرجال ما تقاتلوا عليه من جسدها ، فلمهم منه ما يشاءون ، وفي ذلك تكفير آخر يلائم نوع الجرم الذي ارتكبته حين حرمتهم اياه فقتلوا دونه .

وهكذا دخلت بيتا في اورشليم وليست من أهله في
شئ . وأدرك رصفاؤها أنها ليست من جنسهن ، فليس لها
طباعهن ولا ابتذالهن ، ولم تأخذهن من ذلك الغيرة ولا
الحسد ولا البغض ، فقد أيقن أنه لا بد أن يكون في الأمر
سر، وقبلها علامات أنها سترفع من شأن منزلهن لجمالها
وروعة بهائها .

وما لبثت أن أخذت في اتعاب زميلاتها وزائريها بما
أخذتهن به من أوامر عجيبة شاذة لا تتفق وتقاليد حياتها
الجديدة ، فكانت لا تجالس الرجال طويلا ولا تتحدث
اليهم كثيرا ، وكانت لا تلقى رجلا لا يقبل يدها في خشوع
واحترام ، حتى اذا قضى معها بعض الوقت شيعته بضحك
الاستهزاء ، مودعة اياه ببركة مؤلمة تصيبه في أسفل ظهره ،
فتدفعه الى خارج الباب . وحسب أهل الدار أنها قاضية
بسلوكها هذا على تجارتهن ، ولكن لم تجرؤ احداهن على
تقدها ، لما كان لها من هبة وعظمة ، وكن لذهن يعجبين
بهذا الكبرياء ، وهذا التعالي .

لم يزد ذلك الرجال الا اقبالا عليها ، ولم يزد
خضوعهم الا امعانا في احتقارهم . ثم تبين لها ان هذه الحياة
الرخيصة لم تنقص من كبريائها ، فكانها لم تكفر عن
خطيئتها وان ذلت . واشتد بها الغرور فأصبحت لا تطاق .
جاءها قائد روماني من كبار القواد ، وقبل أن يقبل يدها

لشدة رغبته فيها - ولم يكن ذلك احتراماً لها ، ولا
اعجاباً بجمالها فغاضها ذلك أكبر الغيظ ، وودعته بركلة
شديدة لم تكن تظن أنها تقدر على مثلها ، فرجع إليها
ويده على سيفه ، يريد أن يغسل الإهانة بقتلها ، فلم
تراجع ولم تخف ، وأقبلت عليه تعد له ركلة أخرى .
وهاله هذا الاقدام فراجع نفسه وخرج . ولما علمت
أخواتها بما حدث أقبلن عليها مسرعات يحسبنها ترتعد
فرائصها من هول ما أقدمت عليه ، ولكنهن وجدنها ثابتة
غير هيابة ولا وجلة . وكانت تحسب أن سيقتلها جزاء على
ما فعلت ، وعند ذلك يكون التكفير الحق عن كبريائها ،
وهو التكفير الذى سعت إليه فأخفقت . وبرح بها اليأس
حتى أصبحت ترجو الموت تكفيراً عن خطاياها . وكانت
على أشد ما تكون من الغيظ أن فاتها هذا الذى كانت
تتمناه .

مرت الأيام ، وهى لا تفتأ تنكر من نفسها أنها لا تزال
على كبريائها القديم . وظل الرجال على شغفهم بها ، مع
ما كانت تكيله لهم من اهانة واحتقار . ولو علمت أن
الرجال قد يقبلون صلفها وغرورها لاخترت لها زوجاً من
أهل قريتها ، فلم يصرفها عنهم إلا أنها لم تكن ترى فيهم
من يستحق احترامها ، ولم تكن تحسبهم يقبلون احتقارها
إياهم ، ولم تكن تعلم عن الرجال أن فيهم من الهوان

ما يجعلهم يقبلون الاهانات المخجلة المرهقة في سبيل
ارتوائهم من جسد جميل .

ثم جاء الى الدار ذات يوم جندى روماني في مستقبل
العمر ، فيه هدوء ووداعة ، وله نظرة حاملة رقيقة ، فما أن
رأته حتى أحست نحوه شعورا لم تعهده في نفسها من
قبل ، شعورا يشبه العطف أو الحب ، ورغبت أن تجلس
على مقربة منه وأن تتحدث اليه ، ولكنها أحجمت وتركته
لصديقاتها فتهاقن عليه وأخذن يداعبنه ، وهن لا يصدقن
أنه جندى يقاتل ويحارب ، فهو لا يزال في ميعة الصبا .
وأغضبه ذلك منهن فأخذ يقص عليهن أحاديث عن فتوته
وشجاعته ، وكيف كان يقهر الأعداء ويلقى الزعب في قلوبهم ،
فتضاحكن ، ولم يكن حديثه عليهن غريبا ، لما ألفنه من
تفاخر الجند وادعائهم البطولة .

وأخذت المجادلة تنصت الى حديثه خلسة ، وخيل
اليها أنه يختلف عن أحاديث غيره من الجند ، وسمعته يقول
انه ضرب رجلا على رأسه ضربة قوية فسقط كأنه كتلة من جماد .
عند ذلك نظرت اليه ، وخيل اليها أن نظرتة تنم عن الحزن
والألم لما ارتكب في هذا الحادث . ولعله كان أول رجل
قتله ، ولذلك علقت صورته بمخيلته ، وكان واضحا أن
الذكرى لم تكن تجلب الي نفسه السرور .
وأقبلت عليه تسأله

- وهل صرخ من تلقى ضربتك
- كلا ، انه لم يصرخ ولم يئن بل خر جثة هامدة
- أأنت على يقين مما تقول
- لا شك في ذلك ، ان من يصاب في رأسه لا يصرخ ولا يئن اذا كانت الضربة محكمة ، لا خلسا ولا معجلة .
- هذا هو التفاخر الأجوف الذي ألفناه منكم ، أليس فيكم رجل يستطيع الصدق ، ألا تستطيع أن تصدقني مرة واحدة في هذا الأمر الذي يعنيني .
- انى أؤكد لك أن الرجل الذي قتلته لم يصرخ ولم يئن .

— ليتنى أثق بقولك

ثم تركتهم فجأة ، وكأنها مغضبة ضجرة ، ولم يفهم أحد ما وراء تساؤلها من سر فانها كانت تسأل في حدة واضحة وتلهف ظاهر .

وحقيقة الأمر أنه كان يلزم بها منذ قتل أخوها هاجس تسمعه في سكون الليل وهدأة النوم ، كان صارخا يصرخ بها فيزعجها ازعاجا عنيفا ، وكانت تعتقد أنها صرخة أخيها حيناً خر صريعا ، وكانت لا تشك أنه لعنها حين سقط اذ كان كبريائها سبب قتله . فلما سمعت حديث هذا الجندي ودت لو أنه كان صادقا ، ثم راق لها أن تطمئن الى قوله ،

وأيقت أن أخاها لم يصرخ حين قتل ، وأن الهاتف الذى تسمعه فى الليل ليس الا أثرا من آثار الاضطراب النفسى الذى لازمها من ذلك اليوم . ونامت ليلتها هادئة لم تسمع ذلك الهاجس الذى كان يؤرقها ، ولم تسمع صرخة أخيها ينادىها غير مشفق عليها ولا غافر لها ذنبها الذى قتل من جرائه . وكان هذا الاطمئنان جديدا عليها لم تعرفه منذ وقعت الواقعة ، ففرحت بذلك فرحا شديدا .

وعاد الفتى من غده ، وكان يخشى أن تكون قد غضبت عليه ، فلما رآها تتلقاه باشة جذلة سرى عنه ، وأقبل عليها متلهفا ، فقالت له فى شيء من السخرية .

— هذا هو البطل المغوار الذى بهرنا ببطولته وحديثه عنها ! على أنى أريد أن أسألك ألم يخالط فخرك ببطولتك وفرحك بشجاعتك ، شيء من وخز الضمير حين تذكر أنك قتلت نفسا لا تعلم عنها شيئا ولم تؤذك فى شيء .

— وما على من ذلك ، ان لى صديقا يقول ، ما ضر الناس قتل رجل واحد ولا قتل كثيرين ما دام النساء يلدن كل يوم .

فتبسمت لهذا رأى الذى حسبه لا يكون الافكاهة ، ولم يخطر ببالها أن من الناس من يزى هذا رأى ، ويذهب الى العمل به .

— أنت تشاطر صديقك هذا الرأي ، لقد كنت
أظنك من الذين يرون أن قتل رجل برىء لا تعرفه
ولا يعرفك — سواء أكان القتل في الحرب أم في غيرها —
أمر لا يمكن أن يبرره ضمير انساني .

— انك من قوم يتكلمون ليل نهار عن الضمير
والدين وعن الايمان والكفر، وعن الخطيئة والتكفير والتوبة .
ونحن لا نتحدث عن ذلك الا في القليل النادر. انما يكون حديثنا
أكثره أو كله عن النظام والشجاعة والاقدام والقوة ومغالبة
الصعاب ، وقتال الأعداء ، وحب المجد ، بذلك سدنا
العالم وأنتم لم تسودوا حتى أنفسكم .

ورأى أنه احتد في أمر لا يعنيه كثيرا ، وكان لا يريد
الا أن يحدثها حديث الحب الذي جعله لا يفكر الا فيها
منذ لقيها بالأمس . وخطر لها أن تشكر له انقاذها من
الهاجس الذي كان يقض مضجعها ، ولكنها أحجمت عن
ذلك ، ورأت أن لا تدع له فرصة الحديث عن حبه لها ،
واستمرت في حديثها الذي بدأته

— وهل أحسست وأنت البطل الشجاع الذي عرض
حياته لخطر محقق أنك سدت أحدا من قومك ممن لم تكن
تسودهم وأنت في روما ، ألا ترى أنك لا تزال في طبقتك
التي كنت فيها قبل أن تتعرض للقتل في الحرب ، وهل
تشعر وأنت الفاتح المنتصر أنك تسود أحدا ممن هم فوق

طبقتك حتى من أهل هذا البلد المهزوم ، أتراك سدت
أحدا من أغنياء هذا البلد أو عظمائه ، انما يسودهم من هم
أندادهم من الرومان ، أترى أنك أفدت من هذه السيادة
ما يرر الخطر الذى تعرضت له ، والخطيئة التى تحملها
بقتلك الأبرياء . ان الجندى الفاتح لا يتمتع بالسيادة الا
ساعة الفتح حين تعم الفوضى ، ثم يعود الى حاله الأولى
فلا يسود أحدا ممن لم يكن يسودهم من قبل .

— ان الذين ماتوا فى الحرب بنوا مجد روما

— انما تعنى مجد عشرة أو عشرين من أهل روما. وما هذا
المجد ، أهو ذلك الموكب المضحك الذى يسير فيه القيصر
وحوله الأسرى يجرون وراء مركبته ، انكم ترون المجد
كل المجد فى أن يكون بين هؤلاء العبيد ملوك وأمراء ،
انهم كانوا ملوكا فى بلادهم ، أما فى الأسر فشأنهم شأن
العبيد ، أهذا هو المجد الذى تفخرون به .

— لقد أجهدتنى فى التفكير ، ان الجندى عندنا
يجب أن لا يفكر ، ولا معبود له سوى النظام ، ذلك النظام
الذى يريح الضمير والفكر ويجعل من الانسان آلة طيعة
فيكون له العذر عند نفسه اذا أصبح لا ضمير له .

ورأت الفتاة أن هذا الشاب ليس على جانب كبير من
الذكاء ، وأن حديثها أرهقه ، وأعجبها ذلك منه اذ زاده
رقة جعلته أجدر ما يكون بالعطف عليه . وهمت أن تقبله ،

وأحست أنها تود لو استأثرت به لنفسها . ثم هالها هذا الشعور واحمر وجهها خجلا أن تساورها الرغبة في رجل أو الشوق اليه . وكأنما كانت تعد ما هي فيه من لقاء الرجال يوما بعد يوم عملا لا يمس الا جسدها ، حيوان يلقي حيوانا . فلما أحست أن نفسها الناطقة تريد رجلا بعينه ليس بينها وبينه علاقة رأت في ذلك العهر كل العهر . وخجلت من هذا التردى في الرذيلة ، وهو ما لم تشعر به حين كان الأمر بينها وبين الرجال أمرا بين حيوانين .

ولما مرت بخاطرها تلك الأفكار هبت قائمة وتركته ، ولكنها ألقت اليه نظرة عابرة فهمها هو على أنها لا تأبى أن تراه يعود إليها حين يشاء .

وعاد إليها من غده ، وكانت ترقب مجيئه دون أن تعترف لنفسها بهذه الرغبة ، كأنما كانت تسترق الشوق اليه . فلما جاء لزمته حجرتها وتركته مع صويحاتها ، فأقبلن يتهافتن عليه في مرح غير كريم ، ولعب غير برى ، وحديث لا ينقصه الابتذال . وأخذ يقص عليهن حديث المعسكر الرومانى وكيف احتفى الجند ببطل منهم عظيم ، قتل وحده خمسة من أهل بلد بعيد . تألبوا عليه فقتلهم جميعا ، وبذلك أصبح اسم روما يلقي الرعب في قلوب أهل تلك البلاد ، فلن يجرؤ أحد بعد اليوم أن يقف أمام رومانى مهما يكن مبلغه من الضعف والهوان ، وحياء القائد على

أنه المثل الأعلى للجندى الرومانى ، وأوصانا أن يكون
قصاصنا ممن يقاوموننا بالغا حدا من العنف والقسوة
يملؤهم رعبا اذا ذكرت أمامهم روما ، وان هذه هى الوسيلة
الوحيدة للابقاء على الرومان أينما حلوا .

وأطال الحديث معهن وهو يرجو أن تجيء صديقتة ،
ولكنها لم تفعل . فلما ضجر من انتظاره اياها سأل عنها ،
وقام مع صويحاتها حتى أتوها . وكان لهم ضجيج عال ،
فلما دخلوا عليها سكت وسكن . وأقبل عليها يقبل يدها .
وأقبلن عليها يذكرن لها تحرقه للقائها وضيقة بحديثهن .
وأردن أن يخرجن فمنعتهن . وبقين جميعا فى أدب واضح
واحترام لم يكن من طبعهن . وسر هو لرضائها وسررن
جميعا حين رأيها تقبل عليهن وتعرض عن شذوذها القديم
وعزلتها التامة .

وأخذت تداعبه فتقول ان يديه مخضبتان بالدم ، وانها
لا تحب أن تجلس مع المجرمين السفاحين . ولم تكن تعنى
شيئا مما تقول ، فان نظرات هذا الشاب الوديع كانت تدل
على بعده التام عن أن يكون سفاكا للدماء قاتلا للأبرياء .
وتظاهرت بالرغبة فى الخروج ، فأمسك بتلابيبها يلتمس
المغفرة وهو يقول انه لن يقتل أحدا بعد اليوم ، ولن يفعل
ضميره بعد الآن . وبكى بين يديها حتى آمنت بتوبته فخرج
راضيا مرضيا عنه .

ولم يكن لها بد من أن تؤمن ، فهي في حاجة شديدة الى هذا الحب الجديد الذى أتاح لها لأول مرة أن تبرأ من الندم وأن تشعر بهدوء البال ، وأن تحس أن صلفها ان لم يكن قد زال فهو صائر من غير شك الى الزوال بعد أن خفت حدته كثيرا ، وكان فرحها بذلك عظيما . ذلك أنه سبق لها أن أرادت أن تذلل فاحترفت البغاء ، ومع ذلك لم تذلل نفسها حين دنست جسدها . أما اليوم فهي تشعر لأول مرة بالحب البريء الطاهر ، وذلت نفسها الذل الكريم الذى كانت تحلم به فلا تبلغه . وتبين لها أن الكبرياء — خطيئتها الكبرى — لا يكفر عنه التكفير الحق الا عن طريق الحب الطاهر ، فهو الذى أذلها وطهرها ، أما غيره فدنسها ولم يكفر عن كبريائها . وأيقنت أنها لو أحبت فى أول أمرها ما وقعت فى خطيئتها الأولى ، وما تردت فى خطيئتها الثانية التى حسبتها تكفيرا عن الأولى .

لم يطل عهدا بهذا الحب ولم تتمتع به كثيرا ، فلم تلبث أن خرجت من هذا الحب البسيط الجميل وهذا الحلم اللذيذ والسعادة الهادئة الى حب آخر أعمق وأعنف وأغلب للنفس وأشمل للفضائل ، حب علمت حين أحست به أن الحب الأول لم يكن الا قطرة من هذا البحر فنسيته تماما . ولما لقيت هذا الشاب بعد ذلك جهلته وان لم تنكره ، وكأنها لم تذكر أن قلبها خفق يوما لرؤيته وأن فؤادها تعلم

الشوق ونفسها تعلمت الطهر على يديه . نسيت ذلك كله
كما يفعل العطش الصدى حين يأتى العين الصغيرة فيفرح
بها وينعم ، ثم يجد النهر الخضم فينسى تلك العين وفضلها
عليه .

ذلك أنها جلست يوما الى نافذتها ترقب مجيء ذلك
الشاب وهى تغالب شوقها اليه فتغلبه تارة ويغلبها تارة
أخرى ، وكانت تتوق اليه ساعة ثم تجهد نفسها ساعات
لتنساه . وبينما هى على هذه الحال اذ أقبل رجل من عليه
القوم ضاحكا ساخرا يضرب كفا على كف وهو يقول :

— انى رأيت اليوم عجا لم يسمع أحد بمثله من
قبل ، وما أظن الا أن الساعة قريب اذا كانت أمورنا ستسير
على هذه الوتيرة ، ألم تعلموا ما حدث فى اورشليم اليوم ،
قدمها رجل ضعيف لا حول له ولا قوة ولا جاه ، ولم يؤت
من العلم ولا من المال شيئا ، قدم على حمار هزيل يتعثر
فتكاد تدق عنقه ويكاد يهوى براكبه ، دخلها ومعه قوم
من أقل بنى اسرائيل قدرا وعلما ، ومنهم من لا تزال تعلق
بشبابه رائحة السمك ، فان أكثرهم من صياديه فى طبرية ،
قوم بهم من الجهل والفقر وضعف التفكير ما لا نجد
له مثيلا بين أهل اورشليم . على هذه الهيئة المخزية دخل
هذا الرجل بلدنا ويده غصن من شجرة زيتونة يدعو به
الى السلام ، ويدعو الى المحبة بين الناس ، وبين الله والناس

ويقول أتباعه انه نبي وان له معجزات ، وانه يبرىء المرضى ، بل قيل انه يحيى الموتى ، الى غير ذلك من خرافات المؤمنين به . وهو يدعو الى ايمان جديد ودين له خاص يضع الفقراء فوق الأغنياء ، والجهال فوق العلماء ، والضعفاء فوق الأقوياء . وكنت أحسب أن سخف هذه الدعوة وضآلة قدر أصحابها كفيلا أن يجعلها موضع السخرية والهزاء ، وما هالنى الا ما رأيته من اقبال الناس عليه والتفافهم حوله وايمانهم به ، وما أحسب أن أحدا يؤمن به الا أن يكون قد فقد كل أمل له فى النجاح فى الحياة .

وهبت الفتاة تسأل عن صاحب هذه الدعوة ما هو وما خطبه وما أتباعه . وعلمت من أمر هذا القادم على أورشليم أنه يدعو الى المحبة بين الناس جميعا وبينهم وبين الله ، وأنه يدعو الى التواضع ويعده أصل الفضائل وطريق النجاة وسبيل النعيم المقيم ، وأنه يغفر الذنوب ويكفر عن الخطايا . ووقع فى قلبها أن نجاتها ستكون على يد هذا الرجل الذى لا يحفل بالأغنياء ولا بالعلماء ، والذى يشفى الناس من الكبرياء . وأشرق وجهها لهذا الذى وقع فى نفسها ، وقامت الى مخدعها لينصرف الناس . فلما خرجوا تسلمت من الدار خفية وهربت لا تلوى على شئ ، عارية الرأس مهلهلة الثياب لا تريد أن تبطىء أو تتريث لتصلح من حالها خشية أن يفوتها ما عزمت عليه . وكانت على هيئة لا تقبل

سيدة أن تكون عليها حين تسير في الطرقات ، ولكنها عميت
عن كل ما حولها ، ولم تحسب لما قد يقال عنها حساباً ،
وتركت وراءها مالها كله وهرعت الى حيث تلقى هذا
الرجل وقد قدرت أنه سيكون قائدها الى النجاة .

ولم يكن عسيرا عليها أن تلقاه ، فقد تجمع حوله خلق
كثير ، منهم الطلعة الذي ليس به الا حب المعرفة ، ومنهم
من يبغى الشفاء من مرضه ، ومنهم من تبعه ايماناً به .
وأقبلت هى تشق طريقها اليه وسط الزحام ، وعلم الناس
من هيئتها وزياها أنها ليست من فضليات النساء ، واشمأزوا
منها ، وأوسعوا لها الطريق تجنباً لها ، وغمروها بنظرات
الاشمئزاز والاحتقار . ولكنها لم تلق اليهم بالا . وتقدمت
نحوه ، ولم تستطع أن ترى وجهه اذ لم يلتفت الى
الجهة التى كانت فيها . ثم حدث أن لمستة احدى السيدات
فعلم ان مؤمنة لمستة ، وكان الناس كلهم يلمسونه فلم
يشعر بهم الا حين لمستة هذه المؤمنة فان لمس المؤمن شئ
لا يعرفه الا هو . عند ذلك التفت وراءه يسأل عن هذه
التي لمستة ، وما ان أشرق وجهه على هذه الفتاة الهاربة
حتى بهرتها رؤيته وعلمت أن أملها فى النجاة لن يخيب هذه
المرّة ، وصاحت به تناديه أنها مؤمنة به ترى النجاة على
يديه ، فأوماً اليها أن تتبعه . وغضب كثيرون أن رأوه يقبل
على مثلها وهو النبی الذي علق الناس آمالهم به ، فلما علم

بغضبهم ألقى عليهم كلمته الرائعة : ان الراعى الحكيم
يعنى بالتى تضل من غنمه ، ويفرح بها حين تعود اليه ، ويترك
غير الضالة منها . ولكن كثيرين ممن حوله لم يجدوا هذا
القول كافيا فى تبرير عطفه على هذه الفتاة وقبوله اياها وهى
آثمة واضحة الاثم .

واقض الناس وبقيت هى ألزم له من ظله ، وتبعته حتى
بلغ دارا نزل بها فلما جلس أقبلت على قدميه فغسلتهما
بدموعها وجففتهما بشعرها المرجل وقبلتهما وطيبتهما بأحسن
الطيب ، وأحست ساعتئذ أنها شفيت من أدوائها جميعا ،
وغمرها نور النبى الجديد وشملتها رحمة الله وبرئت من
الكبرياء وزال عنها الندم والحسرة والحزن ، وطهرت مما
علق بها من ادران ، وسعدت بذلك غاية السعادة ولم تكن
تظن ذلك ممكنا ، ودمعت عينها فرحا بهذا الشفاء ، ونسيت
كل شىء الا هذا الايمان الجديد ، وأقبلت عليه بكل ما فيها
من قوة وأمل واخلاص .

لم تطهر نفس قبلها مثل هذا الطهر ، ولم تغمر رحمة الله
أحدا قبلها بمثل ما غمرت به هذه الفتاة الخاطئة ، فأصبحت
بنعمة الله قديسة تضرب بطهرها الأمثال .

الجندى المسيحى

ذهب الفتى الرومانى الى دارها وهو أشد ما يكون شوقا الى لقاءها بعد أن غاب عنها أياما ، وأقبلت عليه صاحباتها على عادتهن معه ، فلما سألهن عنها أخبرنه أنها خرجت ذات يوم ولم تخبر أحدا بما اعتزمت ، وأن أحدا لا يعلم سبب خروجها ولا أين ذهبت ، وقلن له ان ذلك لم يكن منها عجيبا فقد علمن منذ قدمت عليهن أنها ليست على شاكلتهن وأن فى الأمر سرا ، وانهن لم يخالجهن الشك فى أنها ستخرج يوما من هذا الجحيم الى غير رجعة .

بهت الجندى وشعر أنه فقد أعز شيء يحرص عليه ، فهو لم يعد يطيق عنها صبرا . وزاد فى قلقه ما قيل له من أن أحدا لا يعلم عنها شيئا ، وأزعجه ظنه أنها قد تكون فارقت اورشليم مهاجرة على أن لا تعود ، وظل يبحث عنها فى المدينة فلم يعثر لها على أثر .

وبينا هو يسير فى دروب اورشليم على غير هدى اذ رأى جمعا كبيرا يحيط بالنبي الجديد ، يسرون وراءه ، فانضم اليهم يستطلع الأخبار بعد أن سمع كثيرا عن هذا النبي ومعجزاته ، وما زالوا يسرون حتى بلغوا الدار التى يقيم فيها أتباعه فخرج أهلها يستقبلونه . وكانت المجادلة من بينهم فعرفها وفرح لذلك فرحا شديدا ، وعزم أن يلقاها

وأن يخبرها أنه عاد إليها وأنه باق على عهده معها من الحب
الرائع الكريم .

وسأل عن هذا المنزل وأهله ، وعن هذا الرجل الذى
التف الناس حوله ، فسمع قولاً كثيراً لا عهد له به ، ولم
يفهم منه كثيراً ولكنه علم أن فتاته أصبحت من أشد أتباع
النبي اخلاصاً له وتعلقاً به ، وأن حياتها أصبحت متصلة
بهذا الدين الجديد اتصالاً وثيقاً ، وأدرك أنها قد قطعت
علاقتها بحياتها القديمة وبكل ما يذكرها بها . ولكن جال
بخطره أنه ليس عليه من ذلك بأس فإن حباها له وجه لها
من أرفع الحب وأطهره ، وأنه ليس هناك ما يدعو الى
تنكرها له . ولبث مدة ينتظر خروجها ليتحدث إليها وليبشها
شوقه كما كان يفعل من قبل . ورأى أن يتقدم إليها فإن
أنكرته تركها وشأنها حتى لا يعترض حياتها الجديدة ، وإن
أقبلت عليه فإن ذلك يكون دليلاً على رضاها عن عودته
ويكون له أن يسير معها سيرته الأولى .

فلما علمت بأمره وسعيه إليها ورغبته فى لقائها لم تنكره
بل دعتة إليها وسلمت عليه وظن أنها ما زالت مشوقة إليه ،
ولكنه وجدها لا تختصه بعطف خاص ، ولا تقبل عليه اقبال
من تسعده عودة حبيب قديم ، ولا تعرض عنه أعراض من
تخشى عودة حب لم تعد تشعر به ، فأقلقه هذا اللقاء الذى
لم يكن انكاراً ولا حبا ، وحرار فى أمره لا يدرى كيف يفهم

موقفها منه . ولم يكن له أن يفهم أنها ما زالت تحبه ولكن حبها له لم يعد حب امرأة لرجل أو حب انسان لانسان وانما أصبح جزءا من حبها للناس جميعا ، ذلك الحب القدسي الذي يرتفع عن أن يكون له موضوع . واستمرت تتحدث اليه وهو شارد الفكر لا يدري ما يفعل . وهم أن يرمى تحت قدميها راجيا أن تعود اليه أو يعود اليها ، ولكنها حالت دون ذلك وقطعت عليه تفكيره حين قدمته الى أحد الحوارين على أنه ممن يرجى منهم الخير فأن في طبيعته ما يشعر باستعداده للايمان .

جعل يتردد على الحوارين كلما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولم يطمئنا اليه أول الأمر خوفا أن يكون عينا للحكام عليهم ، ولم يقبل هو عليهم الا بقدر ، ولم يستمع الى كثير من حديثهم ولم يشاركهم أكثر جدلهم ، ولعله لم يكن يريد منهم الا أن يظل قريبا ممن يحب .

وأمله منهم كثرة خوضهم في الحديث عن الايمان والعقيدة والخشية من الخطيئة والكفر ، واشتاق الى حديث كحديث قومه عن الشجاعة والبطولة واللذة ، وأدهشه منهم أنهم لا يؤمنون بالقوة ولا يعجبون بالشجاعة ولا يفهمون المجد ، وأنهم يهزون بكل ما يفخر به الرومان . وجعل يسأل نفسه أيمن لهذه الدعوة أن تعيش وهي على ما هي عليه من تجيذ التسامح ، وهل يمكن لأهلها أن

يقاوموا القوى العنيفة التى تتضافر على القضاء عليهم وهم لا يدفعون الأذى ولا يردون العدوان الا بدعاء الله أن يهدى المعتدى وأن يغفر له زلاته — دين عجيب يكفى أن يهتم أولو الأمر بأهله فينتهى أمرهم ويصبح نسيا منسيا .

وما زال معهم على تلك الحال حتى لقي السيد يوما ومعه حواريوه بعد أن قضى يوما مرهقا . وما كاد يقع نظر السيد عليه حتى أحس كأن نورا أضاء قلبه فاستجاب ضميره لهذا الدين الذى جاء به النبى الجديد ، وبدأ منذ ذلك اليوم يفهم الدعوة فهما حقاً ، ودخل منذ تلك اللحظة فى زمرة المؤمنين .

وأخذوا فى الحديث عن أحداث يومهم ذاك فقالوا ان علماء بنى اسرائيل غضبوا اليوم غضبة كبرى اذ حكموا على امرأة بالرجم ، فلما هم الناس برجمها قال لهم السيد المسيح من يكن منكم بلا خطيئة فليكن أول من يرميها ، فانصرف الناس مشفقين من هذا القول ، وأغاظ ذلك العلماء فانه فى رأيهم فتنة تعرض الناس على الشك فى أوامر الكتاب فضلا عن ما فيه من قضاء على أساس من أكبر الأسس التى يقوم عليها النظام الاجتماعى .

ووقعت هذه الكلمة من فؤاد الجندى الرومانى موقعا حسنا فانه رأى فيها تغليبا للضمير على النظام ولم يكن يظن أن هناك شيئا يعلو على النظام فقد كان من عبده ،

عليه نشأ وبه قامت حياة قومه ، وجعل يفكر في هذا الذي
سمع . وأخذ يحدث نفسه :

ان كانت الخطيئة خروجاً عن حدود الله فله وحده أن
يعاقب عليها ، وليس لخاطيء أن يقتل خاطئاً مثله وان اختلفت
درجات الخطيئة ، انما يكون ذلك للمعصومين من الخطيئة
ولهم وحدهم أن يحكموا على الناس . ومن منا يدعى
لنفسه العصمة . ومن يفعل ذلك فانه يعد معتدياً على حق
الله اذ يسيح لنفسه أن يعاقب على ذنوب علمها عند الله
وحده ، وهو مرتكب لكثير منها . انما يجب على الانسان
أن يترك عباد الله له سبحانه وتعالى يعاقبهم على الذنوب
بقدرته وعلمه الواسع ، فهو على ذلك قادر دون حاجة الى
أى فرد منا لتنفيذ ارادته . والناس يخلطون بين ما هو
مخالف للدين وما هو مخالف للنظام . أما ما يخالف الدين
فأمر الجزاء فيه الى الله ، أما ما يخالف النظام فأمر العقاب
فيه الى الناس ، على أن يكون العقاب باسم النظام لا باسم
الدين . والذين يدعمون النظام بالدين يخطئون في حق الدين
فان النظام من عمل الانسان وهو ناقص ومؤقت وخاضع
للتطور ، ولا يجوز ذلك على الدين . ثم ان النواهي
الاجتماعية يجب أن تظل عملاً انسانياً خالصاً يحميه الانسان
وليس من العدل أن نستتر وراء الدين لحماية النظام كما
يفعل أكثر الذين يقسون في عقاب الخاطئين وما بهم من

غضب للدين ولكنه حماية لنظام كله من عمل الانسان ، وقد يكون خطأ أو صوابا .

وحدثهم محدث عن قدماء المصريين فذهب الى أنهم خير الوثنيين خلقا وأسلمهم تفكيراً ، ولكنهم كانوا يجهلون الله وأنه مصدر الخير الذى فيهم ، لذلك كان يدفعهم الى الخير حرصهم على أن لا تبيد أسماؤهم ولا أعمالهم فنقشوها على آثار لا تبليها الأيام . وضحك الحاضرون من هذا التفكير الساذج الذى لا ترتفع الوثنية الى ما فوقه . ثم حدثهم هذا الجندى الرومانى عن عظماء الرومان وأن ما يدفعهم الى العمل الرائع انما هو حسن الأحداث ودوامها وما يقول التاريخ فيهم ، وحسب أن ذلك من الرومان جميل ، فضحك الحواريون لأن هذا التفكير لا يسمو عن تفكير غيرهم من الوثنيين فى قليل أو كثير ، فالانسان بدون الله هزأة لا معنى لعمله ولا قيمة للدوافع التى تصدر عنها أعماله ، فان ما يميز الانسان عن الحيوان هو الضمير ، والضمير من الله وبدون الله لا يكون ابن آدم الا حيوانا عاقلاً ذكياً ، أما أن يكون بدون الله انساناً فذلك محال .

وأخذ هذا النوع من التفكير يروق الجندى فأمن به مخلصاً حتى حقر فى عينه النظام وعظم عنده شأن الضمير ، وجعل يفهم حدود الله وأوامره ونواهيه ، ويفرق بين ما لله سبحانه وتعالى وما للناس ، وما هو أمر الله وحده فأباحه

الناس لأنفسهم ظلما . وأخذ يؤمن بالتواضع والخير المطلق والتسامح ، وأدرك لأول مرة عبث ما تواضع الرومان على تقديسه والسعى اليه والموت من أجله ، فاحتقر المجد والعظمة وحسن الأحدوثة وكل ما لم يكن مصدره الضمير .

أخذ يبشر بهذه المبادئ الجديدة ويدعو إليها زملاءه من الجنود ، وحاول اقناع خاصته بها وهو أشد ما يكون حذرا . ولكن سرعان ما علم قائدهم أن آراء تنشر بين رجاله تدعو الى الرحمة والمحبة والتسامح ، وتنتهي عن القتل وتهزأ بالنظام وتسخر بمجد روما وعظمتها ، فعزم أن يأخذ الأمور بالحزم ، وأن لا يدع أحدا ينال من عظمة جيشه وهو فخر روما وموضع اعجاب الناس كافة .

وحدث بعد قليل أن سير هذا القائد جيشا الى مدينة قريبة وكان هذا الجندي الذي آمن بالمسيح من بين من دفعوا الى القتال ، فذهب وهو لا يعلم ما سيحدث له ، فقد اطمأنت نفسه الى أنه لن يقتل أحدا ليس بينه وبينه عداوة ، وانه لن يدع النظام يطغى على ضميره ، ولكنه لم يكن يدري على أية صورة سيكون هذا الصراع بين النظام والضمير .

مريضة

يحتوى الليل الألم فيزيده شدة
ويحتوى الألم الليل فيزيده طولا
ولم يكن ذلك الألم — علم الله — فى حاجة الى ما يزيده
شدة .

ولم يكن ذلك الليل فى حاجة الى ما يزيده طولا
ذلك أنه كان فى أطراف أورشليم بيت صغير شغل أهله
بالحذب على مريضة منهم ، حجبهم أمرها عن العالم فلم
يسمع بخطبهم أحد وحجب العالم عنهم فلم يعلموا شيئا
مما كان يجرى حولهم . وكان البيت يدل على فقر واضح
وان لم يبلغ حد الحاجة . ولم يكن فيه أثاث يذكر ، ولكنه
لم يكن خاليا مما يحتاج اليه أهله من وسائل العيش السهل
البسيط . ولم يكن فقرهم هذا بالغاً حد العدم الذى يدعو
الى الحقن على غيرهم أو بغضهم أو الحقد عليهم بل كانوا
بريئين من كل ذلك . وكانت المريضة فى احدى القاعات
العليا وكان قد اشتد بها الألم منذ بضعة أيام حتى بلغ مبلغا
لم يكن لأحد من أهلها بمثله عهد .

وكانت المريضة سيدة فى أوج شبابها ، بيضاء ناصعة
البياض ، زاد شحوب المرض جلدها شفيفا . وكانت بضعة
لم ينل المرض — على شدته — من اهابها الغض ، ولم يذهب

المرض المضنى بشئ من صفاء وجهها . وكانت حين يهدأ عنها الألم يعود إليها اطمئنان نفسها التى لم يكن يعرض لها الاضطراب ولا الضجر ، كأن السقم لم يغير من خلقها شيئاً وان أقعدها عن الحركة .

وما زال الألم يشتد يوماً بعد يوم ، وكان يأتيها الفينة بعد الفينة عنيفاً مزعجاً ، وكان أهلها يرقبون هذه الشدة وهم أشد ما يكونون جزعاً ، ثم لا يزالون كذلك حتى تنكشف عنها الغمة بعد أن ينهكها الألم والصراخ . وكانوا يعجبون اذ ينظرون إليها حين يخف الألم فإذا هى قد عاد إليها هدوءها ونضرتها وصفاء ذهنها .

ولما استفحل الشر وعنف الألم لم يعد أحد ممن حولها يطيق أن يراها فريسة لهذا العذاب . وطلبت احداً من الى أحد الحواريين — وكان أحد لا يرد لها أمراً ولا رجاء فهى السيدة مريم نفسها — طلبت اليه أن يذهب الى السيد المسيح يلتمس للمريضة عنده الشفاء ، وقالت له ذكره بها فهى ابنة جارتى وصديقتى ، وهى أطيب الناس قلباً وأطهرهم نفساً ، والله لا يمكن أن يريد لمثلها عذاباً ، وقل له أنها تألم ألماً لم نسمع أن أحداً عانى مثله من قبل ، والله الذى وهبه القدرة على شفاء المرضى انما وهبه ايها مثل هذه المريضة المسكينة الطاهرة .

وسمع بمرضها رجل من أصدقاء أسرتها ، فدلهم على

رجل جاب أقطار الهند وحمل منها أعشابا تسمى الأفيون تنقع وتشرب فيكون لنقيعها في شفاء الألم عمل السحر ، وجاءهم به فجر بوه وكان فعله أعجب العجب فلم تمر دقائق حتى ذهب عنها الألم كله كأنها لم تمرض يوما .

وكان أشد الناس ارتياحا الى هذا الدواء وفرحا به أمها ، وهى سيدة هادئة جدا ، رقيقة الجسم دقيقة التكوين ، ذات صوت هادىء لا يرتفع فى أشد سورة الغضب الى أكثر من صوت الحديث عند الناس . وكانت هى وابنتها المريضة ممن وهبهم الله تلك الصفة الرائعة — انهم يشعون الهدوء حولهم ويسبغون منه على كل من يحيط بهم لا يشذعن ذلك أحد . وكان فى البيت طفل صغير ممتلىء نشاطا ، وكان أميل الى الصخب والصياح ، لا يهدأ ولا يخضع لأمر يؤمر به ، ولكنه كان اذا نظرت اليه هذه المريضة هدأت ثأثرته وأقبل عليها وصعد الى سريرها وجلس بجانبها أهدأ ما يكون ، وكان شديد الحذب عليها . رأى بعضهم يريد أن يغلق بابها دونه فغضب وهدد من يحاول ذلك مرة أخرى ، كأنه يخشى أن يؤذيها الناس اذا لم يكن عليهم رقبيا ، وكان كل من فى البيت يشعر أن بين روح هذا الطفل وروح هذه المريضة تواؤما واتفاقا عجيبين ، كأن الأرواح لا عمر لها ، وكأنها حين تتفق لا يعنيتها ما يكون بين أصحابها من اختلاف فى السن .

جرح الليل ، وكانت المريضة نائمة من أثر هذا الدواء .
والذين يتناولون الأفيون تفاديا من الألم المبرح ينامون
نوما غريبا يظل فيه الوجه أقرب ما يكون الى حاله عند
اليقظة ، كأن الجسم وحده هو الذى يعتريه النوم ، أما النفس
فكأنها تظل على ما هى عليه من الانتباه ، وكأن النائم
يسمع وان لم يجب أو هكذا يخيّل الى من ينظر اليه .

وأخذ أهلها يعدون عدتهم لاستقبالها حين تستيقظ ،
وكان عليهم أن يقدموا لها غذاءها فى الفترة بين نومين ،
وهبت من نومها وليس بها أثر من الألم ، ولم تتردد تردد
النائم حين يستيقظ ، بل فتحت عينيها تامة اليقظة كأنما
رفعت عنها أستار السنة . وتبسمت كأنها لم تعرف الألم قط .
وأقبل عليها كل من حولها يعينونها على الحركة والغذاء
القليل الذى تستطيعه ، وأجلسوها فرحين بعودتها اليهم وهم
لا يكادون يصدقون . وهمت أن تشكر ذلك الصديق الذى
جاءها بالدواء ، ولكنها تبسمت ثم قالت انها رديئة لا تنسى
إساءة ولا تغفر لمن أساء اليها . ولم يفهم أحد من الذى تعنيه
بهذا القول ، ولم يكن أحد ممن حولها يعلم أنه أساء اليها
يوما فى قليل أو كثير ، ومع ذلك سرت فيهم رعدة من هذا
القول يقوله انسان وهو أقرب ما يكون الى الموت ، ونظروا
اليها فاذا هى تبسم لهم فى اخلاص وبراءة يؤكدان أنها لم
تقصد الا الى أن تنسى الظن بنفسها وأن تنفى عنها غرور من
يظن بنفسه الكمال .

وطفقت تتحدث الى من حولها حديثا عذبا يكاد يكون
مرحا ، ثم أخذ الألم يلهم بها رويدا رويدا ، وأخذ صوتهما
يضعف وحديثها يسكن ، وعلم الحاضرون أن بينها وبين
الألم المبرح دقائق معدودات . والألم المبرح يصيب الجسم
أول الأمر وتبقى النفس هادئة ، ويظل الحال كذلك فترة
تختلف قصرا وطولا ، ثم يشتد الألم حتى يشمل الجسم
والنفس جميعا .

فى هذه الفترة يكون الجسد معذبا أشد العذاب وتكون
النفس قوية لم يصعد اليها الألم بعد . وهى حال غريبة تحدث
انفصالا بين الجسد والروح لا أعلم أن شيئا يحدثه مثل الألم
المبرح ولعل تلك الحال التى يكون فيها انفصال النفس القوية
عن الجسد المنهوك تغلبها عليه وتعالها عن آلامه أصل
ما يعتقدده الكثيرون الذين يحسبون الألم العنيف يصهر
النفوس ويظهرها . والواقع أن ذلك لا يصدق الا على هذه
الفترة القصيرة ثم يكون الألم عذابا صرفا .

ولما أخذ صياحها يشتد سألت أمها عن الدواء ففيل لها
انه نقد ، فجن جنونها وقالت ان لم يجئها أحد بهذا الدواء
فسأهشم رأسها بيدي ، فذلك عندى أهون من أن أراها
تألم كما كانت تألم من قبل . ووقع قولها هذا على الحاضرين
وقعا أليما ، وزاد فى أثره ما خيم على الدار من سكون مؤلم
محزن . كان لصوتها الخافت المتهدج وسط ذلك السكون
المطلق رنين رهيب مفجع .

أكدوا لها أن عندهم وعدا أكيدا أن الدواء سيكون عندهم بعد قليل . ثم اضطرب كل من في المنزل حين سمعوا أولى صرخاتها العالية ، وساد الهرج بينهم من هول ما كانوا يترقبون .

في تلك اللحظة دق الباب فكأنما نزل عليهم ملك من السماء . واحتفظوا الدواء وجرعوها منه ما شاءوا . ولم تمض دقائق حتى هدأت نفسها وبدأت صيحاتها تقل ويتباعد ما بينها . ثم زال الألم وهدأت العاصفة هدوءا تاما ، ونامت المريضة ذلك النوم الخاص الذى يجلبه الأفيون ، وأطفئت الأنوار وخيم السكون على البيت وانصرف كل من فيه الى حيث يرجون بعض النوم الى أن تهب العاصفة من جديد . وكانت ليلة ليلاء ، خيل اليهم أنه لن يكون لها فجر ، وحمل عبء هذا كله بضع نساء ضعيفات رقيقات الشعور ، وذاك الطفل الصغير .

ثم أقبل عليهم الحوارى الذى كان يحبه السيد المسيح ، وهو الذى أرسلته السيدة مريم اليه تلتمس شفاء هذه المريضة على يديه . أقبل الحوارى يحمل رد سيده على هذا الرجاء .

— يقول سيدى ان مريضتكم مبرأة من كل خطيئة ، طاهرة من كل ذنب ، وانه انما وكل بمرضى النفوس يهديهم ويكفر عن ذنوبهم ، وانه لم يؤمر بشفاء الأجسام واحياء

الموتى الا أن تكون فى ذلك آية من آيات الله يريد بها أن يحمل الناس على الايمان ، وانه ليس له أن يعترض سنة الله فى الأجسام اذا كان فيها خطأ يدعو الى السقم .

— أظن أن الله يريد بهذه البريئة الطاهرة أن تعذب هذا العذاب الذى لم يشهد له أحد مثيلا من قبل على حين يكون غيرها من كبار الخاطئين يمرح ويلعب متمتعا بالصحة والسعادة ، أليس مما يحمل الناس على أن يطهروا نفوسهم أن يكون للطهارة أثر فى هناءتهم وصحتهم . ان الألم لا يبرره الا أن يكون عقابا للمخطئ على خطئه ، والمجرمون أولى به . واذا كان الألم ، كما تقولون ، مما يطهر النفس وينقيها من أدران النعمة وفتنة الصحة، وأنه طريق الجنة، فأولى به من هم فى حاجة الى التطهير ولا يجوز أن يختص به الأبرياء . أليس مما يحمل الناس على اجتناب الشر أن يقع بفاعله عقاب يؤذى صحته وسعادته ، أو ليس مما يدعو الى الخير أن يكون أهله بمنأى عن العذاب والألم فى هذه الحياة .

— ان الله لا يجزى طهارة النفس بسلامة الجسم ، ولا يعاقب على خطيئة الروح بسقم الأبدان . هذا بعض تفكير الذين يقيسون علمه بجهلهم . انما يكون الجزاء من جنس العمل ، والعقاب لا يكون عدلا الا اذا كان نتيجة طبيعية للذنب ، ولا يجوز على الله الظلم ، ولو أنه عذب الكافرين بالآلام الجسم لكان هذا ظلما ، انما يعذبهم بقلق

الضمير . والألم ليس عذابا ولا تطهيرا ، إنما هو نتيجة طبيعية لخطأ في الجسم لا يتعلق بالنفس ، والألم الذى يصيب المؤمنين ليس امتحانا ولا تمهيدا لطريق الجنة ، وليس بين الايمان والصحة من سبب ، ولو كان الأمر على ما ترين فيكون عقاب كل عمل من أعمال الشر مرضا معجلا وثواب الخير صحة دائمة ، لأصبح الناس جميعا طيبين مؤمنين ، ولم يرد الله أن تكون سنته في خلقه على هذا النحو .

— لله حكمة لا نستطيع أن ندرك كنهها ولا أن تبين مراميها ، ولكنى أخشى أن يظن الناس بسيدك الظنون ، وأخشى أن يشكوا فى ألوهيته بل فى نبوته ، وقد يشكون قريبا فى انسانيته .

— انك يا سيدتى تشتدين فى الحديث عنه شدة حملته فى ساعة ضجر أن يقول لك كلمته التى سيحار الناس فى فهمها قرونا ، ذلك حين قال لك أيتها المرأة ماذا بينى وبينك . هنا استيقظت المريضة النائمة وكأنما كانت تستمع الى كل ما يقال حولها وقالت .

— انى أعلم ما قال عنى السيد المسيح وأعلم انى ناجية من غير شك ، وأنى بريئة طاهرة اذا كان هو قد وصفنى بالبراءة والطهر ، ولم أكن أطمع أن أسعد فى حياتى بشئ خير من هذا الذى قاله عنى ، ويستوى عندى بعد ذلك أن أموت أو أن أبرأ ، ويكفينى أنه قال عنى انى مؤمنة ولا

أريد على هذا الايمان جزاء ، ولا أريد أن يكون مرضى
وسيلة لاختبار صدقه، فهو عندى الصادق الأمين على أية
حال ، وليس لكم أن تقيسوا عمله بما يعمل غيره ، فان عمله
خير كله وان كان ظاهره على غير ما تحبون .

وحاولت أن تجلس فلم تقدر ، وسقط رأسها على
وسادتها فى عنف قليل ، وارتخت أعصابها ومال رأسها ،
وأقبلوا عليها جميعا فاذا هى جثة هامدة .

وجاءت المجذلية فسجتها وقبلتها القبلة الأخيرة .
وكانت أشد الناس حدبا عليها وسهرا من أجلها ، فلما لم
يعد الحذب يجدى شيئا تركتها وأقبلت على الرسول تسأله
فى لهفة شديدة ما فعل الناس بسيدة ، وكأنما عادت الى
سابق ما تعودته حين كانت لا تستطيع أن تفكر فى أحد
غيره .

وأطرق هو ولم يجب ، وكان احجامه عن الحديث ينم
عن ألمه ، وخيل الى محدثه أنه يخفى أمرا خطيرا ، فأخذت
يفودى رأسه وهزته هزا عنيفا ، وسألته ما وراء هذا
الصمت ، أترأه قد حدث له حادث ، أيمن أن يكون قد
نال أعداؤه بشر .

وظل على صمته ولكنها كانت على حال من الغضب
والعنف لا يقف أمامها شيء ، فاضطر أن يروى لهن ما فعل
بنو اسرائيل وما اعتزموا من حمل الرومان على صلبه اليوم
متهمين إياه بالكفر .

— أَيْصَلْبُ الْمَسِيحِ لِكُفْرِهِ بِاللَّهِ ، وَيُقَالُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ
لِلْإِنْسَانَ عَقْلًا أَوْ ضَمِيرًا ، ثُمَّ يَرَادُ مِنَّا بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ ثِقَتَهُ بِحُكْمَةِ
الْإِنْسَانِ .

— وَأَعْجَبُ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَزَعْجِهِ ،
فَهُوَ ثَابِتٌ كَالطُّودِ لَا يَرِيدُ أَنْ يَحْرُكَ سَاكِنًا ، وَلَا يَرِيدُ أَنْ
يُشِيرَ عَلَيْنَا بِمَا نَعْمَلُهُ لِاتِّقَاذِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ رَهْنَ إِشَارَتِهِ
وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكُنَا جَمِيعًا .

— أَيْعْنَى ذَلِكَ أَنَّكُمْ سَتَسْكُتُونَ عَنْ هَذَا الظُّلْمِ
لَا تَدْفَعُونَهُ عَنْهُ .

— أَنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا إِرَادَةُ اللَّهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَعْتَرِضَ
قَضَاءَهُ وَقَدْرَهُ .

— إِنْ اللَّهُ حَيِّنٌ وَهَبَ لَنَا الْعَقْلَ أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْدًا أَنْ
يَفْهَمُنَا حُكْمَتَهُ ، فَإِنْ غَمَتْ عَلَيْنَا فَقَدْ نَصَلَ إِلَى حَدٍّ مِنَ الشَّكِّ
هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الْكُفْرِ .

— أَبْقِ عَلَيْكَ إِيمَانَكَ ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ لَا يَعْرِفُ إِلَّا عِنْدَ
الشَّدَائِدِ ، وَنَحْنُ فِي شِدَّةٍ لَا تَعْدِلُهَا شِدَّةٌ ، فَلَنَتَمَسَّكَ بِإِيمَانِنَا
لَعَلَّ اللَّهَ يَهْدِينَا سَبِيلَ الرِّشَادِ فَلَا يَجْمَعُ عَلَيْنَا الْكُفْرَ وَالضَّلَالَ .
وَلَمْ يَدْرِكْ أَكْثَرَ النِّسَاءِ الْحَاضِرَاتِ أَوَّلَ الْأَمْرِ هَوْلَ
مَا أَخْبَرَهُنَّ بِهِ هَذَا الْحَوَارِيُّ ، بَلْ أَصَابَهُنَّ لَدَهْشَتُهُنَّ مَا يُشَبِّهُ
الذَّهُولَ . ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُنَّ عَظَمُ الْخُطْبِ الَّذِي سَيَلَّمَ بِهِنَّ حِينَ

يفقدن أعز عزيز عليهن . وكن ضعيفات أنهكن السهر
والحزن والألم ، فأجهشن بالبكاء وأخذن يولولن بصوت
عال حتى أنبتهن سيدتهن ، وزجرتهن وردتهن الى
ما يليق من الاحتشام . وحملت هي ألم هذا الخبر في هدوء
واطمئنان ، ولم ينم عن حزنها الا تقلص خفيف حول
شفتيها . ولم يذهب كل ذلك بشيء من روعة عظمتها وسمو
شعورها وصفاء نظراتها ، فقد أنزل الله عليها سكينه اختص
بها تلك التي اصطفاهها وفضلها على نساء العالمين .

ولم تستطع المجادلة أن تبلغ هذا المبلغ من الصبر ،
ولم تستطع أن تتصور حياتها بعد أن يغيب عنها هذا الذي
أنجاها من عذاب الضمير وخطيئة الكبرياء ، فهي لم تعد
تعيش الا به وله . وعزمت أن تحول بين جنود الرومان وبينه ،
ولو قتلوها ، فما للحياة بعده قيمة . واشتد بها الضيق حتى
غشى عليها ، فحملنها الى سريرها وهن لا يصدقن الا أنها
ستقضى نحبها من فورها .

وخرج هذا الحوارى وقد زاد حزنا على حزن وألما على
ألم ، وذهب الى دار قريبة اجتمع فيها الحواريون يبحثون
فى ما يجب عليهم عمله فى هذا اليوم العصيب .

اجتماع الحواريين

اجتمع الحواريون في تلك الليلة ينظرون في ما يجب عليهم عمله بعد أن أجمع بنو اسرائيل والرومان أن يصلبوا المسيح . ولم يكن على وجه الأرض أظهر منهم نفسا أو أعظم خلقا أو أنبل غرضا . وكانوا يبحثون كيف يحقون حقلا مرية فيه ، وكيف يمنعون ظلما لا ريب فيه . ولم يكن بهم ضعف في العقيدة ولا في العزيمة ، ولا تهب لخطر . ولم يستسلموا لشهوة جامحة أو أثرة تخرج بهم عن جادة الصواب . بل كان يحدوهم حب قوى خالص لوجه الله . ومع ذلك طال بهم الجدل واشتد النقاش ، وتبادلوا تهما يعلم الله أنهم منها أبرياء . ولم يعصمهم من أن تدب بينهم البغضاء الا صفاء نفوسهم وقوة ايمانهم . واختلفوا اختلافا شديدا ، على ما بهم من التقوى والورع وانكار الذات وشرف المقصد .

ولعل في ذلك مصداق رأى من يرون أن اجتماع طائفة من الناس ينظرون في أمر بعينه يخلق بينهم تدافعا وتجادبا واقفعالات تؤدي الى مواقف متشابهة سواء أكان المجتمعون حواريين أم وثنيين ، علماء أم جهلاء ، مجرمين أم أتقياء ، فلا يلبثون أن يكون منهم المقدام والمترث ، والمخاطر والمحاذر ، والذي يدعو الى المجاهرة ، والذي يدعو الى التقية ، والذي يؤثر العاجلة ، والذي تعنيه الغايات البعيدة ،

والقريب النظر والبعيده ، مهما يكن موضوع الحديث .
ولا يتفق مثل هؤلاء القوم في سهولة الا أن يكون في
اتفاقهم كثير من الرياء .

وكان المجتمعون من الحواريين عشرة اذ تخلف عنهم
الذى خان ، وغاب الذى يحبه السيد ، فقد أرسلوه اليه
يستطلع لهم أخباره ويتلقى أوامره . وكان معهم حكيم
ماجى كانوا يعرفونه ويقدرّون فضله ، وكان أحد الماجين
الثلاثة الذين قدموا على بيت لحم يوم ولد المسيح . ذلك
أن علمهم هداهم الى نجم بدأ يتألق فى السماء فاتبعوه فدلهم
على مكان مولده ، ثم رأوا هذا النجم يشتد نوره حتى بلغ
أوجه يوم موعظة الجبل فحضرها منهم اثنان . ثم رأوا هذا
النجم يضعف نوره فعلموا أن وجود المسيح على الأرض
قد قارب نهايته ، فقدم أصغرهم يشهد نهاية هذا النور الذى
اهدوا به دهرًا طويلا .

وقضى الحواريون وقتا ليس بالقليل يروحون ويجيئون
وهم مضطربون أشد الاضطراب يحدث كل منهم نفسه أو
غيره حديثا كله ألم وحزن وغضب دون أن يتبين لهم رأى
أو يتعين لهم غرض .

ثم تكلم عبيدهم صاحب المفتاح فقال

— انا تتعرض اليوم لمحنة هى أقسى علينا من كل
ما لقيناه من المحن ، محنة لا ينفع فيها ما يعتريكم من حسرة

وندم وقلق ، فلن يغنى عنا كل ذلك شيئا . وانى لأخشى عليكم هذا الندم وهذه الحسرة ان لم يعقبهما عزم وعمل . ان الانسان ليضطرب حتى يبلغ حد اللوثة حين يدعوه ضميره الى عمل خطير ثم تقعد به عزيمته أو يقصر عقله عن أن يهتدى الى نوع العمل الذى يجب عليه ، حتى اذا حزم أمره واعتزم خطة صريحة هدأت نفسه مهما يكن عزمه خطيرا أو مركبه صعبا . وانى أدعوكم الى أن تفلعوا عن ما أنتم فيه وأن تفكروا هادئين فى ما يجب علينا عمله غدا . وليس من شك أن التردد والحيرة أشد ضررا على الاتزان العقلى والنفسى من التعرض لأكبر الأخطار .

عند ذلك سكتوا برهة حتى ثاب اليهم هدوؤهم ثم قال قائل منهم :

— ان الخطيئة التى ستقع غدا أكبر ما ارتكب الانسان من خطايا فى تاريخه الحافل بالذنوب . وما بعد الناس عن الحق بعدهم عنه فى هذا الأمر فانهم خلطوا بين خير الناس وشرهم ، وساوا بين الأنبياء واللصوص . هذا اثم أكبر من أن يحمله قوم دون قوم ، أو جماعة بعينهم ، انما يحمل وزره الناس جميعا ، فنحن اذا أتقذنا السيد المسيح أتقذنا الانسانية كلها من عبء ستنوء به أبد الآبدين .

وقال آخر :

حسن أن تنقذه فننقذ الانسانية من جرم لا يعدله جرم ،

لكن علينا فوق ذلك أن نثقده لحبنا اياه ، فمن لم يجد
بحياته في سبيل من يجب فلا حب له ، ومن لا حب له فليس
منا ، وليس منا من يقف ايمانه عند ابتغاء السلامة . اني
أريد أن أحول بينه وبين ظالميه وهم أقل قدرا من شمع نعله ،
وسأعترض الجنود الذين يريدون به الشر فأثقده منهم أو
يقضوا على ، فإن مت فسأمت راضيا ، وان أنقذته
فتلك سعادة الدنيا والآخرة .

وقال آخر :

— ألا ترون أن ظلما كهذا الظلم لو وقع على رجل من
عامة الناس لكان خليقا بنا أن نصره وندفع عنه الأذى .
ان ضميرنا يأبى أن يسكت عن هذا الظلم المبين . واذا لم
تغضب للعدل فقيم كلامنا عنه وعن الحق والباطل . واذا لم
تدفع المنكر باليد واللسان فلن ينفع أحدا أن ننكره بالقلب .
ان حب العدل وحده يحتم علينا أن نغضب للمظلوم مهما يكن
قدره بين الناس ومهما يكن بغضهم له ، فكيف اذا كان
المظلوم خير البشر كلهم وكان أحب الناس الينا وأعزهم علينا .
واذا أردتم أن يكون لايمانكم بالحق والعدل قيمة فعليكم
أن تدفعوا عنه ظلم الظالمين فان لم تفعلوا فقد حكمتكم على
أنفسكم أن في عقيدتكم زيفا وفي ايمانكم ضعفا .

وقال آخر :

كأنى بكم وقد غضبتكم له وللانسانية وللعدل قد نسيتم

أن أول ما يدعوننا الى اتقاذه هو حرصنا على الدين الذى جاء به . فليس منا من يستطيع أن يدعو من بعده كدعوته ، ولن يتبع الناس أحدا منا كما كانوا يتبعونه . ولا ريب أنه اذا قضى عليه هؤلاء السفاحون فسيندثر هذا الدين القيم ، وسيزيد فى عجزنا عن الدعوة اليه هواننا على الناس حين يرون قصورنا فى الدفاع عن نبينا ، ان حياته وحده أجدر أن يتحقق بها أمل العالم فى السلام والهداية من حياتنا جميعا بدونه .

وقال آخر :

— هذا قول جميل وحق لا ريب فيه ، ولكنى أذهب الى أبعد من ذلك فأقول انكم ان كنتم تحرصون على الدين فالرأى أن تتقذوا السيد بالقوة لا بالاقناع والاسترحام ولا بالحديث عن العدل والحب . لقد كنا عبنا ثقيلا على دعوته . ألم يقل الناس لو كان فيه خير لاتبعه غير الأرذلين من قومنا . وكيفينا ما نحن فيه من هوان على الناس . ألم يقولوا اننا حثالة الشعب ، وان الله لا يهدى بنى اسرائيل بشرذمة من صيادى السمك فى طبرية .

ان وجوده بيننا يغنينا عن الدنيا بأسرها ، وما دمنا معه فليقل الناس فينا ما يشاءون . أما اذا غاب عنا فلن نفلح بعده حتى يثبت للناس أننا لم نذل الا له ولم نخضع الا لسلطانه ، وأنا انصرفنا عن مقاومتهم لا خوفا ولا جبا ،

بل تقانيا فيه ، واستصغارا لشأن الدنيا من أجله ، واخلاصا
للدين الذى آمننا به .

وقال آخر :

ان العزة والذلة أمران يتعلقان بما يبدى المرء من استعداد
لمواجهة الموت . ألا ترون أن الفارس الذى يهرب الناس
فيسجد له آلاف الأحرار من الرجال انما يرهبهم منه أنه
وحده مستعد للموت وبذلك يسودهم وينجو من الموت .
ولا يقولن أحد ان قوتنا أضعف من أن يكون لنا معها
أمل فى النجاح ، فاننا اذا أحجمنا عن الدفاع عنه فسينتقم
منا أعداؤنا يجمعون علينا بين الموت وسبة الجبن ومذلة الهوان ،
وان عفوا عنا فالحياة بعده نذالة وخضوعنا للضلال كفر ،
وان أقدمنا فسيذكر الناس عملنا بالاعجاب والفخر ، وان
متنا فسيذكرونا من بعدنا أجمل الذكر ، ومن أشرف ممن
يقتل فى سبيل الحق والعدل وهو عالم بضعفه .

وعلت حمية القوم وكشفت عنهم غمة اليأس ، وخفقت
قلوبهم لهذه الشجاعة ، وفرحوا بما عزموا عليه بعد أن ذاقوا
من التردد والحيرة عذابا عظيما ، وأجمعوا أن يتخذوا الى
إنقاذ كل سبيل .

وسكتوا مدة ثم قال أحدهم

— رأى عندى أن نختطفه من سجنه الليلة فليس
حراسه بكثيرين ، وليس من العسير أن تتغلب عليهم ولو

أدى الأمر الى قتل من يقاوم منهم . وقد يكون الرأى أن
نتظر حتى يصعد الجند الى قمة الجبل ثم نهجم عليهم ويكون
هربنا به من المدينة أسير .

وكان طبيعيا أن تغلب عليهم الرغبة فى العمل الجرىء بعد
أن صرفوا عنه زمنا شغلوا فيه بالايمان والعقائد ، وكان
طبيعيا أن يشعروا بالحاجة الى اثبات ما فيهم من عزم وقوة
لم يتبينهما الناس فيهم من قبل ، وأن يشملهم حب التخلص
من ماضيهم الذى كان على الناس هينا أو دون الهين .
ورضيت نفوسهم حين عزموا أن يعملوا عملا حاسما ، ولم
يشك أحد منهم أنهم سيلجأون الى القوة وأنهم قد يضطرون
الى التعرض للموت أو لما هو أشد عليهم من الموت وهو
قتل الأبرياء ممن سيقاومونهم .

وطفقت حججهم تتابع فتقوى ، يتلو بعضها بعضا فتعلو
علوا كبيرا . والأمواج — حتى الضعيفة منها — اذا توافقت
والتقت على نظام اشتد أزرها ، على حين أن الأمواج العالية
اذا التقت على غير نظام ضعفت وتضاءلت . كذلك تتدافع
الحجج فى مثل هذا المجتمع فتقوى الحجج الضعيفة حين
تتسق ، وتضعف الحجج القوية حين لا يعين بعضها بعضا .

واشتد عزمهم على الكفاح والمقاومة بالقوة ، وأصبح
من الصعب على أى منهم أن يعترض هذا العزم أو يقاومه
بعد أن بلغ الذروة ، وكادوا ينفضون وهم على هذا الرأى

وأخذ بعضهم يعد نفسه لحمل السيف ويفرك يديه استعدادا
للكفاح .

وهنا تكلم أحدهم فقال وهو خائف وجل :

— انكم لتعلمون أنى لست أضعف الناس قلبا ولا
أحرصهم على حياة ، ولا أشك ان ما قلناه الليلة صواب وحق
ولكنى لا أريد أن أعصى للسيد أمرا وهو لا يزال بيننا حيا ،
فانى لا أملك من الدنيا شيئا الا ايمانى به ، ولا أود
لنفسى أن أموت وقد خالفته فى صغيرة أو كبيرة ، ولا أستطيع
أن أهتدى بغير هديه فى أى أمر من الأمور ، وقد علمتم أنه
أمرنا حين تعرض له رجال الشرطة وتآلب عليه الناس أن
لا نتعرض لهم بشر . وتذكرون أنه زجر أحدنا حين استل
سيفه فأصاب به أذن جندى منهم . ان أمره لنا فى ذلك اليوم
كان واضحا كل الوضوح ، فلن أعمل عملا مهما يكن عندى
صوابا حتى تأتونى بأمر منه . فان غاب عنا غدا فانى عند
ذلك أبيع لنفسى أن أحتكم الى عقلى على أن لا أخالف
ضميرى ، أما اليوم فهو عقلى وهو ضميرى ، فاذا أردتمونى
على أن أضع رأى فوق أوامره فانى أكون قد وضعت عقلى
فوق دينى وهو مالا أراه .

ورد عليه أحدهم فقال :

— أتريد منه أن يقول لنا موتوا دفاعا عنى ، انما يقول
ذلك القياصرة وذوو القلوب المتحجرة ، أما هو فلا يليق

به وهو صاحب القلب الرحيم أن يأمرنا أن نموت من أجله :
على أننا نعلم أننا على الحق وأنهم على الباطل ، وليس لنا
أن نرضى بالذل والخنوع ، وليس علينا أن نطيعه في أمر
انقاذه فان انقاذه خير لا يمكن أن تشوبه شائبة .

— انى أعارض في انقاذه اذا كان ذلك يلجئنا الى
استعمال العنف ، وهو ما نهانا عنه ، ورأى أن ديننا وضع
لضمايرنا حدودا وأباح لنا العمل كما تريد لنا عقولنا على
أن لا تتعدى هذه الحدود ، وعلى أن لا نخرج عليها مهما
يكن الخير في أعمالنا واضحا . فالدين هو الحدود والنوامي
قبل أن يكون ارشادا وأوامر .

— ان في هذا الرأى ضعفا يقرب من الخيانة ، وترددا
يكاد يكون غباء . أليس في نصرته نصر للدين ، فما احجامك
عن نصرته باسم الدين .

— انى لا أريد أن أرتكب معصية في سبيل حماية الدين
فان للدين ربايحيه ولا حاجة به — في سبيل حماية الدين —
الى أن يحملنى على ارتكاب معصية ، هذه أوهام يخلقها
ضعاف الايمان وأنصاف المتدينين .

— ان الله يتخذ منا أسبابا لتنفيذ ارادته ، وعلينا أن
نحرص على حماية الدين .

— أنحن أحرص على الدين منه ، أأتم أعلم بما يصلح
لنشر دعوته منه ، انكم ترون أن في غيبته عنا قضاء

على الدين ، وهذا رأى نراه ، قد يصدق أو لا يصدق ، ولكن استعمال العنف عصيان صريح لأمره ، وهو أمر الضمير ، وهو من أمر الله ، هذا عندى أكبر الكبائر .

— ان الخروج عن الدين فى سبيل الدفاع عن الدين حلال ، ولا بد مثلا من القضاء على زيغ العقيدة بالقتل اذا كان فى الزيغ فتنة ، فالفتنة أشد من القتل .

— ان الزيغ قد يكون زيغا وقد لا يكون ، أما القتل فخروج عن الدين لا يحتمل التأويل ولا الخلاف ، ولا شك أن الفتنة أشد من القتل ، على أنه يجب أن تكون الفتنة حقيقة وهذا ما يصعب التثبت منه ، أما القتل فاثم لا يحتاج الى التثبت من وقوعه . انكم ترون أن خذلانه فتنة ، ألا يمكن أن يكون خذلانا اياه اليوم أصلا من أصول الدين يتعلق بالتكفير عن الخطايا . الفتنة أشد من القتل ، هذا حق اذا كانت الفتنة ثابتة ، واثبات الفتنة يحتاج الى برهان وهو ما يجوز عليه الخطأ والصواب ، أما القتل والأذى فأوضح من أن يكون فيهما رأيان ، وفيهما شر لا نزاع فيه ، ولا يسوغ ارتكابهما خير محتمل أو شر مرتقب .

— ان الدين لا يأمر بأن نفعل عقولنا الى هذا الحد .

— ان الدين يأمر أن تطيع العقل حتى يقول لك الضمير قف ، عند ذلك لا بد من طاعة الضمير . وقد نهانا السيد — وهو ضميرنا — عن استعمال القوة ولو كانت فى سبيل نصرته أو نصرة الدين .

— ولكن موسى قاتل الناس وقتلهم ليحملهم على الدين الحق .

— انما حارب موسى ليقى قومه عدوان أعدائهم عليهم .
وقد تكون عداوة أعدائهم لهم من أثر اختلاف الدين ، ولكنه على كل حال عدوان ، والدفاع عن النفس مباح اذا كان العدوان محققا ، على أن لا تكون أنت البادىء بالعدوان اتقاء لعدوان متوقع . ان موسى لم يحارب لنشر الدين ، ولا لمقاومة الزيف في العقيدة ، فهو لم يقوم عبدة العجل بالقتل الا لخروجهم على النظام وعصيانهم أمره وهو حاكم تجب طاعته ، ولم يحمل أعداءه بعد النصر على الدخول في دينه . ومثله سائر الأنبياء الذين حملوا السيف ، لم يحملوه الا حماية لأنفسهم وقومهم من عدوان أعدائهم ، ولم يحمل أحد من الأنبياء قوما على الدخول في الدين بحد السيف ، ذلك أن الدين لا يدعى اليه بالعنف .

— هذا تخريج لا شأن لنا به اليوم فان احجامنا عن نصرته نكبة عليه وعلينا وعلى الدين .

— أليست لديكم وسيلة تنقذه دون حاجة الى القوة .

— ألا تذكرون جنديا رومانيا كان يحضر مجالسنا وكان يبدو عليه أنه آمن بالسلم وعرف الفرق بين الخير والشر ، ألا نلجأ اليه ليمنع اخوانه من جنود الرومان أن يرتكبوا هذا الاثم أو يقنعهم أن يتركوه لنا نهرب به من هذه القرية الظالمة .

— تلك خيانة لقومه لا أرضى أن ندعوه اليها ، واني لأخشى أن نزلق في منحدر الخطيئة حتى نصل الى الدرك الأسفل ثم لا نجد النجاة منها بعد ذلك يسيرة .

— انى سمعت أنه اتهم منذ مدة بخيانة جيشه وقومه في ميدان القتال وأنه سيحاكم اليوم ، وأكثرهم يرى أنه سيقتل شر قتلة جزاء على خيائته .

وخبث حميتهم وعادوا الى ما كانوا فيه من الاضطراب والتردد ، وذهب فرحهم الذى شعروا به حين أجمعوا أن يعملوا عملا حاسما يردون به ظلما واضحا ، وغضبوا على الذين أثاروا فيهم الشك بعد أن صدق عزمهم على الكفاح .
وإذا كانت الحجج التى تدعو الى الاقدام فى حاجة الى التتابع حتى تشتد وتقوى ، فإن الحجج التى تدعو الى الاحجام تنحدر فى سهولة حتى تبلغ السلبية المطلقة . ذلك أن الدعوة الى العمل الايجابى أسهل على الداعى من الدعوة الى التبصر ، وإن كان حمل الناس على الاستجابة اليها ساعة العمل أصعب . أما الدعوة الى الاحجام فهى أصعب على الداعى وإن تكن أسهل على الناس تنفيذا . والموقف الايجابى يجعل النفس أكثر ارتياحا ، وفيه لذة نفسية تشتد عند النقاش ، ومن هنا كانت الدعوة أسهل وأدعى الى رضى الداعى والمدعويين . والموقف السلبي يضع الداعى موضع الاتهام ، والدعوة اليه تحتاج الى شجاعة واخلاص يذهب بهجهما أن التنفيذ لا يحتاج الى شئ من الشجاعة .

والناس يختلف أمرهم ساعة الجدل في ما يجب عليهم عمله، عن أمرهم ساعة القيام بالعمل نفسه. وقد يكون الداعى الى الاقدام أقل الناس اقدا ما حين يجىء وقت العمل ، ولا يكون ذلك منه جبنا ولا سوء نية . وقد يكون الداعى الى الاحجام أكثر الناس اقدا ما ولا يكون ذلك منه اقتناعا بصواب ما يعمل ، وانما هى طبيعة الندوات حيث يجتمع الناس يبحثون أمرا جدا . هنالك يكون نصيب الرأى الذى يدعو الى الاقدام — وان كان خطأ — أن يغلب على الرأى الذى يدعو الى الاحجام مهما يكن صوابا ، سواء أكان الداعون الى الاقدام فى طبعهم الاقدام عند العمل أم لم يكونوا . تلك طبيعة الشورى حين تتم على هذا النحو فى مجتمع كبير ، كأنها ليس فيها ما يضمن صواب الرأى أو يعصم من الخطأ ، ولو كان أهلها على ما كان عليه الحواريون من فضل فقد كانوا أحسن الناس نية وأخلصهم للدين وأحرصهم على الايمان ، ومع ذلك لم تكن الشورى بينهم الا كما تكون بين غيرهم — وسيلة لا يؤمن معها الزلل .

وغضب أحدهم على المترددين فقال

— من ذا الذى يفيد من الدعوة الى عدم العنف . ان أكثر الرجال عنفا هم الأشرار ، ويزيدهم عنفا وشرا وجراً على الطيبين أن يكون هؤلاء ممن يؤمنون بعدم العنف فيفسحوا بذلك المجال أمام الأشرار يؤذونهم وهم لا يخشون

أن يقابل هؤلاء العنف بعنف مثله . ان خيار الناس في غير حاجة الى هذه الدعوة فهم لن يضعوا العنف في غير موضعه ، والأشرار لن يستجيبوا لها أبدا . انى لا أرى الا ضررا في هذه الدعوة الى تحريم العنف تحريما مطلقا .

— انى أفيد من ذلك أن أكون قد أطعت الله وتجنبته ما نهانى عنه ، وهذا عندى غاية ما يراد من الانسان .

— كأنه لا يراد من الانسان الا أن يقبع في دير أو يسكن في جبل ثم يترك غيره يعيش ويضل .

— كلا بل أريد أن يعيش الناس مجتمعين عاملين مجدين على أن تكون حياتهم وعملهم — أفرادا — في حدود طاعة الله ، وإذا أرادوا أن يضحوا فليضحوا بأنفسهم لا بغيرهم .

— ألم نخجل حين رأنا الناس نفر عندما قبض عليه .

هنا قال عميدهم :

— انى لأخجل من ذلك اليوم خجلى من الكفر ، ولم أذل أمام الناس وأمام نفسى كما ذلت ذلك اليوم ، فقد أردت أن أحمل السيف — ولست من أهله — فأضحكت الناس وأخفقت ، ومن عمل ما ليس من طبعه — ولو كان صوابا — تعرض لخطرین ، خطر النفاق وخطر الاخفاق . فمن لم يكن منا من أهل السيف والقوة ، ومن لم يكن من طبعه مغالبة الناس فليبتعد عن ما لا يحسن ، فان الصدق بأوسع معانيه — أى

التوافق بين حياة الانسان وما ركب فيه من طباع — هو
أول أسرار الحياة السعيدة الطيبة .

انى كدت أصعق يوم قال لى السيد انى سأنكره ثلاثا
قبل أن يصيح ديك الصباح ، وعلمت من نفسى أنى لن
أنكره أبدا ، ولكنى حين وقعت الواقعة تبينت ما فى نفسى
من ضعف رغم ما كنت أعترمه من شجاعة .

ان القول والرأى يكذبان ، أما العمل فلا يكذب .
والذى يريد أن يبدو شجاعا وهو جبان يبوء بخيبتين ،
احدهما فى نفسه والأخرى فى عمله . ان أكثرنا أهل ضمير
وايمان ، وعلمنا أن تقتصر على ما خلقنا له فلا نحارب قوما
هم أهل حرب وكر وفر . وانى أعترف لكم على أية حال أنى
لم أخلق لهذا النوع من الكفاح ، على أنى أرجو أن يهيب
الله لى من القوة ما أستطيع به أن أكافح فى سبيله كفاحا من
نوع آخر .

انى لأجد فى ضعفا كثيرا ، ألم يعلمنا السيد أن نجب
أعداءنا ، ولعلنى نجحت فى حب أعدائى ، الا أنى أرى صعبا
على أن أحب أعداءه وهم له ظالمون ، ولكنى أعد ذلك ضعفا
وأرى أن نطيعه اذا كان أمره لنا واضحا لا لبس فيه ، فاذا كان
قد نهانا عن نصرته بالقوة فعلمنا أن لا تتعدى نواهيته .

انى لا أرى بيننا اختلافا الا فى الوسيلة ، وفى مدى
ما نبيح لأنفسنا من حق استعمال القوة ، ورأى أن لا نخضع

للغضب ولا للبغض ، فاننا ان تفعل نخرج على ديننا . فلندبر
أمرنا على أن لا نرتكب خطيئة العنف .

— حسن كل ذلك ما لم يكن الدافع اليه الجبن أو
الخور . فان كان أحدكم يشعر أن رأيه هذا يصدر عن رهبة
أو خوف فتلك نصيحة الشيطان ، وان كان يصدر عن ايمان
وعقيدة فتلك نصيحة الله . وقد يتفق الفعلان أحدهما يوحى
به الله والآخر يوعز به الشيطان ، ولكن بينهما بونا شاسعا
وان لم ير الناس بينهما فرقا .

— أترى أن تتبع ما يميله الخوف وهو من أمر الشيطان
اذا اتفق مع ما يأمر به النبي ، أم تتركه ما دام الدافع اليه
شرا . أأعصى النبي في أمره الصالح اذا أحسست في أعماق
نفسى أنى انما يدفعنى اليه الحق أو البغض .

— عليك أن تطيع النبي على أن تطهر نفسك من دوافع
الشيطان .

— وما فائدة طهارة الدوافع ما دام العمل واحدا .

ان الدوافع تستمر في النفس بعد أن يتم الفعل فتراها
تنحرف بنا اما الى الشر ان كانت شرا ، واما الى الخير ان
كانت خيرا فترى من عواقب العمل الواحد ما يكون شرا
وما يكون خيرا طبقا لما في القلوب من دوافع .

وكان الحكيم الضيف ساكتا يسمع قولهم ولا يبدي

رأيا ، فلما بلغ حديثهم هذا المبلغ أخذ يقول لهم وهم له منصتون .

— أدهشنى كثير مما سمعت وهالنى أنى تبينت فيكم قصورا عن اتباع موعظة الجبل بعد أن سمعناها ووعيناها ، وكنت أظن أنها بلغت أعماق نفوسكم وأنها طهرت ضمائركم وأنه لا يأتى أحد منكم عملا الا اذا طابق مبادئها ، ولكنى رأيت أنها لا تزال فيكم موعظة سامية تتبع أوامرها حين يستطيع اتباعها ، وتهمل حين تصطدم وما فى طباع الانسان من ضعف أو شر .

وقد تبينت فى كثير مما قلتم أن العواطف التى تدفعكم الى العمل ليست مما نصحكم به السيد ، ولعلها تعد عواطف سامية جدا عند غيركم ممن لم يستمعوا الى السيد ولم يهتدوا بهديه . أما أنتم فيجب أن تكون دوافعكم خالصة من كل شائبة . والدوافع تكون حسنة أو قبيحة حين تتفق والضمير أو تختلف وإياه . وقد سمعت منكم أن حبكم للسيد المسيح هو الذى يدفعكم الى الانتقام من ظالميه ، والواقع أن الذى يدفعكم الى ذلك انما هو بغضكم لأعدائه لا حبكم له ، والأمران مختلفان جدا وان كان الناس يظنون أنهما متلازمان . والناس يختلط عليهم الأمر فيحسبون أن حبهم للصديق لا يكون الا ببغضهم لعدوه ، وأن حب الوطن مثلا لا يكون الا ببغض أعدائه ، وشتان بين العاطفتين ؛ فالحب لا يدعو الى الشر أبدا ، واذا رأيتَه يدعو الى الشر

فاعلم أنه قد استحال في قلب صاحبه الى بغض لعدوه ، هذا خطأ يقع فيه أكثر الناس ، وعليكم أن تحذروه فان اختلاط الأمرين يسهل في النفوس حتى لا يتبينه الا من رقت طبائعه وحرص على الخير المحض حرصا شديدا .

ودعوتهم الى نصره الحق بالقوة ، وما ذلك الا لأنه اختلط عليكم موقف الحق من القوة . الحق له حدود طبيعية ، بل هو هذه الحدود نفسها . والقوة من طبعها أن تتخطى الحدود ما استطاعت ، فاذا رأيتموهما يسيران جنبا الى جنب فذلك الى حين ، والذين يدافعون عن الحق بالقوة لا يلبثون الا ريثما يبلغون ما يريدون ثم تصبح القوة وحدها رائدهم ، ودعوى استعمال القوة لبلوغ الحق دعوى قصيرة الأمد لا تلبث الا قليلا ، ثم تصبح الدعوة الى القوة سافرة حين تكون في غير حاجة الى مسوغ من الحق ، وكل من اتخذ القوة وسيلة الى الحق يجد بعد قليل أنه انما اتخذ الحق وسيلة الى القوة . فلا يكن من دوافعكم أن الحق الواضح يجب أن يدافع عنه بالقوة ، فان مصيركم بعد احقاق الحق أن تعتمدوا على القوة وحدها وهو ما ينهاكم عنه دينكم .

الا فاعلموا أنه ما دام الحق في المحل الثاني فسيان أن يخضع للقوة أو للباطل .

وسمعت منكم من يقول انه انما يدفعه الى العمل خشيته

مما قد يقوله الناس فيكم ، وكثير من الناس يظنون هذه النوع من الخشية وسيلة قوية الى حمل الناس على الفضائل ، وهو خطأ شائع ، فشتان بين الرغبة في الفضيلة والخوف من الرذيلة ، فان الخوف كالبغض قد يؤدي الى عمل حسن يوما ثم يؤدي آجلا الى الشر حتما ، ولا يليق بكم أن تصدر أعمالكم عن مثله .

وسمعت منكم من يفخر بشجاعته ووجهه للتضحية طمعا في حسن الذكر وطيب الأحداث ، ومنكم من قال ان ذلك يدخل بكم في التاريخ فيذكركم الخلف بأطيب الذكر أبدا ، وهذا دافع غريب من دوافع العمل يحسبه كثيرون مما يدعو الناس الى الخير . لكنه قول الوثنيين ، وهو تفاخر أجوف وتعاضل نهاكم عنه السيد وهو عاطفة خرقاء لا يهتدى بها الا الحمقى فهي لا تصلح دافعا الى الخير ، بل هي الى الشر أقرب .

لا أريد أن أدعوكم الى عمل بعينه أو أحملك على خطة ، فأنتم أعلم بأموركم وأقدر على تدبيرها ، ولكني أحذركم أنفسكم فانظروا ما يدفعكم الى ما تريدون عمله ، فان كان شرا فستقعون في الشر الآجل وان أعجبكم الخير العاجل . وأحذركم القوة وما تحملكم عليه ، فانكم ان فعلتم ما تأمركم به فقتلتهم أحدا أو آذيتهم فانكم تتعدون بذلك حدود الضمير ، وهو كفر بدينكم مهما يكن له من مسوغ عندهم .

وكانى بكم تقولون وما شأن العقل الذى وهبنا الله .
وما شأن الاختيار الذى ركب فى الانسان اذا كان الصواب
أن نفعل عقلنا فى مثل هذا الأمر الواضح . والرأى عندى
أن تهتدوا بالعقل ما لم يتعد حدود الضمير ، واعلموا ان
للنفس قوانين يجب أن لا تخرج عليها حتى لا يعترىها المرض ،
شأنها فى ذلك شأن الجسم ، غير أن قوانينها أصعب فهما
وأدق مقاييس ، والضرر الذى ينشأ من مخالفتها أخفى من
أمراض الجسم وان يكن أبعد مدى منها . أما التوفيق بين
ما ركب فىنا من اختيار وما نرغم عليه من اتباع قوانين
النفس وما يقتضيه منا العقل ، فمعضلة المعضلات فى حياة
الانسان ، وقد يقربها من أذهاننا أنها تشبه الرجل فى السفينة
له حرية التنقل والعمل ، وله أن يحكم عقله وعلمه ،
على أن لا يتعدى حدود السفينة وقوانين الطبيعة التى تحيط
بها فيغرق .

وهنا دخل عليهم من أرسلوه الى السيد يستطلع رأيه
وينقل اليهم أوامره ، فتهافتوا عليه كل يود أن يكون رأيه
هو الصواب ، فقال لهم :

— انه يأمركم أن تنصرفوا الى العبادة والصلاة ، وأن
تتركوه حتى يتم الله أمره فيه ، وأن تنتشروا فى الأرض
تدعون الى الحق . وهو يقول لكم انه سيلقاكم بعد أيام
ثلاثة فى قرية من قرى الجليل ، وانه مهما يكن ما يصيبه غدا

من عذاب فذلك أمر الله وليس لنا أن نعترض عليه . وهو يحذركم العنف ويلومكم على ما بدا منكم يوم قبض عليه . ولما علموا أن ذلك أمره صريحا لا لبس فيه هدأت نفوسهم وعلموا أنهم لن يستطيعوا أن يحيدوا عنه ، ولكنهم حزنوا لذلك حزنا شديدا ، من دعا منهم الى العمل ، ومن دعا الى التريث ، ومن دعا الى العنف ، ومن دعا الى السلم . وثقلت عليهم الدعوة الى الاستسلام واليأس حتى بكى منهم كثيرون .

ولم يعوضهم من فرحة العمل الحاسم ومن لذة التضحية في سبيل الحق ومن شهوة الانتقام من أعداء الدين ما هم فيه من ايمان وطاعة ، وخضعوا للأمر يائسين محزونين ، وعزموا أن يخرجوا من هذه المدينة الظالمة وهم أشد ما يكونون حسرة وندما وبكاء وأسفا أن يضطروا الى ترك نبيهم بين براثن المجرمين يفعلون به ما يشاءون ، وكادت نياط قلوبهم تنقطع اذ رأوا أنفسهم بين هذا الاحجام المحزن وبين الكفر بأمر نبيهم .

وقال لهم الرسول انى وعيت قوله أشد الوعى ، وأرى أن علينا أن نتفرغ للعبادة والصلاة ، مهما يكن الكرب الذى نحن فيه . وأن نهتدى بموعظة الجبل التى غمت علينا فئسناها ، أو ثقلت علينا فتناسيناها . ولعلنا نحسن صنعا اذا استمعنا الى هذا الحكيم الذى أشرب قلبه هذه الموعظة

فأمن بها إيماناً أشد من إيماننا ، فعلينا أن تتبع نصحه ونفـيد من حكمته .

فلما سمعوا ذلك زاد تعلقهم بهذا الحكيم الذى لم يرتفع اليه الشك أو القلق أو الاضطراب . وتعلقوا به تعلق الغريق بمنقذه . وعلموا أن إيمانه المطلق سيكون عوناً لهم يستلهمون منه ما يخفف عنهم بعض الألم فى تلك الأيام الثلاثة الطوال التى سينتظرون فيها عودة السيد بعد أن رفعه الله اليه . وجعلوا يصلون ويتعبدون لعل فى صلاتهم وعبادتهم ما يخفف عنهم الحزن المرير .

وليس من شك أن ما عمله الحواريون كان صواباً من جهة ما هو وحى ودين ومن جهة ما هو فوق أن يدركه العقل الانسانى وحده ادراكاً تاماً ، وليس من شك أن ما كانوا يخشون من انهيار الدين المسيحى بعد أن يغيب عنهم سيدهم كان خطأ ، بل انهم بهذا الاحجام عن نصرته خدموا الدعوة المسيحية خدمة كبرى ، فان الدين المسيحى تحددت مبادئه وتكونت فلسفته فى ذلك اليوم ، ومن أحداثه خلقت الصفات الغالبة على هذا الدين الجديد ، ومنها نشأت أروع عقائده فى التكفير والقداء ، ومنها نشأ هذا الحزن الغالب على طبع كبار المتمسكين بالمسيحية ، وخوفهم من الخطايا ، وجهم لتعذيب النفس وارهاقها ، واكبارهم خطيئة آدم ، وإيمانهم أنها أصل للعذاب الذى تعرض له المسيح لينقذ الانسانية من

آثارها . ولعل ذلك لم يكن الا صدى لخطيئتهم الكبرى ، حين تركوا المسيح لأعدائه ، كان على المسيحيين أن يكفروا عن هذه الخطيئة الى آخر الدهر .

لكن ذلك كله لم يعلمه الحواريون ، ولم يكن لهم أن يعلموه دون وحى .

أما من جهة ما هو انساني محض فليس من شك أن عملهم كان خطأ . فقد تركوا الحق الواضح يضام وعرضوا دينهم للقضاء ونبههم للظلم وأنفسهم للهلاك . ولا يدرى أحد ماذا كان يصيب المسيحية لو نجحوا في انقاذه عنوة ، ولكن الذى لا ريب فيه أن ما دلهم عليه عقلهم ، وهداهم اليه تفكيرهم واحساساتهم لم يكن صوابا .

وإذا كان الحواريون — وهم أفضل الناس — لم ينجوا من الخطأ بعد التشاور والبحث وبعد أن تجمعت لديهم كل عناصر الهدى فان بنى اسرائيل لهم العذر اذا ضلوا ، فقد كانوا يحسبون الدعوة المسيحية فتنة لا تلبث أن تقوض أركان دينهم ونظامهم ووطنهم . وكانوا يظنون أن الرجل ساحر وأتباعه مجرمون ، وكانوا يصدرون عن نفوس بشرية وعواطف انسانية لم يصقلها الايمان الملتهب صقلا خاصا كما كان الشأن عند الحواريين . وإذا كان هؤلاء وهؤلاء أخطأوا وضلوا فماذا يستطيع الانسان أن يعمل اذا أراد أن يتجنب الضلال ما دام يصدر فى أعماله عن العقل الانساني وحده .

لم تبرأ المسيحية حتى يومنا هذا ، ولعلها لن تبرأ من
هذا الذى علق بنفوس الحواريين من ندم وحسرة على
ما فرطوا فى حق المسيح حين أحجموا عن نصرته . وقضى
عليهم أن يحملوا عبء الخطيئة الكبرى ، خطيئة ترك المسيح
لأعدائه يظلمونه ويعذبونه ، وخيل اليهم أنهم لم يؤمروا
بالانصراف عن نصرته نيهم الا لأنهم لا يستحقون الشهادة .

وبذلك أصبحت الخشية من الوقوع فى الخطيئة ،
والرعب من الذنوب ، صفة غالبية على الروح المسيحى ،
وستظل كذلك أبد الآبدين ، اذ ليس لهم من سبيل الى
التكفير عن ما حدث فى ذلك اليوم .

خروج الحواريين

خرج الحواريون من دارهم مطلع الفجر ، وتفرقوا في المدينة يشنون بين أتباعهم أن الرأي استقر على أن لا ينصروا نبيهم ، ما دام العنف هو السبيل الى نصرته ، ويأمرونهم بالسكون والهدوء والاقلاع عن الغضب ، ويحذرونهم أن يعصوا أمر النبي فهو صريح لا يقبل التأويل . وتواعدوا أن يخرجوا الى قرية من قرى الجليل أمروا أن يبقوا بها أياما حتى يأتيهم نبا تستقر به أمورهم . وكانوا أشد ما يكون الناس بؤسا وغما ، فقد حطمهم الحزن حتى لم تكد أرجلهم تحملهم . وأحاط بهم اليأس وصاروا في غمة من أمرهم لا يهتدون الى الطريق التي يسلكون ، وبرح بهم ألم الندم حتى فقدوا قوة التفكير ، وضاعت بهم أنفسهم ضيقا شديدا . وكانوا يعلمون أن قعودهم عن نصره السيد لا بد أن يكون صوابا فهو أعلم منهم بالصواب . وكان الحكيم الضيف قد وعدهم أن الله رافع السيد اليه وراده اليهم بعد أيام ، ومع كل ذلك لم ينقذهم أمر النبي من غضبهم على أنفسهم ، ولم يعصمهم وعد الحكيم من مرارة الندم على ما فرطوا في حق دينهم . وخامرهم الشك أن هذا الوعد انما ألقى اليهم حتى لا تنفطر قلوبهم أسي وأسفا ، وحملهم اليأس على أن يظنوا أن الله حرمهم نعمته وسلبهم رحمته لما اقترفوا من آثام ، وما قارفوا من خطايا ، وأخذ كل منهم يبحث في أعماق

نفسه عن نياته وأعماله في ماضيه وحاضره ، عله يجد سببا
لأنحسار رحمة الله عنه .

وتوارث المسيحيون هذا الاحساس العنيف بالاثم
والخطيئة ووقر في قلوبهم أنه لا يصيب أحدا من الناس
أذى الا كان مرجعه الى ذنب اقترفه ولو كان هذا الذنب
خطرا غير ذى بال . وظل هذا الشعور عالقا بالفلسفة
المسيحية ، وصار من أخص صفات المسيحيين المؤمنين خوفهم
البالغ من الاثم ورعبهم الذى يقعد بالمرء عن كل عمل يمكن
أن تشوبه شائبة ، وأى الأعمال يخلو من الشوائب .
والمسيحيون المؤمنون أحرص على تجنب الخطيئة منهم على
الاقدام على الخير ، وخوفهم الظلم أشد من حرصهم على
العدل ، وخشيتهم من النار أكبر من سعيهم الى الجنة .
ثم ان النهى عن المنكر أغلب عليهم من الأمر بالمعروف . وهم
في وعظهم الناس يوصون بالبعد عن الشر أكثر مما يوصون
بالاقبال على الخير ، وبذلك غلبت السلبية على أعمالهم في
أشد عصور المسيحية تعبدا وتقوى ، تلك صفات طبيعية في
الأديان جميعا ولكنها في المسيحية أظهر . وثبت في عقائدهم
أن الانسان منغمس في الخطيئة حتى يظهر ، وقد يكون
منشأ أكثر ذلك ما أكره عليه الحواريون في ذلك اليوم
العصيب .

ولم ينقذ الحواريين من حنقهم على أنفسهم أنهم شركاء

في الخطأ وأن ما عملوه رأى استقرت عليه جماعتهم ، ذلك
أن الجماعة من الناس يختلف موقفهم ازاء الخير والشر
اقداما أو احجاما .

فالجماعة تقدم على الشر في يسر بالغ لأن أفرادها
يقتسمون وزر الاثم فلا يشعر أحد منهم أنه آثم حقا .
ويعفيه من الندم أن له شركاء وأن نصيبه من الذنب ضئيل ،
وأنه لو لم يشترك فيه لوقع على كل حال .

والجماعة تقدم على الخير في صعوبة لأن كل فرد منها
يؤثر أن ينسب اليه الفضل .

والجماعة تحجم عن الخير فلا يعفى ذلك أحدا من أفرادها
من الندم وتأنيب الضمير ، ويظل كل فرد منها يعد نفسه آثما
اذ لم يقم بواجبه وحده ولو كره غيره أن يتعرض للخطر .

لهذا كان الاقدام على الشر أسهل على الجماعة ، والاقدام
على الخير أصعب على الجماعة ، أما الاحجام عن الخير فهو
مجلبة للندم سواء أكان الانسان وحده في هذا الاحجام أم
كان له فيه شركاء .

لذلك كان الحواريون عند خروجهم من اورشليم في
حال جعلت كلا منهم يشعر كأنه يحمل وزر الخطأ الذي وقع
فيه اليهود والرومان في ذلك اليوم ، كان كلا منهم كان يرى
أنه لو أنقذ السيد لأنقذ الناس جميعا من هذه الخطيئة ،
وناء كل منهم بحمل هذا العبء الذي أثقل كاهلهم وأحنى

ظهروهم وعذب ضمائهم ، وأصبح همهم الأول التكفير عن ذنوبهم ، وقويت عندهم فكرة التكفير الفردى عن ذنوب الناس كافة وهى من أقوى دعائم العقيدة المسيحية . وكان الأمر الذى صدر اليهم سببا فى أن يعتقدوا أن العمل السلبي ان لم يكن فيه رضى النفس البشرية ففيه طاعة الله وتقواه ، والضمان الأكبر للسلامة من المعصية .

وبيناهم يسIRON متساقلين فى الطريق التى تخرج بهم من اورشليم اذ قدم على هذه الطريق ركب روماني كبير تقدمه مركبة ضخمة عالية فيها عظيم روماني ضئيل الجسم قصير القامة فيه ضعف يبلغ حد السقم ووراءه جنود رومانيون أشداء ، ومن وراء هؤلاء عدد جم من أسرى موثقين بالسلاسل . وكان هذا الركب قد عرج على اورشليم فى طريقه الى الساحل بعد أن فتحوا فتحا عظيما وأسروا الرجال الأقوياء من أهل البلد المغلوب ، وجاءوا بهم الى السفن ليعملوا فيها وليبلغوا بها المدينة الخالدة حاملة اليها ما يأكل أهلها وما يشربون وما به ينعمون ويتسلون ويتزينون .

وكانت أيدى هؤلاء الأسرى قد تقرحت من أثر السلاسل الثقيلة التى حملوها أياما . وحدث أثناء السير أن اضطربت قدم أحد هؤلاء الأسرى فتعثر اعياء أو ضعفا وألما ، فجاءه رجل من الحراس وكان من قبل عبدا مثله — وكان الرومانيون يختارون من العبيد أقواهم فيعنون بهم عناية

شديدة حتى يبلغوا غاية القوة ، فيتخذون منهم حراسا ، ثم يختارون من هؤلاء من يصلح للمصارعة تسلية الغوانى روما وقتياتها ، فيقتل بعضهم بعضا ، وهم الأقوياء وساداتهم الضعفاء — جاء هذا الحارس ف ضرب بالسوط هذا العبد المتعثر فنشط للسير قليلا ثم أعياه الجهد فاضطربت قدماه مرة أخرى واضطرب معه نظام السير فجاءه الجلال وأعمل فيه السوط فلم يقو على النشاط وسقط على الأرض . ولما أقامه الحارس لم يقو على الوقوف . هنالك توقف سير الموكب وغضب القائد وأزعج غضبه من يليه من الرومان ، فذهبوا الى حيث يرون ما وقف بالجند عن المسير . ولما أطلعهم الحارس على هذا الذى حدث غضبوا عليه لأن ركبا يترأس عليه قائد روماني عظيم كزعيمهم هذا يجب أن لا يقف لحادث تافه . وحاول الحارس أن يخلص يدي العبد من السلاسل التي تربطه بغيره من العبيد فلم يستطع ، وضجر الضباط فلم يجد الحارس بدا من قطع يدي العبد . وسقط هذا على الأرض فرفسه الحارس خارج الصف ، وسار الموكب بيدين مقطوعتين معلقتين في السلاسل . وسر الرومان لهذا الحل البديع ، والحضور ذهن هذا الحارس . وتضاحكوا وهم يرجعون راضين الى مكان زعيمهم . وسرى عن هذا الحارس بعد أن أفزعه الرعب — على ما فيه من قوة هائلة — خشية أن يغضب عليه هذا القائد السقيم .

صعق الحواريون لهذا الذى رأوه ، واضطربوا اضطرابا شديدا ، وصاح أحدهم من فرط الغضب : « أيها القوم انكم لظالمون » لكن أحدا من الرومان لم يحفل بهذه الكلمة ولا بقائلها ، ولو ألقوا اليه بالا ما فهموا لقوله هذا معنى ، فلم يكن أحد منهم يرى أن العبيد يظلمون بأكثر مما تظلم الخيل حين تحمل الأثقال ، وكانوا لا يرون الا أن العبيد خلقوا لهذا ، وأن الناس ليسوا سواء فى جواز العدل بينهم والرحمة بهم . وأقبل الحواريون على هذا العبد يحاولون أن يضمنوا جراحه ، ولكنه فاضت روحه بين أيديهم وواروه التراب .

وسار الحواريون بعد ذلك وهم أشد ثاقلا وأكثرهما ، وشغلهم هذا الذى رأوه عما هم فيه من أمر أنفسهم فترة قليلة ، فأخذوا يتبادلون الحديث فيه ودار حديثهم أكثره حول الشر ووقوعه على الأبرياء ، وبدا لهم أن الدين ليس أمرا نفسيا خاصا ، وأن لا مفر من تعرضه لما بين الناس من علاقات .

وأهمهم هذا الظلم الذى وقع على العبد المسكين وأزعجهم أن يكون الله — وهو مصدر الخير ، وهو القادر على كل شيء ، وهو العادل الرحيم — أن يكون قد أتاح لمثل هذا الشر أن يحدث ثم لا تأخذ الظالمين صيحة تمنعهم أن يقترفوه! وأجهدوا أنفسهم أن يوائموا بين عدل الله — اذ لا يجوز

لهم أن ينسبوا اليه الظلم — وبين ما يقع في هذا العالم من شر ،
وكانوا في ذلك فريقين : فريق رأى أن ما وقع لهذا العبد
واخوانه لا بد أن يكون سببه ما هم فيه من كفروا ارتكبوه
من ذنوب ، وأنهم لو آمنوا إيماناً صحيحاً ما حل بهم هذا
العذاب ، فإن الله أدرى بذنوب الناس لا يعلمها إلا هو ،
فاذا حل بأحد عذاب وهو برىء فإن براءته لا تكون إلا
لجهلنا بذنوبه ، وإن القول بغير ذلك كفر بالله وزينغ عن
التنزيه الواجب له ، أو ليس في ما حدث لهم ما يدل على
ذلك . أيسطيع أحد منهم أن يفخر بإيمانه إيماناً حقاً وأنه
لم يرتكب اثماً ، ولو كانوا مبرئين من الذنوب ما عذبهم
الله بما هم فيه . إن الشر الذي يصيب الإنسان إنما هو
العقاب المعجل في هذه الحياة ، أما الذين يكفرون ويظلمون
ثم لا يصيبهم من ذلك أذى فأنهم إنما يؤجل لهم العذاب إلى
الآخرة ، إلا أن يكون الله قد تاب عليهم لخير عملوه لا نعرفه .
واستطاب أكثرهم هذا الرأي لما فيه من إيمان وتواضع
واعتراف بالخطيئة .

وفريق لم يستسغ شيئاً من هذا ، إذ كانوا يرون رأى
العين أن الظلم في هذه الحياة يقع على الأبرياء والمجرمين
على السواء . وكانوا يرون أنه من العبث أن نلتمس للمعذبين
ذنوباً لم يرتكبوها ، وللظالمين توبة لم يعرفوها . ثم تنسب
ذلك كله إلى الله ، فإن الذين يفعلون ذلك إنما يشككون
الناس في الله وفي الدين . ولم يقبلوا أن يكون قصاص الله

من الناس في هذه الحياة مقصورا على الضعفاء وأن يكون قصاصه من الأغنياء والأقوياء مؤجلا دائما الى اليوم الآخر . ولم يكونوا وحدهم حائرين في هذا الأمر بل ان الناس ما زالوا في حيرة حين يعرض لهم أمر الشر وعدل الله والتوفيق بين هذا وذاك .

ولم يجد حتى الحواريون حلا لما أشكل على المؤمنين منذ القدم ، وودوا لو وجدوا حلا لا يحتاج الى تأويل شديد ، ثم احتموا بالايان المطلق ، وبِعظم علم الله ، وعظم جهل الانسان ، ودعوا الله أن يقيض لهم من يدلهم على رأى يجمع بين عدل الله ووجود الشر وكيف يكون الخير كله من الله والشر كله من أنفسنا .

والواقع أن هذا الذى أشكل على الناس فهمه في كل عصر وفي كل مكان ليس بالأمر الذى يستحيل شرحه ، لولا ما في الناس من غرور ، وما في فهمهم لسنن الله في خلقه من قصور . وأصل الخطأ أننا خلقنا أولا ثم خلق العالم كله بعدنا ومن أجلنا . وكان قوانين حياتنا وجدت أولا ثم ركبت عليها قوانين الحيوان والنبات والجماد والنجوم لتتفق وقوانين الانسان . وقد علموا من الكتب المنزلة أن الانسان آخر ما خلق الله ، وهم يعلمون ان العالم يستطيع أن يقوم ويسير سيره الطبيعي ، خلق الانسان أم لم يخلق . الواقع أن الانسان حيوان خلقه الله من تراب ثم نفخ فيه ما جعله

انسانا ، ولم يكن هذا الذى تفخ فيه الا الضمير ، وهو من الله ، وهو الذى يميزنا من الحيوان ، وهو من طبيعة خلقنا ، لا يكون الانسان انسانا بدون . أما العقل والذكاء والنطق والمهارة فهى صفات كان يستطيعها الحيوان لو أنه بلغ درجة كافية من الرقى دون أن يصبح بذلك انسانا . ومن الناس من يدعى أن الضمير اختراع انساني ، وأنه ليس طبيعيا فينا لأن الحيوان لا يعرفه ، كأنهم يرون أن ما لم يكن من طبع الحيوان فهو اصطلاح اصطلاح عليه الناس . وهذا قول أحق ، لأن الضمير من طبع الانسان كما تكون الحركة من طبع الحيوان ، وليس للنبات أن يقول ان الحركة أو الخوف ليست طبيعية في الحيوان ، لأن النبات لا يعرفها . ان الانسان لا يكون انسانا بغير الضمير ، وهو الذى يضع لنا قوانيننا التى لا يعرفها الحيوان .

والذى يصيب الانسان من الشر نوعان ، نوع يأتيه من حيث هو حيوان ، كالمرض وما يصيبه من تعرضه لأحداث الطبيعة ، وهو فى هذا لا يختلف عن غيره فى شئ ، وليس ما يصيبنا من أذى بأكثر دلالة على الظلم من المرض يصيب الزهرة ، أو الداء يصيب الحيوان ، أو الصاعقة تصيب الشجرة ، أو الحجر يقع على حمامة وادعة . وليس هذا ظلما ينسب الى الله ، فان الله لم يجعل سننه الطبيعية متعلقة بما ينفع الانسان وحده فهى أعم من ذلك وليس لها

أن تتغير اذا حدث أن أصيب من جرائها من لا يستحق عقابا .
والنوع الآخر من الشر يصيب الانسان من عمل غيره من
البشر ، وهذا تركه الله لنا وجعلنا عنه مسئولين ، ولم يجعل
الضمير جدارا عاليا يمنع الانسان أن يتخطى حدوده ، ولم
يجعله نارا تحيط بنا فتحرق من يحاول أن يخرج وراءها ،
بل جعله هاديا ووعظنا أن تتبعه ، ولكنه لم يعلق على تخطى
حدوده عقابا محتوما ، ولا يمنع ذلك أنه من طبعنا . فالأخلاق
والدين والضمير منا بمنزلة الماء من السمك لا بد لنا منه
ولكننا نستطيع الخروج على الضمير كما تستطيع السمكة
أن تخرج على حد الماء ويصيبنا ما يصيبها ان خرجنا عليه .
والذين يظنون أن كل ذلك ليس من طبعنا وأنه من عمل
قوم منا همهم التضييق على حريتنا ، يخطئون فهم الكون
خطأ فاحشا ، كما يخطئ الحيوان البرى اذا ظن أن بقاء
السمك فى الماء خنق لحريته ونقص فى عقله لا أصل له من
طبيعته .

ولن يحدث أبدا أن يقع حجر رأسا على الأرض ثم
ينحرف عن طريقه لثلا يقع على رأس متعبد مؤمن أو طفل
برى ، لأن مثل هذا الانحراف عن سنن الطبيعة يقضى على
نظام العالم كله كما نعرفه . ولن يحدث أبدا أن يتمتع السيف
فى يد العملاق الظالم عن قطع يد المظلوم لبراءته ، ولن
يحدث أن يحق الله عمل عالم يقظ لظلمه ، أو أن يربى عمل

جاهل مكسال لبراءته . كل ذلك لا يتعلق بقدرة الله وعدله ،
فانه ليس بين هذه الأمور وبين عدل الله سبب ولو ساد
رأى الناس في عدل الله في هذه الأمور ما بقى على الأرض
من قانون طبيعي يسير عليه نظام السماء أو الأرض .

أما ما يصيب الناس من شر يجلبه بعضهم على بعض
فالمؤمنون يودون لو أن عقاب الشر يكون عاجلا ويكون
حتما حتى يؤمن الناس بالله وبالضمير . وهذا أيضا جهل
بسنة الله في الكون كما نعرفه . ذلك أن النتيجة لا تتبع
مقدماتها فورا وعلى طريق الحتم الا في القوانين الطبيعية التي
يخضع لها الجماد ، كانهدار الماء الى الغور من الأرض .
أما الكائنات الحية فهي أعقد من أن تظهر فيها نتائج المقدمات
لساعتها ، والحياة فيها مرونة وقدرة على التحول ، وفيها
تعقيد في قوانينها يجعل بين السبب والمسبب فرجة من
الوقت ، وقدرة على تجنب كثير من النتائج ، فلا تكون
الحتمية واضحة . وتزداد هذه الفرجة ما ارتفع الكائن الحي
في حيويته ، والفرجة في الحيوان أكثر منها في النبات ، وهي
في الانسان من حيث هو انسان واسعة جدا . كل ذلك
يجعل الربط بين الخير وجزائه والشر وعقابه بعيدا ، ولم يكن
لسنة الكون أن تجعله قريبا ، وأن تجعله حتما ، لأن تعقد
قوانين الحياة — وهو سر كونها حياة — لا يجعلها مطابقة
في هذا الشأن لقوانين الجماد . وهذه الفرجة بين السبب

والمسبب في الحياة الانسانية للانسان قد تجعل من الصعب
أن تتبين الجزاء في عمل الفرد ، ولكن البحث في أمور
الانسانية كلها لا يدع مجالا للشك في أن الذين يتبعون
الضمير يفشو فيهم الخير ، والذين يتعدون حدوده يفشو
فيهم الشر .

لهذا يجب أن لا يكون في وجود الشر والظلم في العالم
ما يقلق المؤمنين ، وليس في ذلك ما يدعو الى الشك في وجود
الله كما يظن الكافرون ، ولا ما يدعو الى الشك في قدرة الله
أو عدله وحكمته كما يخشى المؤمنون .

وبلغ الحواريون مآمنهم وفرغوا للعبادة والصلاة والدعاء
وما كان دعاؤهم الا توسلا لله أن لا يتركهم يضلون فهم من
الضلالة قاب قوسين . وأخذوا يضرعون الى الله .

اللهم انك أنعمت على الناس فوهبتهم الضمير وهو روح
منك ، وجعلت أمره أمرك ونهيه نهيك ، فمن أطاعه فقد أطاعك
ومن عصاه فقد عصاك . وتركت أمر اتباعه لنا ، فاجعل أعمالنا
في حدود هذا الضمير . اللهم لا تجمع علينا من أمور الدنيا
ما يحملنا على تعدى حدود الضمير . اللهم ألهم الناس أن
لا يهتدوا بغيره ، وأوزعهم أن لا يتغاضوا عنه لأمر مهما
يكن جللا ، وأن لا يقيموا أوثانا يعبدونها من دونه يحسبونها
خيرا ، فانه لا خير وراء الضمير . اللهم واهد الذين يتولون
أمور الناس الى أن لا يضعوا نظما تضطرهم الى تعدى

حدود الضمير ، وأن لا يوقعوا بغيرهم أذى عاجلا محققا في
سبيل ما يحسبونه خيرا آجلا ينفع الجماعة ، فإن هذا أصل
بلاء الناس ومصدر الشر فيهم . اللهم انك لم تجعل للضمير
قوة مادية تحمل الناس على اتباعه مرغبين ، فاجعل فيهم من
القوة الروحية ما يجعلهم يتبعونه مختارين راضين . ان هذا
يمحو الظلم ، ومحو الظلم والشر يقوى ايمان الناس ويهديهم
سواء السبيل . اللهم فاهد عبادك انهم يكادون يضلون ضلالا
لا رجعة فيه . انك أنت السميع المجيب .

فانجيلهم

كان البعض الروماني في اورشليم من الكفر يوش
 القيسر واسمهم بابا ، وكان على امره ان ياتي من شيرة رومان
 رومانية ليعلمهم انهم كانوا في اورشليم في ما يجب ان
 يكون عليه العبد الروماني ، وكان لا يرى شئ في الحياة
 رومانية من بعد

عند الرومان

وكان يرى ان العظة التي تلقاها الرومان في اورشليم
 في حينها في انجيلهم او غيره حارة في قلوبهم
 حتى كان يرميها في النار حارة حية وتكون من القسوس
 القديسين ، فكان عليه حريصة ان يسمع القسوس ، وحسبه
 ذلك انهم الاسرار فكان يلقى اعضاء من هرطقة كونه
 فيهم ويحذرهم ، ويستمع كلامهم فيقول لهم انهم
 ولم يكن ذلك يسوءه في نفسه ، ولكنه كان يرى ان القسوس
 القديسين انهم في اورشليم ، وكان يلقى في اورشليم
 الاسرار ، وكان يلقى في عيش ذلك عدد كثير ، وكان يرى ان
 القسوس ياتي الى اورشليم في كل سنة فيقولون انهم
 من ياتي الى اورشليم في كل سنة ، وكان يسمع ان القسوس
 في اورشليم ، وكان يسمع انهم في اورشليم ، وكان
 يسمع انهم في اورشليم ، وكان يسمع انهم في اورشليم

موتوا الضيق . وان لا يرفعوا ايديهم الى الله
فان هذا اصل
بلا الناس ومخلص البشر . اللهم انا نرجو ان تجعل قلوبهم
قوة مادية تجعل الناس على ايمانهم برفيقنا . فاجعل قلوبهم
القوة الروحية ما يجعلهم يتصوره معارفهم . ان هذا
يسخر الظلم ويضعو الظلم والشر قلوب ايمان الناس ويهدئهم
سواء النسيان . اللهم فاعمل عبادك انهم يكتفون بشفوق خلاص
لا راحة فيه . انك انت السميع العليم

ناله المنة

فائد حازم

كان الجيش الرومانى فى اورشليم من اكبر جيوش
القيصر واشدها بأسا ، وكان على امرته قائد من خيرة رجال
روما شجاعة وحزما . وكان له رأى معروف فى ما يجب أن
يكون عليه الجندى الرومانى . وكان لا يرى شيئا فى الحياة
أعز عليه من مجد روما وعزة أهلها .

وكان يرى أن العظمة التى بلغها الرومان لم يكن أصلها
قوة خاصة فى أجسامهم أو قدرة خارقة فى قواد جيوشهم
بل كان مرجعها الى ما جبلوا عليه وتعودوه من تقديس
للنظام ، فكان عليه حريصا أشد الحرص . وحمله
ذلك على الاسراف فكان يتلمس أخطاء من هم تحت امرته
كبيرهم وصغيرهم ، ويتتبع زلاتهم فينزل بهم أشد العقاب .
ولم يكن ذلك لقسوة فى طبعه ، ولكنه كان يرى أن قسوة
النظام أحفظ للجيش وأدعى لنصرته ، وأحقن للدماء فى آخر
الأمر ، ولو ظلم فى سبيل ذلك عدد قليل . وكان يرى أن
التهاون يؤدى الى الهزيمة فيقتل من الجنود عدد يزيد على
من يمكن أن يعذبهم النظام . وكان يعلم ان الجنود
لا يحبونه ، ولكنه كان يعتقد أنه يؤدى واجبه كاملا ، وكان
بذلك راضيا .

خطر له ذات يوم أن النظام بين جنوده لم يعد قويا كما يريد أن يكون ، ورأى أن شيئا من الفوضى أخذ يدب في صفوف الشباب من جنوده فمنهم نفر هموا أن يعصوا أمر كبارهم ، وأن يجادلوهم في صواب ما يؤمرون به ، ومنهم من كانوا غضابا لأنهم لم يعودوا يستمتعون بألوان اللذات التي كانوا يؤملون أن ينعموا بها والتي لم يحترفوا الجندية الا من أجلها . وهاله هذا الذي سمع ، وعزم أن يضرب لجنوده مثلا لا ينسونه أبدا ، مثلا يردهم الى الصواب فلا يجروا ن بعدد أن يناقشوه ما يعمل لخير روما ومجدها . وخيل اليه أن حياة الامبراطورية كلها معرضة للخطر اذا لانت شوكته أو ظهر في أعماله ضعف أو رحمة . ومثل هذا الرأي اذا تملك قائدا أو حاكما أو قاضيا ضاع صوابه وفقد اتزانه وأصبحت أعماله كلها مسرفة .

جاءوه بشاب يافع من أصغر جنوده سنا ، كان كل ذنبه أنه بقى خارج المعسكر بعد موعد العودة ليلا ، فلما سأله رئيسه عن سبب ذلك أعرض عنه وهز كتفيه ، فلما انتهره وأعاد عليه السؤال في غضب وشدة رد عليه هذا الجندى ردا مقذعا ، وكان ثملا . والجيوش تعد كل ذلك خروجا على النظام لاتستطيع أن تتهاون فيه . وعزم القائد على محاكمته في الصباح التالي وجمع أعوانه وبعض الجند ليشهدوا المحاكمة . وكان الأمر واضحا فقد اعترف الجندى بما اقترف ولم يكن له دفاع الا أنه كان ثملا . وسكت الحاضرون

انتظاراً لحكم القائد عليه ، وكان هذا الحكم أن يجلد
الجندي خمسين جلدة أمام اخوانه ، ودهش الحاضرون
لقسوة الحكم وامتنع لون الجندي المتهم ، ولم يكن في
الحاضرين من لم يتمتع لهذا الحكم . وهمس الجنود همسا
خفيفا دل القائد على أنهم غير راضين ، فزاده ذلك اصرارا ،
وعزم أن لا يجعل لغضبهم أثرا في تخفيف حكمه الصارم على
من يخالف النظام . ولم يرض عن الحكم الا الجلاد الذي
نيط به أن يجلد الجندي ، فقد أشرق وجهه وتهلل .

ومد الجندي وربط بحبل ، ونزلت عليه الضربة الأولى ،
وسال الدم تحتها وصرخ صرخة اضطرب لها القائد نفسه ،
ولكنه لم يفكر في العدول عن هذا الحكم فان تاريخ
الجندي ، وتاريخ روما ، وتاريخه هو ، معلق على ثباته في
هذا الموقف ونسيانه كل عاطفة انسانية .

واستمر الضرب حتى خفت صوت الجندي المضروب ،
وحسب الناس أنه قد مات ، والجلاد يقوم عليه لا ينقصه
واحدة ولا يخطيء العد حتى أتمها خمسين جلدة ، ثم حمله
رفاقه الى حجرة دافئة وحملوا اليه نبيذا وشرابا ساخنا
وتعهدوه وهو في حال بين الحياة والموت .

وأقبل عليهم الجلاد غير آسف ولا نادم على ما فعل ،
وتلقوه غاضبين ساخطين ، وقالوا له كنت تستطيع أن تكون
أقل قسوة وعنفا ، انك كنت أقسى من القائد نفسه ، فقد
كان على وجهه من مظنة الرأفة ما لم يكن على وجهك ،

وماذا كنت فاعلا لو مات بين يديك اذا لقطعنك اربا اربا .
— كنت أظن أول الأمر أن الضرب سيقتل منهم كثيرين ،
ثم امتدت بى الخبرة وضربت المئات فلم يمت منهم أحد .

— وهل أمنت أن يقتلك أحدهم بعد ذلك .

— انهم خير أصدقائى ، وأنا أحب الناس اليهم ، ذلك
أنهم جميعا يبلغون غاية المجد بعد هذا الجلد ، فهو الذى
يجعلهم أبطالاً ، أليس من أكبر صفات البطل الفاتح أن يكون
قادرا على ظلم الناس ظلما لا سبب له ، وأن يقتك بهم عن
غل وحقد وهو لا يعرفهم ولا يعرفونه ، وليس بينهم وبينه
عداوة ، وليس شئ أدعى الى تقوية هذا الشعور من أن
يظلم الناس فى أول حياتهم ظلما شديدا لا مسوغ له . وأكثر
أبطال الجنود الرومان فى ظهورهم أثر الجلد . والمظلومون
لا يمتقون الظلم ولا يحققون على الظالمين بل يشعرون بالرغبة
فى ظلم غيرهم وإيقاع الأذى بالأبرياء انتقاما لما حدث لهم
من قبل . هذه خير صفات الجندى الفاتح ، أو على الأقل
هذا ما أعلمه عن الجنود الرومان ، كأنهم حين يقع عليهم
الظلم يستبدلون طبيعة الحيوان المفترس بطبيعة الانسان
العاقل ، وهذه خير مرانة على البطولة كما يفهمها القواد
الفاتحون . وسترون أن ضحية الظلم هذا سيكون عما قريب
مضرب الأمثال فى الشجاعة والعظمة .

الخنائ

سارت الأمور في المعسكر الروماني على هذا النحو
زمننا ، وأصاب القائد الحازم من النجاح ما أثلج صدره
وأرضى أولياء الأمر في روما . وأخذ القائد يمني نفسه أنه
قد يبلغ الصدارة في المدينة العتيقة جزاء على ما بذل من جهد
وما أبدى من قوة وصرامة . ثم أنمى إليه أن في جنده عصابة
من الشباب لا يخالفون النظام ولكنهم يهزءون به وأنهم
يتبعونه مكرهين ، وأنهم يجترئون على مجد روما ويتحدثون
عنه في كثير من السخرية ، وأنهم يبشون الدعوة الى السلام ،
وأنهم يقولون أن الجندي يجب عليه أن يفهم ما يؤمر به وأن
يناقش فيه وأن لا يطيع الا ما يعتقدده صوابا . فأخفظه ذلك
عليهم وحنق حنقا شديدا ، وخيل إليه أن في ذلك قضاء على
روح العسكرية الطامحة ، وأن آراء من هذا الطراز لا تلبث
أن تؤدي الى الهزيمة ، وأن ذلك قد يفوت عليه مكان
القنصل في روما . وعزم أن يجعل لكل ذلك حدا .

رأى أن كثيرا من هذا الفساد يرجع الى بعد عهد جنده
بالمقاتل واخلادهم الى الدعة والراحة ، وأن خير ما يعمله
إذا أراد أن تعود اليهم حميتهم أن يرمى بهم في حرب مأمونة
العاقبة مكفول لهم فيها النصر . فأعلن في الجيش أنهم سائرون

الى احدى المدن المتاخمة لفتحها ، والتمس لذلك عذرا تافها ،
أن أحدا من أهلها سب القيصر في سوق المدينة ، وأنه لا بد
من تأديبهم حتى لا يقع منهم شيء من ذلك مستقبلا . ولم
يصدق أحد أن ذلك يكون سببا حقا لاعلان حرب ، ولكنهم
فرحوا بها ، وقليل منهم من فرح بها لأنه يرى فيها فرصة
يظهر فيها الفضائل التي ما فتى الرؤساء يحدثونهم عنها ،
أما أكثرهم فكان اغتباطهم لما يرجونه عند فتح المدينة ونهبها
من الغنائم والنساء ، فهم يعلمون أن المدينة المفتوحة تظل
نهباً لهم أياما معدودات ثم تصبح آمنة فيحاسبون على
ما يرتكبون . وفرح كبار الضباط لما كانوا يعلمون من أن
طول عهد الجنود بالسلم يفسد خصالهم ، ويهيئ لهم من
أسباب الضرر والسأم ما قد يدعو الى انتقاضهم عليهم ،
ولما كانوا يرجون من مجد حين يتم لهم النصر .

أعد القائد جيشه خير اعداد ، ونادى في الجند أن ساعة
المجد قد حانت وأن عليهم أن يسيروا يومهم هذا الى تلك
القرية الجاهلة ليقتصوا من أهلها وليعلموهم كيف يوقرون
روما الخالدة ويجلوونها .

ووقف فيهم خطيبا ، فألقى عليهم كلمة قال مثلها قبله
كل من دعا الناس الى حرب أو حملهم على عدوان ، وكلهم
يحسب نفسه مبتكرا لها مبدعا فيها .

— ان روما تنتظر من كل رجل من أبنائها أن يقوم

بواجبه ، ولا شك أنكم قائمون بهذا الواجب نحو
وطنكم الذى أظلتكم سماؤه وحملتكم أرضه ، ذلك الوطن
الذى تغذيها بناتج أرضه وارتوينا بماء أنهاره . ان علينا أن
نحميه من كل من يجترى عليه بالقول أو العمل ، فاننا بذلك
نحمى آباءنا وأمهاتنا ونساءنا وأبنائنا ، نحميهم ونجعلهم
كراما على أنفسهم أعزة على الناس . سيقتل منكم فى الميدان
عدد وسيبيكم أهلهم ، ولكن ميدان الشرف هو ميدان
الخلود ، واذا كانت الأمهات لا تفهم ذلك فانهن نساء وأنتم
رجال تضعون المجد فوق الحياة . ألا أن الجبن مسبة
للرجال تلصق بهم فتعرضهم لاحتقار الناس جميعا ، والحرب
تخلق فضائل الشجاعة والتضحية والولاء والأخوة بين الجنود ،
أما الدعة والسلم فيذهبان بالرجولية ، والرجل لا يكون رجلا
حتى يرمى بنفسه فى حومة الوغى ، فان مات فتلك غاية
الفضيلة ، وان عاش فهو البطل المغوار . وستحيا أمتكم
بموتكم وسيقرر مصيرها عدة قرون بما تعملون اليوم فى
ميدان القتال . فلا تنكسوا على أعقابكم ، ولا تجلبوا عليكم
وعلى أمتكم عار الهزيمة . اننا نموت ليعيش أبنائنا سعداء
ولتصبح روما سيدة العالم ، فاضربوا أهل المدينة الغاشمة
ضربة لا يستطيع بعدها أحفادهم أن ينظروا الى أحد من
أهل روما دون أن ترتعد فرائصهم .

واندفع فى حماسه يتكلم عن المجد والتضحية والرجولية

والشجاعة ، وظن كما يظن كل من وقف موقفه أن قوله هذا سيكون الدافع الأكبر للجنود على القتال ، وأن كلماته ستعمل فيهم عمل السحر فتحملهم على أن يستيتوا في الجهاد ، وأن جنده سيحفظون خطبته عن ظهر قلب ، وأنهم سيذكرونها حين تنهل الرماح من دمهم ، وأنهم عند ذكرهم أياها سيرتخصون الموت ، وأنه لولاها ما حمل أحد منهم سيفا لقتال ولا تعرض أحد منهم للموت .

لكن الواقع أن الجند ضجروا من هذا الكلام وسئموه ، وبدأ ذلك السأم فيهم فأخذوا يتهامسون ، ثم زاد هرجهم كأنهم يهمون بالسير ، وهو يحسب ذلك من فرط الحماسة التي أذكها في قلوبهم خطبته البليغة ، فصرفهم وهو مؤمن أن النصر سيكون حليفه وأن مستقبله سيكون باهرا حين تعلم روما بهذه الحرب الخاطفة وانتصاره فيها .

أما العصبة الثائرة وكان عددهم قليلا جدا فقد ساروا جنبا الى جنب يسخرون من هذا الذي قيل لهم ، ولم يكونوا فاقمين على القائد ولا كارهين له ، بل كانوا يضحكون ويمرحون وهم يتبادلون الحديث .

— منطق معكوس هذا الذي يجذب به الحرب . اننا لا نموت فيها ليعيش أبنائنا سعداء ، انما يرمى هو وأمثاله بنا نحن أبناءهم ليستمتعوا هم بالحياة الرغيدة ولذاتها بعد أن يوارونا التراب ، ولا يكلفهم ذلك الا قليلا من الدموع يسكبونها أياما قليلة عند ذكرهم من مات منا .

وقال آخر

— وأعجب من ذلك قوله ان الحرب تخلق في المحاربين الفضائل كلها . ألم يسأل نفسه في من تخلق هذه الفضائل ، أفى الذين يموتون ، أترأه سأل أحد الذين ماتوا في الحرب ، هل حقا تكونت فيه أخلاق الأبطال ، أم تتكون هذه الفضائل في الذين لا يموتون ، أليس معنى ذلك أننا نقتل أشجع الناس لنخلق الشجاعة في من تنقصهم هذه الفضيلة . انما تخلق الحرب شجاعة زائفة فيه وفي أمثاله ممن هم أبعد الناس عن التعرض لأخطارها ، فهم يشجعون ولكن بدمائنا ، ويضحون ولكن بحياتنا ، ويقال عنهم ان فيهم شجاعة وتضحية . ولا يضحكنى شيء مثل الاعجاب بشجاعة الرجل يأمر جنوده أن يقاتلوا حتى يموت آخر رجل منهم ، وهو أمر لا يحتاج من الشجاعة الا الى القدر الذى يتبدل فيه احساس القائد حتى تبلغ قسوته أقصاها فلا يرحم أحدا من رجاله ، وأكثر هؤلاء ينجون في آخر الأمر ، وهم حين يؤسرون يكرمهم زملاؤهم الفاتحون على حين لا يكرم أحد من الجنود القتلى . ان فى الجنود فضائل سامية ولكنها لا ترجع الى الجندية . كما يكون فى الفلاحين صفات فنية ولا يكون ذلك راجعا الى فلاحه الأرض .

وقال آخر

— واذا كان يرى أن قتل المئات منا ضرورى لمجد روما فلم لا يكون هو أول من يموت ، أيقبل أن تتركه

للأعداء يرشقونه بسهامهم فيموت وحده قبل أن يموت منا
المئات ، اننا نقسم مؤكدين له أنه لو فعل لقاتلنا قتال الأسود
من بعده ، ولو أن الذى يعلن حربا على قوم آمنين يكون
على يقين أنه سيموت لساعته من جراء هذه الحرب ما أعلن
أحد حربا أبدا ثم ان الحروب تقوم اثر خطأ يرتكبه رجال
الحكم . وليس من العدل أن يموت الأبرياء والعلماء وأصحاب
الرأى الراجح وكل ذى كفاية فى شتى نواحي الحياة فى
الأمة لخطأ يرتكبه زعيم سياسى ، ثم لا يصيب هذا الزعيم
شر من جراء خطئه . ان الذى يسوق قومه الى الحرب مقامر
حقير يقذف بالناس الى الموت وهو عالم أنهم ان اتصروا
فالغنم له وان خذلوا فهو بمنجاة من كل عقاب . لتقم الحروب
اذا شئتم ولكنها يجب أن تبدأ بقتل من يدعون إليها .

— ويدهشنى قول الذين يرون أن الحرب تخافق
الفضائل فى الجماعة . وهو قول لا يستقيم عقلا . ان الجماعة
فى هذا الشأن فكرة تصورية لا حقيقة واقعة ، فالفضائل
لا تكون الا فى الأفراد . والحروب تقتل أكثر الأفراد شجاعة
وتضحية وتترك غيرهم ينعمون بالحياة دونهم .

— ويقولون ان الأمم لا بد لحياتها من المجد الذى
تحرزه من جراء النصر ، أكذوبة جوفاء . وخرافة المجد
هذه يجب أن يقضى عليها قضاء تاما . واذا كان فى النصر
مجد فلا بد أن يكون فى الهزيمة خزي . وأى الأمم دام لها

النصر والمجد . واذا كانت الأيام دولا ، وكانت الأمم
معرضة للنصر حيناً وللهزيمة أحياناً ، فماذا يفيدها أن تحرز
المجد يوماً وتتعرض للخزى أياماً .

الا انه ليس في النصر مجد ، ولا في الهزيمة خزي .
انما هي تخرصات اخترعها ذوو الأغراض ، وشجع على
بقائها ضعاف العقول .

ثم ان هذا المجد انما يتشدد به الأحياء الذين لم يكن
لهم أثر فيه ، أما الموتى الذين أقاموه فلا يتحدثون عن
شجاعتهم وتضحيتهم . قسمة ضيزى بين الأحياء والشهداء .

وقال آخر

— ان نظرية الحروب تقوم على أن رجلاً أو بضعة
رجال أعز على الأمة من آلاف الجنود ، وقد يقبل ذلك حين
يكون الجنود نكرات لا قيمة لهم ، أما اذا أصبح الجنود
قوما يفقهون فماذا يمنعهم أن يناقشوا في أمر الحروب .
وكيف يقبلون أن يموتوا من أجل رأى رآه رجل لم يعد
أعظم منهم الى حد أن يسوقهم الى الموت وهم صاغرون .
ان الجندي المثقف يجب أن لا يكون لقائده عليه هذا السلطان
ويجب أن يكون له الحق اذا أمره قائده أن يتقدم ، أن
يقول له : لماذا أتقدم ، عند ذلك تنهار أكذوبة الحرب انهاراً
تاماً .

— كل هذا صحيح اذا كانت الحرب حربا عدوانية كالتي
نسير اليها اليوم . أما الحرب في سبيل الدفاع عن النفس
فواجب لا شك فيه . وقد يكون الهجوم خير وسيلة للدفاع .
— هذا ما يقوله كل معتد ، وحد الاعتداء عندي أن
يوجد الجندي خارج حدود بلاده ، فمن وجد خارج حدود
بلاده فهو المعتدى مهما يكن سبب هذا الخروج .

— ان أولى الأمر والقواد يعلمون أن عليهم أن يخدعوا
قومهم فيصورون لهم الاعتداء دفاعا وهي خدعة طال عليها
الأمد ولا يجوز أن يخدع بها أحد بعد اليوم . ومما يخدعون
به الجند دعواهم أن للحرب قوانين تخفف من ويلاتها وتذهب
بأكثر فظائعها وعندي أن الحرب يجب أن لا يكون لها الا
قانون واحد هو أن كل من خرج من بلاده ليحارب قوما
آمنين في ديارهم فهو المعتدى ويحل لهؤلاء أن لا يرعوا فيه
قانونا ولا عهدا وأن لا تأخذهم فيه رافة ولا رحمة . وليس
له أن يطلب اليهم ذلك ما دام قد خرج من بلاده ليقتلهم
ويؤذيهم .

— لو أن الأمم كلها أخذت بهذه الآراء لكان في ذلك
القضاء على الحروب وأهوالها ولكن من الخطر أن تأخذ
بها أمة واحدة فتكون هي وجدها ضحية هذه الآراء .
— لمثل هذه المبادئ قوة تؤدي الى ذبوعها فلا تلبث
أن تعم جميع الأمم اذا أخذت بها أمة واحدة .

بهذا كان يتحدث الجندي المسيحي ورفاقه أما الجنود الآخرون فكانوا فرحين بهذه الحرب الجديدة وكانوا يمنون النفس بالانتصار والنهب والغنائم والأسرى .

وبلغ الجيش أسوار المدينة وأحاط بها ، وأخذ الجنود الرومان يحاولون أن يتسلقوا أسوارها فوقع منهم من وقع ومات منهم خلق كثير ، فارتدوا عنها أياما ، ثم عاودوا الكرة فباءوا بالخيبة ، ووقع لهم ذلك مرارا فعلموا أنها لن تؤخذ عنوة وأنه لا بد من حصارها حتى تنفذ مؤونة أهلها فيذعنوا .

وأرسلوا جنودا يستطلعون الأسوار حتى لا تكون فيها ثغرة يدخل منها المدد الى المدينة من حيث لا يعلمون . ولما اطمأنوا الى ذلك أخذوا يعدون عدتهم لحصار طويل الأمد . وقام منهم عسس يسير كل ليلة حول الأسوار حتى لا يفتهم العدو وهم غافلون .

وكان وراء المدينة جبل يحميها من جهة واحدة ، وكانت فيه ثغرة تصل الى داخل المدينة ، يسدونها بالحجارة فلا يستطيع العدو أن يتبينها الا أن يدلهم عليها دليل . وكان المدد يأتيهم عن طريق هذه الثغرة ، وكانوا يعلمون أن لا صبر لهم على حصار طويل ما لم يأتيهم المدد الكثير ، كما كانوا يعلمون أن هذه الثغرة طريقهم الوحيد ، فحرصوا أشد الحرص أن لا يطلع عليها أحد من أعدائهم ، وكانوا يشنون جنودهم ليلة المدد حتى لا يقربها أحد من عسس الرومان .

وحدث ذات ليلة أن أقبلت غير تحمل ميرة كثيرة وأناخت بجانب تلك الثغرة ، وأخذ أهل المدينة ينقلون ما حملته اليهم وهم آمنون ، اذ كانوا قد عهدوا الى بعض جندهم أن يحولوا بين الجنود الرومان وبين هذه الثغرة لا يقربونها . ثم حدث أن كان العسس الرومان في تلك الليلة ثلاثة ، أحدهم ذلك الجندي المسيحي ، وكانوا يسيرون حول الأسوار على عادتهم كل ليلة ولم يعترض سيرهم أحد ، ثم ما لبثوا أن شاهدوا العير أمام الثغرة وعلموا أن المدد يأتى المدينة من هذا المكان . وقلقوا راجعين مسرعين ليخبروا جيشهم بما رأوا ، وأبصرهم عسس العدو فجروا وراءهم وأدركوهم ، وكان حتما أن ينشب بينهم قتال عنيف فقد كان المدافعون يعلمون أن الجيش الرومانى اذا علم بأمر هذه الثغرة فلا بد من أن تسقط مدينتهم بعد حصار قصير ، واستماتوا في الحيلولة بين هؤلاء الجنود وبين الجيش الرومانى ، وقتل اثنان من الرومان واثنان من المدافعين ، وجرح أحد المدافعين جرحا بالغا ، ولم يصب الجندي المسيحي بسوء . ولو أنه سارع الى اللحاق بجيشه وأخبرهم خبر هذه الطريق الخفية الى المدينة لأصبح من أبطال روما ، ولتم لقومه النصر ، ولكان له في ذلك مجد كبير .

لكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، بل وقف على رأس هذا الجريح وكان الناس يعلمون أن الرومان لا تأخذهم بالعدو

رأفة ولا رحمة ، ولم يشك هذا الجريح أن عدوه سيذبحه
ذبحا ، فلما رآه يحنو عليه يسأله عما أصابه اطمأن اليه
وقال له .

— ماذا تريد أن تفعل بى ، أترأى عزمت أن تحز رأسى
فتحملة الى قومك دليلا على شجاعتك .

— لم يخطر لى ذلك ببال ، بل انى أود لو علمت ما تريد ،
فقد أستطيع أن أخفف عنك بعض ما بك .

— كل ما أرجوه أن تتركنى وشأنى فان ورائى أما
وزوجة وبنات ، هن فى حاجة الى لأعولهن .

— ولكنك ميت لا محالة اذا بقيت فى هذا المكان ولن
تستطيع اللحاق برفاقتك ، فقد كسرت ساقك وسينزف الدم
من جرحك حتى يقضى عليك .

— وما حيلتى فى ذلك

— سأحملك الى قومك يتولون أمرك ، فهم قريبون ،
ولا أستطيع أن أحملك الى جيشى فهو بعيد .

— هذا كرم لم نسمع بمثله من قبل ، أيمكن أن يكون
فى جنود الرومان هذه المروءة وقد ذاع أمر قسوتهم البالغة
على الأعداء .

— ان كنت تعده كرما ومروءة فذلك شأنك ، أما الذى
أعلمه فهو أنى فاعل ذلك بك .

— ألا تخشى أن يصيبك قومى بسوء ، فان عودتك

الى قومك تؤدى من غير شك الى فتح المدينة وقتل رجالها
وسبى نساءها . وقد لا يسمح لك قومي بالعودة ، وأنت
الآن حر طليق ، فماذا يدفعك أن تتعرض للأسر ببعض
أرادتك .

— ان يفعلوا بى ذلك جزاء على ما سأفعله من أجلك
فلن يكون ذلك خطأ منى .

وحمل الجريح الى قومه وأنبأهم نبأه وأعانهم على العناية
به . وعجب أهل المدينة اذ رأوا جنديا رومانيا يحمل اليهم
جريحا منهم ، وأخذوا يتداولون بينهم ما يفعلون بهذا
الجندي العجيب .

قال قائل منهم

اننا لانستطيع أن ندعه يعود الى جيشه بعد أن اطلع
على ما علم من أمرنا ، تلك حيلة بارعة استطاع بها أن يعرف
عنا كل ما يهمه ويهم جيشه أن يعرفه ، فان خدعكم بهذا
المعروف وتركتموه يعود الى قومه فسيعود اليكم على رأس
جيش فاتح ، يعمل فيكم السيف كما يشاء جزاء على ما فرطتم
فى شأنه ، وليس عجبا أن يخدعكم جندي روماني هذه
الخدعة فى سبيل بلوغه مراتب الأبطال الفاتحين .

وقال آخر

— ما كان أغناه عن حمل جريحنا الينا لو أنه أراد
التجسس لقومه ، فقد كان يعلم كل ما يريد أن يعلم حين

اختار أن يأتي إلينا بجريحنا ، وإن من أكبر الجرائم أن نجزي
الاحسان الواضح بغير الاحسان .

ولما عزموا أن يتركوه وشأنه جاءوا به وقالوا له اننا
سنتركك وشأنك ، تذهب إلى قومك ، ونحن نعلم أنك
تستطيع أن تعين جيشك على فتح المدينة ، وأن عوامل الطمع
أو الخوف قد تدفعك إلى ذلك ، على أنك إن تفعل تكن
جزيت احساننا إليك بسوء ، ونحن لا نريد أن نجزي
احسانك إلينا بسوء .

ولما تركهم أحس أنه سعيد بما فعل ، فإن أول تجربة
له في عمل الخير لوجه الله آتته خيرا كثيرا ، واطمأن قلبه
إلى الايمان بما كان يسمعه ويعيه حين أقام بين الحواريين .
ونسى شيئا واحدا هو أنه إنما فعل ذلك تحديا للشر ،
وأن الخير الذي فعل وإن كان عظيما لم يكن طبيعيا بل هو
مقصود مصطنع ، كأنه نوع من المرونة الخلقية كما تكون
المرونة الجسمية عند الذين يستعدون للنزال . وأن عمله هذا
ليس أجمل أنواع الخير بل أجمله ما كان الدافع إليه طبيعيا .
واستعصى على الفاتحين أن يأخذوا المدينة عنوة ، وطال
حصارها ، فسعت الرسل بين الفريقين وتصالحوا على
ما يضمنون كرامة المدافعين والمهاجمين ، وتعاهد الجيشان على
أن يحمي أهل المدينة مؤخرة الرومان حين يرتدون عنها ،
وعلى أن يقدموا لهم الهدايا ، وأن لا يظاهروا عليهم عدوا ،

ولا يخذلوا لهم حليفا . وعاد الرومان بصلح شريف ، الا أن قائدهم ثار ثورة عنيفة ، ولم يعجبه أن يرتد الرومان عن مدينة دون أن يبلغوا منها مأربا ، وأسف أشد الأسف على ما أصاب هيبة روما من هذا الذى عده هزيمة نكراء ، وزاد من حزنه أن المجد الذى كان يحلم به أصبح بعيد المنال .

ومرت الأيام ، وعادت الأمور بين المدينة وأورشليم الى حالها من قبل ، وكثر التزاور بين أهل البلدين واطمأن كل منهم الى حسن طوية الآخرين . وأخذ أهل المدينة يتحدثون الى أصدقائهم من بنى اسرائيل والرومان عن ذلك الجندى الرومانى العظيم الذى جمع بين فضيلة الرحمة والانسانية وفضيلة حفظ العهد والولاء ، وأخذوا يطنبون فى مدح الخلق الرومانى الذى يدعو أهله الى مثل هذه الفضائل ، وهم يحسبون أنهم يشيدون بذكر روما ويمجدون أهلها بهذا الحديث . وعجبوا أنهم لم يجدوا من أصدقائهم من الرومان من سمع بهذه المكرمة من قبل .

كان وقع ذلك على الرومان شديدا ، فانهم لم يروا فيه نبلا ولا كرامة ولا خيرا ، بل رأوا فيه خيانة للنظام وللوطن ، وعونا للأعداء ، وحرمانا للامة من نصر كان محققا ، لولا هذا الضعف الذى اعترى ذلك الجندى . ولم يعجبوا بهذه الانسانية فهم يرون أن رقة القلب أليق بالنساء منها بالجندى الرومانى . وجن جنون القائد الحازم حين علم

بالأمر تفصيلا ، ولم يكن عسيرا عليه أن يعرف الجندي الخائن الذي كان سببا في اخفاق جيش روما وضياع هيبتها ومجدها وضياع آماله في رياسة روما ، ولم يتردد لحظة فيما يجب عليه عمله ، اذ صمم على أن يعاقب هذا الجندي عقابا لم يسمع به أحد من العالمين .

وأخذ يجمع أدلة الاتهام حتى تجمع لديه منها ما لا يدع مجالا للشك في خيانة هذا الجندي خيانة صريحة لا تنفع فيها شفاعاة .

وكان يوم الجمعة هذا يوم المحاكمة .

وبات القائد ليلته مطمئنا الى أنه سيستأصل هذا الداء

حتى لا تنهار عظمة روما ومجدها . وأخذ يناجي نفسه

— ان النظام أجمل شيء في الحياة ، بل هو سر هذه الحياة ، ومن حسن حظي أني رب هذا النظام ولست عبدا له ، وهو الذي يجعلني أتحكم في الرجال ولم يجعلهم يتحكمون في ، وكان يصح أن أكون أنا ضحيته . ان النظام هو القوة التي تقهر أكبر الرجال ان كانوا تحت أمره . وترفع أصغر الرجال ان كانوا على رأسه ، وقد يسلب العدد من الرجال حياتهم وهم له خاضعون ، وهو مع ذلك شيء غامض لا يقوم الا على أساس ضعيف من الخوف . ومن السهل أن ينهار ، ولكنه حين ينهار يقوم على أنقاضه نظام آخر يتحكم في الناس تحكم النظام الأول . والناس مهما يكن مبلغهم من المدنية يفعلون ما تفعله القبائل البدوية بالهتها ، يعبدون

حيوانا بعينه يخشونه وترتعد فرائصهم لذكره ، ويقدمون له القربان والضحايا ، ثم يعدون له حفلا صاخبا يذبحونه فيه ويأكلونه ، ثم يعبدون حيوانا غيره يفعلون به وله ما فعلوا بالأول .

وقد يفعل الجنود بى وبأقرانى مثل هذا . فهم يخشون بأسى ويرهبوننى ما دمت أمثل النظام . ومن السهل عليهم — اذا شاءوا — أن يقتلونا ويذبحونا فى ثورة صاخبة ، غنا منهم أنهم بذلك يتخلصون من النظام حين يتخلصون من ممثليه ، ولكنهم بالطبع لا يلبثون الا قليلا ثم يقوم فيهم حكام غيرنا يسيرون فيهم سيرتنا ويظلمونهم كما نظلمهم ، ويعسف بهم النظام الجديد عسفا لا يقل عن ما عهدوه منا ، ولكنهم لا يقدرّون هذا عند ما ينتقمون منا ، وهم لا يعلمون أننا فريسة النظام لا مدبروه ، وأين لهم أن يعلموا أن خلاصهم منا لا يعنى خلاصهم من النظام ، وأن الذى يظلمهم انما هو النظام لا ممثلوه وأنه ليس لهم منه فكاك .

انى فى حيرة لا أدرى ما أفعل بالناس .

كنت أود أن أعاملهم بالعدل والرفقة أملا فى ان يدوم حكم النظام . ولكن الرحمة والقسوة كلاهما لا ينقذ النظام من ثورة الناس عليه . فالرحمة تغريهم به وبأهله فينقضون عليه بعد وقت قصير ويقع ذلك فى عهدى وأكون أنا أول الضحايا أما القسوة فانها تؤخر انتفاض الناس على النظام ، وقد طال

عهد قومى به حتى كادوا يثورون عليه . لذلك أرانى فى حاجة الى تأخير انتفاضهم عليه الى ما بعد عهدى وذلك لا يكون الا بمزيد من الارهاب . ان الارهاب يؤخر ثورة الناس على النظام وان كان يجعلها أمرا محتوما .

انى لا أجد من ذلك كله مخرجا . وليس لى الا أن أدع النظام يحمى نفسه بوسائله وخير وسائل حمايته القمع والعنف . ذلك لا يمنع الثورة عليه ولكنه يؤخرها الى ما بعد عهدى فيجنى شر عملى من يأتى بعدى حين أكون قد نجوت . أما الرحمة والعدل فانها تضعف من النظام وتقضى عليه فى أسرع وقت بل تقضى على ما هو أهم منه وهو مبدأ الرعب الذى لا يقوم بدونه نظام .

وليس لى أن أقف لأتدبر أمر النظام وأمرى ، فان الذى يسير على جبل مشدود بين جبلين فوق هوة عميقة لا يجوز له أن يقف ليتدبر أمر هذا الجبل والغرض من وضعه والضرورة التى تحمله على أن يسير عليه والمقصد من هذا السير ، كل ذلك خليك أن يؤدى به الى السقوط لو استباح لنفسه أن يفكر فيه . ومن المصلحين المفكرين من يظن أنه يجب أن يكون على رأس النظام مفكرون مصلحون ، وأن الرجل العظيم على رأس النظام خير من الرجل الحقير ، وأن عقل القائم بأمر النظام وحكمته يضمنان العدل والخير . وهو قول خطأ يليق برجال الفكر وحدهم . أما رجال الحكم فيعلمون ان النظام

قوة جبارة يخضع له القائمون به ولا يخضع هو لهم وأن قدرتهم على زيادة خيره وتجنب شره قليلة جدا . ألا ترى أنه اذا وقف رجلان أحدهما قزم والآخر عملاق على رأس جبل شاهق فان اشراف كل منهما على ما تحته يستوى واشراف الآخر . ان قدرة النظام على الخير أو الشر عظيمة جدا لا يغير منها شيئا ما في القائم بأمره من خير أو شر . لذلك كان الحكام الصالحون والفاسدون . والعادلون والظالمون سواء في آثار حكمهم ما دام النظام واحدا .

وما الذى يرغم هؤلاء الجنود الأشداء — وهم عديدون — أن يخضعوا لأمرى . انهم يخشوننى أشد من خشيتهم الموت . وكل منهم يفضل أن يرمى بنفسه أمام الخيل فتدوسه بسنابكها ، وأن يقف أمام القيلة فتقتله كما يقتل العصفور ، وأن يهجم على الرماح المشرعة فى صدره فيتلقاها بشجاعة عجيبة ، انه يفضل ذلك على أن يعصى لى أمرا . انما يحمله على ذلك أنه يفضل موتا محتملا على موت محقق ، فانى قاتله حتما اذا خالف أمرى — أو أمر النظام ، فانى والنظام فى هذا الشأن شئ واحد — أما اذا تقدم للقتال فقد يكون له أمل فى النجاة .

انما يدفع الجنود الى المخاطرة بحياتهم ظنهم أنهم قد ينجون من الموت فى الحرب ، وعلمهم أن النظام لن يسمح لأحد يخالفه أن ينجو من الموت . وكل منهم رأى قوما

يعودون من الحرب ، فهو يحسب أن سيكون من الناجين ،
وأن زملاءه هم الذين سيموتون ، على حين أن أحدا منهم لم
ير جنديا خالفني ونجا من الموت . فالجندى شجاعته جبن
وأنا أصورها له على أنها المجد كله ، واقدامه خوف وأنا
أصوره له على أنه بطولة وتضحية والنظام يؤكد له أنها
وطنية وكرامة ، وطاعته غباوة والنظام يصورها اخلاصا .
وهو الذى يدفع اخوانه الى الموت وأنا أصور له ذلك على
أنه أخوة وولاء . وأنا أزين له ذلك كله على أنه غاية المجد
والفخر ، وهو يعلم انى كاذب وان ادعى رياء أنه يؤمن بما
أقول ، وهو يعلم أنى لا أحمله على ذلك الا لأنى أضعه بين
أمرين ، اما التعرض للموت فى الميدان وهو أهون الأمرين ،
واما أن يقتل على يدي وهو الشر الذى لا مفر منه .

ونحن نقول للجنود ان الجبان الذى يفر من الموت مع
اخوانه فى الميدان يلقي الموت وحيدا معصوب العينين عند
الفجر ، وهو خداع لأن قتلنا للجبان ليس نتيجة طبيعية
للجبن ، بل هو من عمل النظام فهو عمل غير طبعى ولا يدل
على شيء .

انى معهم كصاحب العمل وعماله ، ما دام له عليهم حق
الطرد والحرمان من القوات ، فسلطانه عليهم لا حد له ولو
كانوا آلافا مؤلفة . أما اذا اتفقوا على أن يحرموه هذا
الحق وحده فان أكثر ظلمه لهم يصبح عليه مستحيلا ويبقى

من النظام ما هو ضرورى للعمل نفسه . كذلك الحال فى الجيوش ، لو أنها تألبت على قوادها فحرمتهم حق قتل من يرفض القتال لذهب أكثر ما فيها من الظلم ولما بقى من النظام الا ما هو ضرورى للدفاع عن النفس . عند ذلك لا يحارب الا من يريد الحرب عن اقتناع أو رغبة ، وقليل ما هم .

ان الذين يموتون فى الحرب من الجنود يزدون شأنى علوا وهم لا يعلمون على أحد ، ونحن نقول للجنود ان اسمهم يعيش بعد موتهم فى سبيل المجد ، ولا أعلم أن جنديا واحدا ذكر اسمه بعد موته ، أليس من تمام الخداع أن نكرم الجندى المجهول . هذه فكرة رائعة تمثل أكبر خدعة يضعها النظام أمام الناس لأن أحدا من الأحياء لن يضيره أن يرفع جندى مجهول بعد موته فوق الملوك والأمراء ، وهؤلاء لا يضيرهم أن يكرموا ميتا مجهولا ، ولعل الميت المجهول نفسه لا يعبأ كثيرا بهذا التكريم . أما الجنود الذين يعيشون فلا يكرمهم أحد ، وسواء أكانوا أصحاء أم عرجة مشوهين فانهم لا يعلمون على أحد بل يظلمون فى طبقتهم لا يرتفعون عنها . انما يتحدث عن مجد الحرب الأحياء وحدهم لأنهم لا يعينهم شئ من موت من يقتل من أقرانهم .

أما أنا والنظام فنظل الأعلين ، وأنا أعلو على جثث الموتى من الجنود ، وربما أزعجنى أحيانا أن أرتفع على جثث

آدميين قتلوا ليرفعوني ، ويساورني أحيانا شعور غريب ،
كأنني أريد أن أخفض من شأنى حتى لا تزكم ألقى رائحة
الموتى الذين أعلو فوقهم ، ثم لا ألبث أن أضحك من هذا
الشعور السخيف ، انى ان أفعل ذلك أعرض نفسى لأن
أكون جثة مثلهم يعلو غيرى عليها .

هذا هو النظام ، وأنا أول من يفيد منه ، فلاحافظ عليه
سواء أكان ظالما أم عادلا ، معقولا أم غير معقول ، وليمت من
يموت من جراء محافظتى عليه . ان النظام وحده هو الذى
يقتلهم ، وأنا وحدى الذى أرتفع به ، والذين يموتون هم
الذين يفضلون الموت الذى يسوقهم اليه النظام على أن
يعترضوه فيسحقهم سحقا . كل ذلك يرفع من شأنى ، الغرم
عليهم والذنب على النظام ، والمجد لى .

المحاكمة

بدأت في الصباح المبكر من يوم الجمعة . وجىء بالجنود يشهدونها حتى تكون لهم فيها عظة فلا يجرؤ أحد منهم بعد ذلك على أن يكون سببا في هزيمة جيش من جيوش روما القاهرة .

وجىء بالمتهم فأقبل رفاقه عليه قلقين واجمين ، يسألونه كيف سولت له نفسه أن يرتكب جرم خيانة الوطن وهو يعلم أنه ليس لها عقاب الا الموت . وقالوا انهم يعلمون ما في قائلهم من قسوة ، وأنه لا بد منزل به أقصى العقاب ، وانهم كانوا يريدون أن يغضبوا له ، ولكن عظم الذنب لم يدع لهم مجالا للدفاع عنه أو الغضب له .

وشهد المحاكمة رجل من أهل أثينا كان قد وعى الفلسفة اليونانية ثم تبين له أن فيها نقصا يرجع الى طبيعتها العقلية ، وضعفا يرجع الى وسيلتها المنطقية التي لا تعترف الا بما يقوم عليه برهان عقلي ، وسمع أن في الهند حكمة عالية ، وأن في فلسطين دينا قيما ، وأن في مصر نظاما محكما وعلماء غزيرا ، فرأى أن يرحل الى هذه الديار يتقصى أخبارها لعله يبلغ الحقيقة التي عجز عنها التفكير اليوناني . ولم يكن قد أدرك حقيقة هذا العجز ، اذ كان لا يزال على رأى الفلاسفة

من قومه أن الحقيقة شيء محدد يبلغه الباحث إذا علم كيف يبحث ، حتى إذا وجدها أصبحت يقينا لا يتطرق اليه الشك ، كأن الحقيقة شيء يبحث عنه الانسان كما يبحث عن الذهب ، فالانسان لا شأن له بماهية الذهب أو وجوده وانما عمله مقصور على البحث عنه واستخراجه ، وحسبوا أن موقفنا من الحقيقة يكون على هذا النحو .

وفاتهم أن ذلك قد يصدق على الحقيقة فيما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان . أما الحقيقة في ما يتعلق بالانسان فأمر معقد جدا لأن الانسان جزء لا يتجزأ من الحقيقة التي تتعلق به ، وهو عنصر ضرورى لتكوينها ولا يمكن بحثها بحثا موضوعيا مستقلا عنه ، فهو صانع هذه الحقيقة وباحث عنها . ولعل ذلك أكبر ما اعترض العقل الانسانى حين بحث عن الحقيقة في ما يتعلق بالأمور التي اختص بها وحده ، كالضمير والدين والخلق .

وكان ذلك الأثيني قد قدم أورشليم منذ مدة وأحاط علما بما يجرى فيها وعزم أن يشهد هذه المحاكمة ، كما عزم أن يذهب ظهرا الى قمة جبل «كالفارى» ليرى ما اعترم الرومان عمله تنفيذا لما أراد بنو اسرائيل بالنبي الجديد .

وجاء القائد وهو مطمئن الى ما سيعمله ، عازم عزمه لا رجعة فيه أن يقضى على الفتنة التي يمثلها هذا الجندى .

ووقف رجل الاتهام يقول

— كنت أود أن تغوص بى الأرض قبل أن أقف موقفى
هذا أتهم فيه جنديا رومانيا بالخيانة ، وكنت أفضل أن تحل
بروما أكبر النكبات ، وكنت أفضل أن تفقد روما نصف
دولتها ، على أن تقع بين جنودها فضيحة الخيانة للجيش
والوطن .

هذا الذى نحاكمه اليوم خان أمته وخان جيشه ، وكانت
حياته سببا فى هزيمة جيش كان خليقا أن ينتصر نصرا
مبيناً ، وكانت حياته سببا فى موت من مات منكم دون أن
تعوض روما عنهم نشوة النصر وعظمة المجد ، فكأنه قتل
بيده الذين قتلوا منكم ، وكأنه جرح بيده الذين جرحوا
منكم ، ولولا حياته ما مات منكم الا القليلون ولكتب لكم
النصر فلا تضيع دماء أبطالكم عبثا .

ولو أنه أحجم عن خطر فعرض جيشكم للهزيمة لكان
جزاؤه منا الاحتقار ، ولو أنه جبن فاستسلم لكان نصيبه
أن تنكره روما وينبذه أهلها ، ولو أنه أخطأ عفوا أو عن
جهل فحرمكم بخطئه النصر لكان علينا أن نلتمس له الرأفة ،
ولكنه خان عن عمد ، وعرض نفسه لخطر الموت فى سبيل
هذه الخيانة ، وأبدى شجاعة خارقة فى تنفيذها ، لذلك كان
أمره عندى عجبا ، وبذلت جهدى أن أتفهم كنه ما دفعه الى
هذا العمل العجيب .

سمعت منه أنه لا يؤمن بالحرب ولا يعترف بعظمة قيصر وأعوانه ، ولا يرى في النصر مجدا ولا فخرا ، وكأنه نسي أن تلك طبيعة البشر منذ خلق الناس ، وكأنه لا يعلم أن الناس يجب أن يغلب أقواهم أضعفهم ، وأن ذلك أمر لا بد منه . وسمعتة يقول ان الذين أمر بمحاربتهم ليسوا أعداء له ، فهو لا يعرفهم ولم يؤذوه في شيء ، وأن القتل لا يسوغه الا الدفاع المباشر عن النفس ، وأن ما يراه القواد سببا يجعل الجندي يقتل غيره ويقتله غيره لا يعد مسوغا لجريمة قتل الأبرياء ، الى غير ذلك من حديث الخرافات التي تدل على عقل مريض مضطرب ، كأنه يريد أن يغير من نظم العالم كله بفعلته هذه المنكرة . وليس من شك أن لوئته حملته على آراء لا يمكن أن تكون الا وسيلة لهدم النظام وتقويض أركان جيشكم ودولتكم . ولم أفهم كيف أصابته هذه اللوثة .

وما زلت أبحث عن سبب اضطرابه حتى علمت — ويا لهول ما علمت ! — أن سرخياته يرجع الى فتاة من بنى اسرائيل من أحط أهلها قدرا . وقع هذا الشاب في حبائلها فقادته الى قوم لا هم لهم الا أن يهدموا روما ويقوضوا أركان امبراطوريتها ، وفيهم من الدهاء ما لا يتسع له ذهن هذا الشاب المسكين ، فصوروا له الأمر على أنه دعوة الى السلام في العالم كله ، وزينوا له أن الناس لو

اعتنقوا مبادئ السلام والمحبة لعاشوا جميعا سعداء لا يبغى بعضهم على بعض ، ولم يقنعه بقولهم الا هذه المحتالة « دليلة » العصر الحاضر ، فقد أصبح عبدا طائعا لها ارضاء لأحط شهواته . ولذلك خانكم وخان قومه . عند ذلك علمت أنى سأخذه بأقصى الشدة فليس خطؤه مما يمكن أن يعتفر وهو خطأ يرجع الى آراء لو انتشرت لقضى علينا في أكثر بقاع الأرض ، فان سر نجاتنا يرجع الى الرعب الذي ألقيناه في قلوب الأمم ، والى الرهبة التي لنا في قلوب الناس ، ولو ضاعت هيبتنا لذبحنا عبيدنا ذبحا .

وأخذ يسرد على الحاضرين ما عمل هذا الجندي ، ولم يكن منهم من عرف الحقيقة كاملة ، ولم يكن منهم من أعدته نشأته أو تفكيره أو طبعه لفهم شيء من المبادئ التي ذكرها المتهم والتي تعلمها على يد الحواريين ، فلم يكونوا ليعلموا عنها شيئا ولم تحرك منهم ساكنا ، وعجبوا أن يكون في هذه المبادئ ما يحمل عاقلا على خيانة جيشه وحرمانه نصرا محققا ، واقتنع الحاضرون بعظم جرمه وأنه يستحق من العذاب أكبره .

وقال رجل الاتهام

— كنت قد عزمت أن لا أدعه يدافع عن نفسه فان في ذلك دفاعا عن الخيانة لا نسمح به ، ولكني بعد أن علمت من أمره ما علمت أرى أن دفاعه عن آرائه سيكون أكبر دليل على ذنبه ، فليتقدم للدفاع ان كان له دفاع .

— انى لا أعلم أنى خنت أحدا من الناس ، فهل لكم أن تدلونى على رجل واحد خنته . تقولون انى خنت الذين ماتوا تحت أسوار المدينة عبثا ، ولكنى أعتقد أنه لو تم لنا النصر لكان موتهم عبثا أيضا ، فأى خير يجلبونه لنا ، انهم يجلبون لأنفسهم الموت ولأهلهم اليتيم والشكل وللأمين فى ديارهم موتا ویتما وثكلا ، ولا يفيد من ذلك أحد فى روما أو فى المدينة المهزومة الا نفر قليل من الذين لا يتعرضون لخطر ولا أذى بل ينعمون بعد ذلك بكل لذة ومتعة . وحتى المجد الذى يتحدثون عنه لا يصيبه الا قليل من الأحياء . ولو أن الموتى يصييون من هذا المجد وينعمون به لكان أمرهم مفهوما . أما أن يموت من يموت لينال المجد غيره من الأحياء فأمر لا أفهمه عقلا ولا أرتضيه نفسا .

— ألم أقل لكم انه أصابه نوع من الجنون جعله يهذى كما ترون . دعوه يتكلم حتى تتبينوا جنونه وحياته وأنه لم يرتكب ما ارتكب الا بعد تفكير طويل ونية مبيتة . يريد أن يغير نظام العالم فيجعلكم والعبيد الأذلاء سواء .

— انا والعبيد الأذلاء سواء فى العبودية لك ، أنت سيد العبيد تأخذ منهم حريتهم وعملهم . وأنت سيدنا تأخذ منا حياتنا وسعادة ذويتنا . ولا يقولن أحد ان علينا أن نستمع الى ساستنا وأولى الأمر منا فى شأن الحروب ، فانهم

أجهل الناس بما يعملون ، وهم ان صدقونا القول لا يريدون الحرب وانما تقع على الرغم منهم ، فوقع الحرب خطأ من الساسة وليس علينا أن ندفع بدمائنا ثمن أطماعهم وأخطائهم وسوء تدبيرهم وما في تفكيرهم من التواء وما في خلقهم من نقص وما في نفوسهم من أدواء نفسية . اننا لا نقبل منهم أن يدبروا لنا أموالنا دون رقيب . فكيف نقبل منهم أن يتحكموا في حياتنا دون رقيب ، أليس معنى ذلك أن الأحياء أشد حرصا على أموالهم منهم على حياة الأبطال الذين يموتون دفاعا عنهم . أليس من كبار القواد من يفخر بمهارته والنصر الذي يحرزه ، وتكون خطته قائمة على تضحية أكبر عدد من الرجال ، أليس منهم من ينال المجد بأنه قاتل الى آخر جندى من رجاله ويعد ذلك منه شجاعة ، وهو يعلم أنه انما يعلو بموت غيره ، ويوجد بأرواح من هم تحت امرته ، ويكاد يكون على يقين أنه لن يقتل حين يؤسر ، الا أن يغلبه الحياء أو الخوف آخر الأمر فينتحر .

أيها الاخوان انى لم أخنكم ولم أخن أحدا ، ولكنى خنت الظلم والعدوان واستغلال الأقوياء للضعفاء أمثالنا ليزيدوا قوتهم قوة وطغيانهم طغيانا . انى لم أوذ أحدا منكم ، ولكنى حرمتكم أن تقتلوا عددا أكبر من أهل المدينة الأبرياء الذين نصبتموهم لكم أعداء وأتتم لا تعلمون عنهم شيئا ، وحرمتهم أن يقتلوا منكم عددا أكبر ، وحرمت

قادتكم أن ينعموا بأكثر مما ينعمون به من قوة وسلطان عليكم ان كان هناك مزيد من ذلك ، ولا أرى في ذلك خيانة لأحد . ولم أحمل وزرا الا وزر عدم مساعدتهم على ظلم الأبرياء وظلمكم ، ابقاء على ما لهم من سلطان عليكم ، انى بذلك أخدمكم لأنى أخدم الانسانية كلها ، فلو أن كل جيش مهاجم باء بالخيبة لقضى على الحروب كلها من غير شك .

وتهامس الضباط أنه قال أكثر مما يجب ، وأن قوله قد يصيب هوى فى نفوس اخوانه ، ولكن القائد سمح له أن يستمر فى قوله ، قائلا لهم ان هذا القول قديم منذ قامت الحرب الأولى فى العالم ، قاله آلاف المفكرين من قبله ، وسيقوله عشرات الآلاف من المصلحين من بعده ، ولن يستمع الى ذلك أحد وان اقتنعوا به ، فان طبيعة الانسان وقوة النظام لن تجعل هذه الآراء مهما تكن قوتها تمنع حربا ، ولن تحمل جنديا على أن يفضل الموت المحقق خيانة على موت محتمل فى الميدان ، ان هذه الآراء لا تقف فى سبيل النظام وجبروته الا كما يقف الرجل أمام السيل الجارف الذى يقتلع الصخور والحجارة فان نصيبه الموت حتما مهما يكن فى موقفه من بطولة وتضحية .

— قد تقولون ان الحروب ستقع حتما وانه ما دام مثل هذا القول لا يمنعه فمن الخيانة أن نعمل بها ساعة القتال فهي آراء لا تنفع الناس الا اذا أدت الى منع الحروب ، أما

أن يكون كل أثرها أن تفت في عضد جيش واحد وهو يحارب فإن ضررها يكون محققا وخيرها محالا . ويكون النصر كله للمعتدين الظالمين . هذا قول حق ولكن ألا ترون أن الآراء والمبادئ على ضعفها لها قوة ليست للسيف وأنها وحدها تستطيع أن تغلب النظام القاهر الذي لا يقف في سبيله انسان . وأنا أقدم هذه الآراء بدءا للهجوم على النظم التي ضل بها الناس لعلها أن تتغلغل في نفوسهم وتؤتى ثمارها وقد لا يكون ذلك الا بعد ألف عام أو يزيد .

سيحدث حينذاك أن يبلغ الجندي من الرقى الفكرى ما يسمح له أن يعلم ما فى الحروب من خدعة الحاكمين للمحكومين ، وأن يتبين أن حياة كل فرد أكبر شأنا من أن تضحى لغرض تملونه عليه . سيحدث أن يقف شباب العالم كلهم كتلة واحدة ، يقولون لأولى الأمر ان لكم حدا لا تتعدونه ولا نطيعكم بعده وهو حد الحياة والموت ، ونطيعكم فى ما دون ذلك ، وليس لكم أن تقولوا انكم مخلصون ، وليس لكم أن تحتموا وراء المصلحة العامة والكرامة القومية والمجد ، وليس لكم أن تضحوا بأرواحنا فى سبيل آراء ترونها ، كلها جهل وخطأ ، ولو أنها كانت صوابا واضحا ما جاز لكم أن تبلغوا فى سبيل تحقيقها حد ازهاق أرواحنا .

سأذكر لكم أمورا ثلاثة يتحقق بها السلم — أن

لا تعلنوا حربا الا أن يؤخذ في أمرها رأى الجنود فهم الذين
سبقتلون ، وأن يقسم الجندي عند التحاقه بالجيش أن
لا يتعدى حدود بلاده لأى سبب كان ، وأن تحرموا على القادة
تحريرا باتا أن يتعرضوا لحياة الجندي الذى لا يرى أن
يحارب خارج بلاده . وان شئتم المزيد فلنعمل ما يعمل بعض
أهل البلاد البعيدة الذين يضعون من بيدهم اعلان الحرب
تحت قبة خاصة يتشاورون فاذا قرروا اعلان الحرب خدمة
للأمة هدموا عليهم القبة وساروا الى الحرب قائلين انها
خدمة للامة يجب أن يشترك فيها أولو الأمر والجنود سواء
يسواء . ولم تعلن فى تلك البلاد حرب منذ قرر أهلها هذا
القرار .

عند ذلك رأى القائد أنه قال أكثر مما ينبغى وأعلن أن
حياته أمر لم يعد فيه شك وأن الرأفة به أصبحت مما
لا يمكن التفكير فيه .

وكان رأى الحاضرين أن شيئا أصاب عقل هذا الجندي
الشاب ، وأنه لا سبيل لتحقيق آرائه هذه على ما فيها من
صدق واخلاص ، لأن الأعداء لم يتهيئوا بعد لقبولها ،
ورأوا أن من يتمسك بها يكون نصيبه أن يهلكه من حوله
من الأقوياء . واستعدوا جميعا لسماع الحكم عليه بالموت ،
ولكنهم أصابتهم صدمة عنيفة حين سمعوا الحكم فقد حدد
القائد طريقة الاعدام ، وهى أن تربط قدماء ويداه الى

أربعة من الخيل ويجره كل منها الى جهة ، فوجمت وجود
الحاضرين واقشعر جسم المحكوم عليه حتى كاد يسقط
على الأرض .

وأخذ الجلادون يعدون العدة لتنفيذ هذا العقاب ،
وجاء أربعة من الفرسان الأشداء ممن ذاع صيتهم وعرفت
بطولتهم وشجاعتهم وأخذوا يركضون حول الميدان حتى
تنشط خيلهم ، ثم وقفوا وسط الميدان وربطت ذراعا الرجل
وساقاه الى الخيل القوية ، ثم ألهبت السياط ظهورها
فاندفعت في قوة ، وبذلك تمزق جسم هذا الخائن وتناثرت
أعضاؤه وسقط جسمه على الأرض ، وكان لذلك كله
صوت فزع منه الحاضرون جميعا وأغمض بعضهم عينيه
خشية أن يرى ما حدث وكان من أشدهم جزعا القائد
الذى أمر بالقتل ، فقد علق بذهنه هذا الصوت وهذا
المنظر واضطرب له عقله فأصابه خبل خفيف زاد على مر
الأيام .

ورأى الناس كيف تكون عاقبة الخائن ، وعرفوا الفرق
بين البطولة والخيانة وبين الشجاعة والجبن وبين القوة
والضعف . عرفوا كل ذلك حين قارنوا بين هذا الخائن
الذى أصيب بمرض الضمير وبين هؤلاء الأبطال الأربعة
الذين قتلوه ممن تفخر بهم روما لما قتلوا من الأبرياء ولما
ألقوا من الرعب في قلوب أمم بأسرها .

وانصرف الناس كل الى عمله الذى تعودده كل يوم ،
ومنهم الغاضب والحائق ومنهم الراضى والمحبذ ، وكلهم
يتحدث عن ما وقع أمامهم فى يومهم هذا . ولكن ما لبثوا
أن اطمأنوا الى الحياة التى ألفوها من قبل فنسوا ذلك كله
وكانما لم يغير هذا الظلم الفادح من حياة أحد منهم شيئا .

أقبل بعض رفاق الجندى القليل ممن شاركوه فى أكثر
آرائه ، يجمعون أشلاءه من أنحاء الميدان الفسيح ، وأقبلت
الكلاب تحدها رائحة الدم المسفوك . وكادت تأكل من
هذه الجثة المقطعة لولا أن ردها هؤلاء الرفاق . فلما حيل
بينها وبين ما تأكله منها علا نباحها وهى تنصرف واستجاب
بعضها لنداءات الطبيعة المختلفة على مرأى من هؤلاء
الجنود فقال أحدهم :

— أياكون من الناس من لا يزيد مقتهم للظلم أو
حرصهم على العدل على ما تفهم هذه الكلاب . أياكون من
بين من شهدوا هذا القتل من يتمتع الآن ببلذاته كما تتمتع
هذه الكلاب . أياكون من غلبة القوم من لا يرى فى قتل
هذا الرجل البرىء شيئا أكثر مما تراه هذه الحيوانات
العجم . انه انما أطاع ضميره . فعمل خيرا . ولو عملنا
جميعا برأيه لقضى على الحروب ولعاش الناس آمنين . انه
رأى أن من لم يستطع منع القتال فعليه أن يعمل على أن
لا ينتصر فريق على الآخر . ان عمله لم يؤذ أحدا الا من

كانوا يحلمون بالنصر . وهؤلاء المنتصرون يعملون عمل
هذه الكلاب فتراهم يقومون على أشلاء الموتى الأبرياء
يمرحون وينعمون بشمرة النصر ونشوة النعيم . فهم وهذه
الكلاب الضارية سواء . أحق أن من أولى الأمر من يزين
للناس هذه الوحشية المنظمة فيقول لهم ان قتل رجل في
سبيل نصر جماعة أو مجد أمة أمر واجب تحتته النخوة
والشجاعة . انى لأرى أن قتل رجل واحد ظلما يعدل مجد
أمة بأسرها وعظمة امبراطورية بأجمعها ونعيم سراة الأرض
كلهم . ان الجماعة من عمل الانسان ولا ضمير لها . وهى دون
الفرد الذى هو من عمل الله وله ضمير يرفعه فوق المخلوقات
كلها . وتضحية الفرد فى سبيل الجماعة كفر بالله وسنته والنظام
الذى يدعو الى هذه التضحية شر لاشك فيه .

اصعدى روما على جثث الأبرياء من أبناءك وأبناء
غيرك . تمتعوا أيها الأحياء بشمات موت أبناءكم . وهنيئا
لكم النظام الذى أباح لأمثالكم أن تقتلوا مثل هذا الانسان
الظاهر . وكفاكم رياء ما تدعون من حزن على موتاكم
وعطف على جرحاكم . انما تقضون عليهم لتبقوا على
ما تتحقق به لذاتكم وتقوى به شهواتكم . وتدعون كذبا
أن ذلك خدمة للجماعة وما هو الا خدمة لكم . ألا ببس
ما تعملون فى سبيل خرافة المجد التى تدعون اليها .

بيلاتوس

كان بيلاتوس ، حاكم اقليم اورشليم في ذلك العصر ، رجلا فيه حكمة وسداد رأى . وكان قد ألم ببعض فلسفة اليونان فاستقام تفكيره ، واستمع الى أحبار بنى اسرائيل فطابت نفسه . واهتدى ببعض تعاليمهم فعرف طريق الخير والحق . واعتدل مزاجه فلم يشتط ولم يسرف على من ولى أمرهم من الرومان واليهود . ولكنه مع ذلك ظل متمسكا بما في خلق الرومان من صلابة وبأس ، فلم يكن ليلين حيث تحسن الشدة ، ولم يكن ليدع رقة قلبه تلهيه عن أخذ رعيته بالحزم حين لا يكون عن ذلك مناص . وكان في ذلك اليوم مرهق النفس بعد أن حمّله بنو اسرائيل على أن يستجيب الى ما طلبوه من قتل رجل لا يعلم عنه الا خيرا . وكان يعلم أنهم مخطئون وأنه مخطيء . ولكنه لم يكن يرى أن يعترض على رأى أقروه في أمر يخصهم وحدهم ، ولم يشأ أن يجعل لهم عليه سبيلا ينتقصون به على حكمه . ولم يكن يرى أن يدع حبه للعدل يعرض ولايته لفتنة يعود شرها عليه ، فاضطر أن يجيبهم الى ما طلبوه ، وهو عليهم ساخط ، ولم يكن عن نفسه راضيا ، وأقلقته الحرج الذى وقع فيه من جراء عنادهم وظلمهم ، وحنق عليهم حقا بالغا .

وكان بيلاتوس يقدر قائد جيشه حق قدره ، وكان يعجبه منه اخلاصه وحماسه في القيام بما يراه واجبا عليه . وكان يعلم أنه ضيق الفكر محدود الذكاء قليل الحظ من العلم ، وأنه لم يهذب طبعه أدب ولا فلسفة . ولم ينقص ذلك من تقديره اياه ، لأنه كان يعلم أن عظمة جيش الرومان لم تقم الا على ما في رجاله من صلابة وشدة وقوة ، ولعله كان يرى أن قدرا من العباوة وجفاء الطبع ضروري لنمو هذه الصفات ، وأن الذكاء والعلم ورقة النفس قد تذهب بخير صفات الجندي المقاتل .

جاءه رسول من المعسكر ينبئه بما تم في ذلك الصباح من محاكمة الخائن وقتله ، وقال له ان القائد عاد الى داره فاعترفته حمى عالية جعلته يهذى . وان كثيرين يظنون أن ما فعله بالجندي كان سببا في ما أصابه من حمى مخية ، وان كان بعضهم يقولون انه انما اعترته الحمى التي تعترى الجنود حين يقاتلون في المستنقعات وانه لاعلاقة لها بوخز ضميره أو اضطراب نفسه .

وبينا هو في قصره يفكر في أعباء الحاكمين وما تضطربهم اليه حياتهم من ظلم وقسوة اذ قدم عليه صديقه الفيلسوف اليوناني وأخذ يحدثه .

— أرايت ما فعله قائد جيشك اليوم . علم عن رجل من جنده خيانة فحاكمه وقتله . ولا يعني أن يكون حكمه خطأ

أو صوابا ، ولكنه اختار له قتلة شنيعة دلت على غلظة عجيبة وقسوة بالغة . وما كان أغناه عن ذلك لو أنه أوتى حظا من الفلسفة ، اذن لرق طبعه ، وتهذبت نفسه ، وأصاب القصد في عمله .

— دعنى من فلسفتك هذه ، فقد وقر في نفسى منذ اليوم أننا نحن رجال العمل لانجد فيها غناء حين يحز بنا أمر جليل . ان الفلسفة قائمة بذاتها شئ جميل . ولكننا حين يجد الجد لانجد فيها هداية ولا رشدًا ، واذا أراد رجل العمل أن يفيد من علم أهل الفكر قامت دون ذلك صعاب كثيرة أصلها ما لا بد منه من نقل لغة الفكر الى لغة العمل ؛ فان المطابقة بين الألفاظ ومدلولاتها في كل منها أمر عسير . ذلك أن الفلسفة تقوم على تعريف الأشياء وحكم الفلاسفة على الأشياء فرع من هذا التعريف . ولكن رجل العمل لا يدرى ما تعريف عمله قبل أن يقوم به . ولهذا أخفقت الفلسفة في هداية رجال الحكم الى الصواب ؛ فالشجاعة عندكم مثلا وسط بين التهور والجبين ، وهذا حق لامراء فيه ، ولكنى لا أدرى ولا يدرى قائد جيشى هل ما عمله كل منا في يومنا هذا يعد تهورا أو جبنا أو شجاعة . والفلسفة لاتدلنا على حقيقة ما نعمل ولا تهدينا يقينا الى التعريف الحق لما نعمل الا بعد أن يتم العمل ، وأكثر أحكامها على الأعمال تحليلية ، وعمل رجال الحكم بناء لا تحليل . لذلك كانت هدايتكم لنا ضئيلة جدا .

وليس رجال الدين بأهدى لنا منكم في حياة العمل . ان حديثهم عن الحق والباطل والخير والشر حديث بديع ما ظل حديثا وعقيدة وايمانا . حتى اذا حان وقت العمل صار كل ذلك غامضا مبهما . ألا ترى أن اليهود وهم أحرص الناس على اتباع تعاليم دينهم القيم يرون أن ايقاد شمعة يوم السبت ذنب كبير ، وأن صلب صاحب الدعوة الجديدة واجب يحتمه الاخلاص للدين والوطن ! ورجال الدين في نصحتهم لنا لا يفرقون بين المهم والأهم . والأمور عندهم حلال أو حرام . وليس في مبادئهم ما يساعدنا على الاختيار بين حلالين أو التفضيل بين أمرين كلاهما حرام حين لا يكون عن أحدهما مندوحة .

ان فضائلنا مدنية ، وفضائلكم عقلية ، وفضائل اليهود دينية ، وقد ثبت عندى أن الجمع بين هذه الفضائل محال ، فدعونا ندبر أمرنا على ما تقضى به فضائلنا فنحن أدري بما يصلح لنا ، أما ما نحاوله من الاهتداء بفضائلكم فلن نجنى منه الا بلبلة الفكر واضطراب النفس وخور العزيمة .

— لا أريد أن أبحث في الجرم الذى قتل به الجندى ، ولا أريد أن أبحث هل كان الحكم عليه ظلما أو عدلا . ولكنى كنت أود أن لا أرى فيكم من تبلغ به القسوة هذا المبلغ من القضاة . وكنت أود أن أرى رجالكم أرق قلبا من أن يقطعوا الناس اربا اربا على نحو ما رأيت ، سواء أكان ذلك

عدلا أم ظلما ، ومهما يكن الذنب الذى جنوه . ان عاطفة الرحمة لاتذهب بشئ من قوة العدل ان كان الحكم عدلا . وهى تخفف من وطأة الظلم ان كان الحكم ظلما .

— هذا الذى تسميه فظاعة لايعنينى انما يعنينى أن أعرف العدل فأتبعه والظلم فأجتنبه . أما الرقة فى الظلم فهى كالانسانية فى الحرب . كلاهما خداع للناس حتى لايزعج ضميرهم الظلم أو الحرب . كيف يستقيم عقلا أن تظلم رجلا ثم تكون رحيمًا به حين يقتل ، وتسوق رجلا الى الحرب ليقتل فان جرح أخذتك به الشفقة والحنان . أليس ذلك رغبة منا فى أن نخفف عن الناس وقع الظلم أو الحرب عليهم . أليس ذلك كله رياء يخدع به الأحياء أنفسهم حتى لاثور عليهم ضمائرهم . انى انما أبغى وسيلة تمنعنى أن أظلم الرعية فان لم أهتد الى ذلك فسواء فى الظلم والحرب أن أكون رقيقا أو غليظ القلب .

— انك ترغب أن تهديك الفلسفة والعقل هداية محددة فى ما يعرض لك من مشكلات الحكم . ولا أحسب ذلك مستطاعا لأن أمور الحياة والعقل والدين أشد تعقيدا من أن تساس بهذه السهولة ، وتقدير الصواب فيها أصعب من أن يقاس بمعايير بسيطة . والمعايير فيها مختلفة دائما متناقضة أحيانا . ولا يعنى ذلك أن الفلسفة عقيمة حيث يستهذيها رجال العمل . ان الفلسفة تهىء العقل للتفكير الصحيح ، وتقوى فيه صفاته الهادية ، حتى اذا حان وقت العمل كان

الانسان أصوب حكما وأعدل رأيا . فهي مرآة عقلية تعد العقل للعمل الحسن ، وأثرها في ذلك أكثر من أثرها في تحديد نوع العمل الذي ينبغي .

— ليس في ذلك ما يؤكد لى أنها تهدي الى الحق ، فالفلسفة تقوى في العقل صفاته كلها ، ان خيرا فخير وان شرا فشر ، وكثيرا ما يكون الشر أغلب . ورجال الدين لهم عليكم أيها العقليون فضل أنهم يرغبون رغبة صادقة في هداية الناس وتحديد ما يجب أن يعمل وما يجب أن لا يعمل .

— انى لا أنكر عليهم هذه الرغبة في هداية الناس . ولكنى أعيب عليهم أمورا تتعلق بطريقتهم في التفكير ، فانهم يلمونه على شعث كثير لا يتعلق بأصول الدين بل هو من عدم مراتهم على الطريقة المثلى التى حدد معالمها وبين أركانها التفكير الفلسفى ، فهم يقولون بأمور لا يقوم عليها برهان ، وهم يفرضون فروضا كبرى لا مقدمات لها ، وأكبر فروضهم فرض وجود الله فان ذلك حل مشاكلهم كلها . ولكنه لا يزال عندنا فرضا . ثم هم يخلطون بين ما هو عقيدة وما هو حكمة وحسن بصيرة ، ويخلطون بين ما هو دائم وما هو موقت . وهم يحملون ما هو عقلى بحث على ما هو دينى خالص وهم يدافعون عن النظم الاجتماعية التى يعتقدون خيرا على أنها من الدين ، ولكن النظم تتغير دائما ولا يصح عقلا أن تربط بالدين وهو ثابت أبدا .

— أظن أن أثبت علومكم لا يقوم على فروض لم يقم عليها
 برهان . ان خير العلوم عندكم وأثبتها هو الهندسة وقد
 بناها اقليدس كلها على فرض لم يقم عليه برهان ، وهو أن
 المتوازيين لا يلتقيان ، ولم يثبت ذلك بل اكتفى بقوله انهما
 اذا التقيا لا يكونان متوازيين ، وعلى هذا الأساس الواهي
 قام علم هو عندكم أثبت العلوم ألا ترى أن هذا الأساس أوهى
 من خيط العنكبوت ، وأنه فرض طفلى اذا قيس بعظمة
 الفرض الدينى الأول وهو وجود الله ، فان له أصلا ثابتا فى
 النفس الانسانية ولنا من شعورنا النفسى ما يدل على صدق
 هذا الفرض ، وليس للفروض العلمية شئ من ذلك ، واذا
 كان الفرض الهندسى يثبت صدق نتائجها والخصب الذى
 جعله يثبت حقائق عدة لا يمكن أن تقوم على باطل ، فان
 فرض وجود الله فرض خصب جدا يرجع اليه كل ما فى
 الانسانية من خير وجمال وروعة تجعل صدق الفرض أمرا
 محتوما عقلا .

— انى لا أعيب عليهم فرض وجود الله ولكنى أعيب عليهم
 خلطهم بين أمور العقيدة وامور الفعل .

— سمعت من قيافا أن رجال الدين مضطرون أن يملأوا
 فراغا فى نفوس الناس أصله نقص فى نمو عقولهم وأنهم
 لا يرون بأسا أن يدعوا للعقل كل ما يتعلق به حين يستطيع أن
 يحمل العبء وحده .

— انهم وضعوا للناس بعملهم هذا مشكلة كبرى سينوءون بحملها قرونا طويلة حين يضطرون الى التمييز بين الأمور العقلية والدينية التى خلط بينها أمثال قيافا حين رأوا هذا الرأى ، وسيسمون ذلك مشكلة الدين والعقل . وليس لها من أصل الا هذا الخطأ فى التفكير . ان الحقيقة فى غنى عن كل هذا الاضطراب .

— أراك لاتزال تسعى الى معرفة الحقيقة ولا أريد أن أجعلك تعدل عن هذا البحث ، أما أنا فانى أبحث عن الهداية، وقد كنت أحسبني سأبلغها عن طريق الدين ، أو الدين والعقل . ولكن ما فعله بنو اسرائيل اليوم باسم الدين قضى على كل أمل لى فى الهداية . ولن أسعى اليها بعد اليوم وسأظل رومانيا خالصا أعمل ما تمليه على مبادئ قومى وتاريخهم واجماعهم

— ولم كل هذا اليأس ؟ ان الحياة والعقل والدين ميادين للانسان كلها حق وكلها جميلة رائعة ، واذا كان التوفيق بين ما يتطلبه كل منها محالا . واذا كان أحد لم يستطع حتى الآن أن يجعل منها وحدة تمثل الانسانية فى أرقى مظاهرها . فلعل العصور القادمة تستطيع ما لم تقدر عليه فى عصرنا هذا .

— هذا حلم جميل أرجو أن يحقق وكنت أحلم به قديما ولكنى اليوم غيرى بالأمس . فاعلم عنى أنى سعت الى الهداية جاهدا فأخفقت ولم أعد أرى سبيلها واضحا . أما

أنت فانك لاتعنى الا بالبحث عن الحقيقة وانى لأرجو أن
لاتبوء بمثل ما أصابنى من الخيبة والقنوط .

ورأى الفيلسوف أن بيلاتوس نكب في نفسه نكبة كبرى
حين أطاع بنى اسرائيل وأن محتته هذه حملته على اليأس ،
وأنه لم يعد يرى الا ما يراه الرومان من الايمان بالحياة
ولذاتها ، وأنه لم يعد يؤمن بقوة الدين ، ولم يعد يؤمن
بقوة العقل على هداية الناس .

وذهب من فوره الى جبل كالفارى ، ليرى نهاية هذا الأمر
الذى حمل صديقه على الكفر بكل ما كان يؤمن به ، وبلغ
قمة الجبل قبيل الظهر .

وبعد قليل أظلمت الدنيا .

ثم أظلمت الدنيا

كان الوقت ظهرا وكانت السماء صافية . ثم تجمعت السحب الثقيل من كل صوب في دقائق معدودات ، وخيم الظلام على أورشليم واشتد حتى أصبح الرجل لا يرى يده اذا مدها أمامه ، ونزل البرد وهبت رياح هوج عصفت بالمدينة فاقتلعت بعض أشجارها . ولم يكن لأهل أورشليم عهد بمثل ذلك في هذا الوقت من السنة ، ولم يذكر أحد أنه رأى عاصفة مثلها الا قليلا من المعمرين قالوا — وما أكثر ما يقول المعمرون — انهم رأوا مثل ذلك من قبل .

أظلمت الدنيا ساعات ثلاثا .

وحسب الناس هذه الساعات الثلاث دهرا لا ينقضى ، وسادهم الخوف والاضطراب ، وجزعوا من أمر هذا الظلام وكان بنو اسرائيل يعلمون أن الله أهلك أمما قبلهم بمثل هذه الرياح وهذا الظلام ، فظنوا الساعة قائمة ، وذكروا حينذاك أنهم اقترفوا من الذنوب ما يصح أن ينزل بهم غضب الله من أجلها ، وذكروا أنهم حين لم يحل بهم عقاب على ذنوبهم أسرفوا وازدادوا اثما ظانين أن عذاب الله بعيد ، وأيقنوا أن اليوم يوم الجزاء الأكبر .

وعبثا حاول الجنود الرومان أن يخففوا من وقع هذا

الحادث الغريب ، وقالوا لهم انهم يعرفون بلادا نائية يقع فيها مثل هذا الظلام كثيرا ، وانه أمر مألوف عندهم لا يعدونه نذيرا بعذاب ولا علامة من علامات الساعة ، وان كانوا لم يعلموا ما هي الساعة . وأخذ الرومان يضحكون ويسخرون من هؤلاء القوم الرعاعيد الذين يرون في كل شيء خطرا يؤرقهم ، وفي كل حادث طبيعي نذيرا يزعجهم ، كأن أسرار العالم كلها لم تخلق الا لبث الرعب في نفوسهم .

والواقع أن الناس حين يفجؤهم حدث طبيعي يجهلون مداه وكنهه فريقان ، فريق لا يضطرب ولا يجزع ولا يهرب ، وهم الأقلون . وفريق يجزع جزعا شديدا وهم الأكثرون ولا يرجع موقف هؤلاء وهؤلاء الى الشجاعة أو الجبن ، ولكنها طبيعة الانسان حين يواجه بمجهول عنيف ، ويختلف ذلك اختلافا تاما عن موقفهم من خطر معروف . فقد يكون أشجع الناس وأشدهم اقدا ما على قتال أضعفهم قلبا حين يلم به ظلام دامس أو خطر غير معروف ، ويتبين ذلك واضحا عند الأطفال ، فمن صغارهم من لا يخشى ما يجهل ويقدم عليه ، على حين يكون أخوه أشد ما يكون رعبا ، وكلاهما طفل لا يفهم شيئا مما يعمل . وقد شاهد الناس كثيرا من ذلك في أطفالهم عندما توالى الغارات الجوية في الحرب الأخيرة .

ثم اشتدت الرياح وثار العاصفة وسمع لها صوت

أرهب أهل أورشليم فلزموا بيوتهم ، وخت الشوارع من الناس . وكان الظلام على أشده فوق جبل كالفارى ، وكان عند قمته التى تسمى الجلجوتا أى الجمجمة خلق قليل ، كان هناك عدد من الجنود الرومان يمرحون ويضحكون ويتسامرون قبل أن ينزل عليهم الظلام ، وكان هناك قليل من النسوة الصالحات اللائى آمن بالمسيح جئن تنظرن الى سيدهن ونيهن قبل أن ينتقل الى غير هذه الدنيا ، وكان هناك رجل من أهل أورشليم أهمه أمر دينه فجاء يرى نهاية البدعة ، ويشهد القضاء على الفتنة وصاحبها ، وكان قد سبق له فى الصباح أن جادل التاجر المصاب وخرج من عنده غاضبا على الطغمة الكافرة ، وكان هناك الحكيم الماچى الذى آتاه الله من العلم ما لم يؤت غيره وكان قد ترك الحواريين يرحلون الى الجليل وجاء يشهد أقول النجم الذى اهتدى بنوره الى بيت لحم منذ نيف وثلاثين عاما ، وكان هناك الفيلسوف اليونانى وتلك الراعية الصغيرة وأغنامها ، وكانت أشد الحاضرين قلقا واضطرابا حين حل الظلام فجاءة فصرخت صرخة عالية وأجهشت بالبكاء ، ودل ذلك الحاضرين على مكانها فأقبلوا صوب هذا الصوت يستطلعون خبره .

وكان أقربهم اليها الفيلسوف اليونانى ، فسألها عن سبب بكائها فقالت انها لن تستطيع العودة الى خيامها بعد . أن حل هذا الظلام ، وان أباه سيضربها حين يرى أنها لم

تعد اليه قبل مغرب الشمس . فلما قال لها ان هذا الظلام ليس ظلام الليل لم يهدأ روعها وقالت اذن هذا الظلام هو ما كانت تخبرني به أمي ، وكنت اذا خالفت لها أمرا تقول لي ان العفاريت ستخرج على في ظلام حالك ثم تنقلني الى أرضها التي تسكنها ، وكنت أعصياها فلا يقع شيء مما تقول ، وكنت أيقنت أن قولها تهديد لا أصل له ، ولكن ها هو ذا الظلام الذي حدثني عنه وستأخذني الجن الى حيث لا أعود .

وأقبل الجنود الرومان . فلما سمعوا هذا الحديث ضحكوا سخرية من هذه الطفولة الساذجة ، وقالوا انهم يعرفون هذا الظلام معرفة تامة ، وانه سينقشع عما قريب ، فيعودون جميعا الى منازلهم على خير ما يكونون .

وجاءت النسوة المؤمنات الى هذه الفتاة التي كانت ترتعد رعبا ، ولما أحست بهن اطمأنت اليهن أكثر من اطمئنانها الى رجال غرباء ، وأخذن يهدئن من روعها وقلن لها ان هذا الظلام لا شأن له بالجن ولا بمخالفتك أمر أمك ولن يصيبك منه ضرر . وكان قد وقع في نفوسهن أن سبب هذا الظلام ما ارتكبه الناس من ظلم فادح للرسول الطاهر الذي حكم عليه في يومهم ذلك ، وكن لا يشككن أن الله يسخر الظواهر الطبيعية ليتعظ بها الناس فلا يقدموا على الشر ، وأنه لولا ذلك ما ارتدع أحد عن ارتكاب المنكر ، وأن هذه سنة الله وطريقه الى الابقاء على بعض الخير بين الناس فتستقيم أمورهم .

وكان اليهودى الذى معهم يظن أنه فعل خيرا حين قاوم
البدعة الجديدة بقوة وعنف ، وفرح لأنه سيشهد القضاء
عليها بنفسه ، فلما أظلمت الدنيا اضطرب وجزع جزعا شديدا ،
لأنه كان يعلم أنه من الذين أرهقوا النبى الجديد بالتعذيب
والتكذيب ، وقال لنفسه : انى من الآثمين الذين أراد
الله عقابهم فأرسل لهم هذا الظلام نذيرا . وناهيك بالنبى
الذى يرسل الله الصواعق على الناس من أجل ظلمهم اياه .
ان بنى اسرائيل قتلوا الأنبياء من قبل فلم تنزل عليهم آية
كهذه الآية . وأخذ يفكر فى أمر هذا النبى وأنه لابد أن
يكون فوق أنبياء بنى اسرائيل قدرا . وحل بقلبه الايمان ،
وندم على أنه لم يكن أكثر حصافة وحكمة من قبل .

أما الجنود الرومان فلم يحاولوا أن يفهموا مغزى هذا
الظلام ، فهو عندهم سحب يغطى الشمس لاحاجة بهم الى
أن يبحثوا عن مغزى له .

أما الحكيم الماجى والفيلسوف اليونانى فقد استمعا الى
كل ذلك وسأل ثانيهما أولهما عن رأيه فى هذا الظلام ،
وأخذا يتجادلان فيه ، وطال أمد الظلام وامتد بهما النقاش
قال الحكيم الماجى :

— أنى أعلم من احداث هذا اليوم مالا تعلمون . أن الله
رافع السيد المسيح اليه . وهو نور الله فى الأرض فلما أبى
أهل اورشليم الا أن يطفئوه أظلمت عليهم الدنيا . وهذا

الظلام آية من عند الله تدل على أنه حرمهم نور الايمان
وهدى الضمير .

— هذا شعر ورمز . ولا علاقة له بالحقيقة وليس عليه
برهان .

— أى حقيقة تعنى وأى برهان تنشد . أتريد أن آتيك
برجل أو جماعة ثم أقتلع منهم الايمان والضمير فيحل عليهم
الظلام . أتريد أن لا تقتنع الا بهذا النوع من البرهان .

— أريد من كل انسان دليلا على صدق ما يعتقد وصواب
ما يرى . ولا يقولن لى أحد أن الحقيقة نسبية أو متغيرة أو أن
هناك حقيقة لا تثبت بالبرهان . تلك فوضى التفكير .
وهى تؤدى حتما الى حال تستوى فيها الخرافات والعقل
والدين وأنت تفرض وجود عامل معنوى فى حادث هذا
الظلام وهو أمر مادي بحت . وليس لك ذلك الا أن يعجز
التفسير المادى عن ايضاح أصله وعلته . وهذه الراعية
المسكينة تفرض وجود عامل معنوى آخر . ولا بد لى من
مقياس العقل أعرف به أن رأيك يرجح رأيها فانى لا أريد
أن أومن بخطأ .

— يعيننى أولا أن تكون من المؤمنين سواء أكان ماتؤمن
به خطأ أم صوابا . فالايان هو الاحساس الذى يستطيع به
الانسان أن يتبين معنويات ما يحدث حوله ومغزى ما يقع له .
فان كنت ممن يرون أن بين المنوبات والماديات صلة ما فأنت

من المؤمنين والمؤمنون وغير المؤمنين يكادون يكونون جنسين
مختلفين من البشر بصرف النظر عن ما يؤمن به المؤمن وما
يكفر به الكافر .

— أنى لا أرى صلة ما بين المعنويات والماديات ولا
أستطيع أن أفهم عقلا كيف يكون الكفر سببا في تجمع
السحب في السماء .

— الإيمان بوجود الأشياء لا يتعلق بفهم كنهها وحقيقتها
عقلا . وليس لك أن تنكر ما لا يدركه العقل . ألا ترى أن
بين البرق والرعد وانهمار المطر سببا وأن لم نفهمه وقد
تفسره الخرافات خطأ وقد يفسره العلم خطأ أو صوابا وقد
يكون غاب عنا أصل ذلك كله ولكن وجود السبب أمر
لاشك فيه .

ثم ان عمل المعنويات في الماديات أمر مألوف على نحو ما .
ألا ترى أن الخجل وهو أمر معنوى خالص يسبب حمرة
الوجنتين وهى أمر مادى يحدث فى الخجل وغير الخجل
كالحمى وقد يكون طبيعيا أحيانا . والتفسير المادى كاف جدا
لشرحه ولو وقفنا عند منطقك لأنكرنا علاقة الخجل بحمرة
الوجنتين . والخجل أثر من آثار التربية والعادات والصلة بين
هذه وتمدد أوعية الدم فى الوجه بعيدة جدا . ولو أنك
حاولت أن تقنع فتاة من عاداتها العرى أن العرى يسبب حالة
نفسية عند الفتيات الخفريات من قومنا تؤدى الى حمرة

الوجنتين لعدت ذلك رمزا وشعرا ولحسبته لا يكون حقيقة
ألا يمكن أن تكون المعنويات والماديات نتيجة لحالة
واحدة كما يكون الرعد والبرق والمطر نتيجة لحالة واحدة
وهل تجد من المستحيل أن تتصور أن تجمع السحب واشتداد
العاصفة مرجعه الى ارتفاع المسيح الى السماء كما يكون
صعود الدم الى الوجنتين مرجعه الى نشأة الفتاة وتربيتها .
أن انكار الأسباب المعنوية لما هو مادي قد يفوت علينا فهم
أهم عناصر الحقيقة فيه .

— أن ايماني بوجود صلة ما بين ارتفاع المسيح الى
السماء وحلول هذا الظلام لا يزيد في علمي بحقيقة هذا
الظلام . ذلك أني لا أرى لرأيك فضلا عن رأى هذه الفتاة
الجاهلة ما دمت لاتقبل العقل حكما بينكما . ولا أعرف
مقياسا للخطأ والصواب غير العقل . وأراك لاتحتكم اليه في
امور الايمان ولم تستبدل به حكما آخر . وأراك تلجأ الى
الرمز في تفسير الحقيقة والاسراف في الرمز يدعو الى الشطط
ولو تركنا لخيالنا العنان يتصور من العلاقات بين الامور
ما يشاء لعمت القوضى وضاع الحق .

— كل ما أريده أن تؤمن أن هناك قوى تعمل في حياتنا
لاتفهم كنهها ولا نستطيع أن نفهمها الا اذا استطاع الحيوان
المذبوح قربانا الى الله أن يفهم أن سبب ذبحه التعب والتقوى
والتكفير عن ذنوب من ذبحوه .

فاذا آمنت بوجود هذه القوة المعنوية وأنها تؤثر في حياة الناس فأنت عندي أشد ايمانا من الذين لا يؤمنون الا تقليدا . أما تحديد الخطأ والصواب في ما تؤمن به فانه يرجع الى المؤمنين وحدهم يقيسونه بمقياس الايمان نفسه . ولو أن الايمان دخل قلبك لسهل عليك أن تعرف الخطأ والصواب في ما تؤمن به . والايمان لا ينقص من فضله شيأ أن يكون موضعه خطأ .

ألا ترى أن الحيوان غاية فهمه الالهام ولما كان العقل فوق الالهام فإن الحيوان لا يستطيع بألهامه أن يتصور العقل أو يفهم كنهه . كذلك الانسان غاية فهمه العقل ولما كان الايمان فوق العقل فإن الانسان لا يستطيع بعقله أن يتصور الايمان أو يفهم كنهه .

— ومن الذى وضع الايمان فوق العقل .

— هذا واضح . ان الايمان لا يكون الا فى العقلاء . أما العقل فيكون فى المؤمنين وغير المؤمنين وهذا يعنى فى الترتيب الطبيعى أن الايمان فوق العقل . وهذا لا يعنى أن الأول يمحو الثانى بل يدل على أنه قد يكون فى الايمان ما لا يستطيع العقل أن يكون حكما فيه .

— كل هذا يزيد الامور غموضا . ألا ترى أن ما حدث أمامنا اليوم من الصلب وحلول الظلام أمور محددة يجب أن تكون الحقيقة فيها واحدة واضحة محددة .

— كيف يكون ذلك . لو أنك سألت كل واحد ممن

شهدوا هذه الأحداث لأكد لك حقيقة كاملة ثابتة تختلف عن الحقيقة الكاملة الثابتة التي يؤكدها الآخرون .

لو سألت جزئيات هذا الحجر وذراته عن ما حدث اليوم لأخبرتكم أن شيئا لم يحدث مطلقا . وذلك لأن القوانين التي تخضع لها الجزئيات والذرات لا تؤهلها لمعرفة وجود الظلام أو الموت . فهي حين تقرر أن شيئا لم يحدث تقرر الحقيقة كاملة ولو قررت غير ذلك لكان تخيلا وكذبا .

ولو سألت أوراق الشجرة عن الظلام لأخبرتكم به فهي تتأثر بالنور والظلام ولكنها لا تعرف شيئا عن سببه . ولو سألتها عن الصلب لأخبرتكم أن شيئا لم يحدث لأنها لا تفهم قوانين الحيوان وهي في كل ذلك تقرر الحقيقة كاملة ثابتة .

ولو سألت الأغنام ل قالت لك ان هذا الظلام هو الليل . وها هي ذى قد أعدت نفسها له . ولو سألتها عن المصلوبين ل قالت انهم ماتوا وعلقوا كما مات اخوة لها من قبل وعلقوا . فهي ترى أن ما أصابهم هو الموت المألوف . ولا تستطيع أن ترى في أمرهم شيئا غير ذلك لأنها لا تفهم العقاب ولا الظلم وليسا عندها من الحقيقة في شيء .

ولو سألت الجنود الرومان عن الظلام ما رأوا فيه الا ظاهرة طبيعية . ولو سألتهم عن الصلب ل قالوا انه عقاب على جرائم ارتكبها المصلوبون فمنهم لسان وثائر على قومه . فهم يفهمون الجريمة والعقاب ولكنهم لا يفهمون التكفير أو القداء .

ولا يغرنك غزارة علمك وقوة تفكيرك فانك لا ترى في ما حدث الا ما يستطيع أن يراه هؤلاء الجنود وان كنت أسلم منهم تفكيراً وأنفذ بصيرة . ولا شك أن رأيك أقرب الى الصواب مما يراه هؤلاء لجهلهم ولكن الجهل والعلم والذكاء لاتعين نوع التفكير الذى يحدد ما يستطيع كل انسان أن يبلغه فى تقريره الحقيقة .

أما أنا وهؤلاء النسوة المؤمنات وهذه الراعية الصغيرة فلنا شعور خاص يدفعنا الى البحث عن مغزى ما حدث وعن معنويات ما وقع . وقد نخطئ ونصيب وقد نكون دونك فى كل ما يتعلق بالعقل ولكن قدرتنا على الشعور بالمعنويات تكسبنا قوة ليست لك وليس لك أن تحكم على ما نؤمن به أنما يكون ذلك الينا نقيسه بمقياس الايمان وحده .

— كأنك تريد أن تقول ان الحقيقة مرهونة بما فى طباع المقررين لها من القدرة على التأثير بالقوانين المختلفة طبيعية كانت أو حيوانية أو انسانية . وان ذلك لا يتعلق بالذكاء أو العلم أو صواب مذهب التفكير . هذا رأى لم أسمع به فى ما بين يدي من المذاهب الفلسفية .

— ان المذاهب الفلسفية حق حين تتناول ما تفهم ومن عادة العقليين الانكار وهو خطأ .

وأشد من هذا خطأ أنكم لاتريدون أن يؤمن الناس بالله حتى يفهموا صفاته عقلاً . ولا تريدون أن يهتدى الناس بشيء

حتى يتبينوا ماهية هذه الهداية . وهذا منكم عجب . كأنكم تريدون أن لا يستخدم الناس النار للدفع حتى يعلموا طبيعتها . وأن لا يهتدوا بالنور حتى يفهموا حقيقته . وأن لا يستخدموا السفن حتى يعرفوا قوانين « أرشميدس » .

أليس ذلك يكون خبالا . أترى أن البحار الذى ينظر الى السماء فيقول هذا يوم نوء لا أخرج فيه يعد مخطئا لأن قوله ليس عليه برهان . انه يبنى حياته على خبرته . والخبرة الانسانية برهان صدق فى الأمور الانسانية . البحتة ونحن المؤمنون نقول للعقلين دعوا الناس يهتدوا بالله ، ولا تقفوا بهم دون هذه الهداية حتى يفهموا عقلا كنه الصلة بين الله والناس . ولا تشككوهم فى المعنويات الى حين يتبين الناس عقلا ما بين المعنويات والماديات من علاقة . ولا تحرموهم مزايا الأخلاق الى أن يفهموا كنه العلاقة بينها وبين قوانین الحياة كما نراها فى الحيوان . ومن العقليين من ينكر كل ما هو انساني محض لأنهم لا يعدون شيئا طبيعيا الا اذا كان له مثل عند الحيوان . وهو قول واضح البطلان . مثلهم مثل الشجرة تعد الحركة فى الحيوان شيئا غير طبيعى لأنه ليس له مثل فى النبات . ان الانسان من أخص صفاته الاحساس بالمعنويات والايمان بها وهو الجزء من الانسان الذى هو فوق الحيوان ، وليس لنا أن ننكر المعنويات اذا كان سبب انكارها أن الحيوانات لا تخضع لها ولا تعرفها . ولعل التوراة حين قالت عن آدم انه أول انسان لم تقصد الى أنه أول من مشى على رجلين بل

لعلها تعنى أنه أول من أدرك الخطيئة وأول من أحس بأثر الضمير فأصبح بذلك انسانا . هذه روح الله التى تفخها فيه فأصبح بنعمته قادرا على الايمان وعلى أن يخلف الله فى الأرض . هذه أخص صفات الانسانية .

— لو انكم قصرتم الايمان على التصديق بالمعنويات والضمير والله ما وجدنا ذلك علينا عسيرا ، ولكنكم تريدوننا على أن نجعل بين ما هو فوق الانسان وما هو دونه صلة ، وتؤكدون أن بين خلق القمر والنجوم وبين الضمير والأخلاق سببا ، وترجعون ذلك كله الى الايمان ولا يتم الايمان عندهم الا بهذا الجمع بين ما هو مادي وما هو معنوى وبين ما هو من عمل العقل وما هو من عمل الضمير .

— لعل أصل ذلك موسى عليه السلام فقد بلغ من صفاء النفس أن يتحدث الى ضميره حديثا صريحا لا لبس فيه فتجلت له حقيقة ما فوق الانسان على نحو لم يسبق لغيره من الناس . ولكنه لم يكن نبيا فحسب بل كان حكيما وكان حاكما . فهداه عقله الجبار أن بين هذه الحقيقة العليا وبين الحكمة وبين الشرائع التى يجب أن يسير عليها الناس صلة . ورجح فى نفسه أن أصل ذلك واحد هو الله . ولم يجد عقله فى ذلك غضاضة . فقد رأى النور والدخان والبخار والانهجار والدوى وذوب المعادن على اختلافها ترجع الى أصل واحد هو النار . ودعا الناس الى الايمان بالله فهو أصل كل ما نراه فى الكون .

— أراك تعود الى الرمز والتشبيه ولهما حد في تبيان الحقيقة . والاسراف فيهما يعرضنا للخطأ .

— ليس الرمز عيبا في التفكير فهو السبيل الوحيد الذي يستطيع به الانسان أن يعبر لنفسه ولغيره عن المعانى التى لاتقع تحت حسه .

— انى ما زلت أبعد ما أكون عن فهم حقيقة ما حدث أمامنا اليوم .

— لا عليك من ذلك ! ستظل أحداث هذا اليوم موضع جدل بين الناس قرونا عديدة . وسيظل الخلاف قائما بينهم فى فهم حقيقتها ومعناها وسيظل الايمان بها أو الكفر بها حدا فاصلا بين طائفتين من الناس احدهما مؤمنة والأخرى كافرة . ولست وحدك عاجزا عن فهمها .

ورأى هذا الفيلسوف أن العلم بالحقيقة فى أبسط الأمور عسير جدا . وأصابه من اليأس ما أصاب بيلاتوس . وعلم أن الحقيقة والهداية كلاهما بعيد المنال . واضطربت نفسه وحزن حزنا عميقا حين أدرك أن سعيه وراء الحقيقة انما هو سعى وراء سراب صورده له عقله وأن الواقع أنه ليست هناك حقيقة من النوع الذى كان ينشده .

وأخذ الظلام يخف رويدا رويدا حتى ظهرت الشمس ثم سطعت على ما كانت عليه قبل الظهر .

فرحوا جميعا حين عادت الشمس ، وأسرعت الراعية الصغيرة الى أغنامها ، وسارت مسرعة الى دارها ، وكانت

فرحة أن الجن لم يختطفوها حين أظلمت الدنيا ، وعزمت أن لا تعنى كثيرا بتهديد أهلها .

وانقضت الساعات الثلاث ، وبقي كل من الحاضرين على ما كان عليه من عقيدة ، ولم تغير هذه الآية شيئا من موقف أحد منهم ، فبقى الكافر على كفره ، والمؤمن على إيمانه ، والجاهل على جهله . ظل الحكيم الماجي على رأيه أن الظلام له بالضمير صلة ، والمؤمنات على أن الظلام مرجعه الى ظلم اليهود للنبي ، والرومان على أن ذلك كله شيء طبيعي ، والفيلسوف على أن انقشاع الظلام يمنع أن يكون سببه الظلم ، فإن الظلم قائم والظلام قد انقشع ، وظلت الفتاة الراعية على شكها في أن الجن سيخطفونها يوما . ولم يغير أحد من عقيدته الا ذلك اليهودي الذي حضر ليشهد مصرع الضلالة ، فقد آمن أن الدين الجديد ليس بدعة ولا فتنة ، وعاد الى داره وهو مؤمن بالسيد المسيح .

هكذا آيات الله لا تهدي الا من به استعداد نفسي للمؤثرات الدينية فهو مؤمن بطبعه ، ومن السهل أن يخرج من الايمان بالخطأ الى الايمان بالصواب . أما حيث يكون الرجل غير معد للايمان فان الآيات لا تؤثر فيه . هكذا نرى آيات الله لا تصلح الا من في طبعهم الايمان ومن تكون أنفسهم مهياة للاحساس الديني والشعور بالمعنويات .

عود إلى موعظة الجبل

أسرع الحكيم الما جي الى الجليل ليلقى الحواريين حيث واعدهم . ولما جاءهم قبيل المغرب وجدهم يتعبدون ويصلون وهم لا يكادون يعلمون ما يفعلون ، ووجدهم على أشد ما يكون الانسان من اليأس والألم ، وزاد حسرتهم ماشاهدوه في طريقهم من الظلم وما غشى المدينة من ظلام . ولم يكن من شأن هذا الظلام أن يخفف عنهم ألم الوزر الذي حملوه عن أنفسهم وعن الناس جميعا حين تركوا المسيح يعذبه الجاهلون .

وأقبل عليهم يقول :

— ما بالكم لا يزال الحزن يفتت أكبادكم ، ان كنتم تحزنون من أجله فان الله قد رفعه اليه ، ذلك أمر لا ريب فيه ، وسيأتيكم نبؤه عما قريب ، وان كنتم تحزنون لما وقعت فيه من تقصير فاعلموا أن الله غفر لكم ذلك من أجل طاعتكم ، ولأنكم لم تعترضوا أمر الدين بالدعوة الى السلام . واعلموا أن الله ادخركم للتبشير بالدين الجديد . وان كنتم تحزنون خوفا أن ينقرض هذا الدين من بعده فاعلموا أنه سينتشر على أيديكم أتم ومن يأتي بعدكم حتى يبلغ أقصى الأرض . واذا بقيت فيكم بقية من هذا اليأس فانكم ستعجزون عن القيام بواجبكم المقدس ، وتكون معصيتكم أكبر وأخطر .

ان السيد المسيح يأمركم أن تنتشروا في الأرض ، تدعون
الى الدين الذى علمكموه وعليكم أن تستمدوا منه القوة
الخارقة التى أتم فى أشد الحاجة اليها للقيام بهذه الدعوة .
وأنتم فى حاجة الى ما يهديكم الحكمة ، ويعلمكم الصواب
فى ما أتم قادمون عليه . وانكم لتجدون الهداية كلها فى
موعظة الجبل ، فعليكم أن تعوها حق الوعى ، وأن يكون
ايمانكم بها وطاعتكم لأوامرها أسمى مما يراه عامة الناس ،
وستظل الموعظة عند أغلب المؤمنين مثلاً أعلى لا يتفق تحقيقه
الا للقليلين ، وسيلتمسون الأعذار للخروج على أوامرها حين
تثقل عليهم وطأتها . والواقع أن الله علم ما فى الناس من
ضعف فخفف عنهم ، ولو كان فيهم جميعا صفاء النفس الذى
أراه فيكم لحملهم على خطة أهدى ، ولأمرهم بما هو عليهم
أشد وأقسى . أما أنتم فيجب أن يكون ايمانكم بها أعمق
وأقوى مما هو فرض على عامة الناس ، وعليكم أن تفهموها
الفهم الحق ، وأن تتبعوا تعاليمها فى أسمى ما تدعو اليه ،
وأن لاتقنعوا بما تستطيعه طباعكم . وانكم لتذكرون يوم
سمعت معكم أنا واخوانى هذه الموعظة فوق الجبل أول مرة .
فلما عدنا الى بلادنا محصناها تمحيصا ودرسناها درسا
عميقا فتبينت لنا فيها عبر ومواعظ ، وأريد أن أحدثكم اليوم
عن ما أدى اليه بحثنا فيها .

يأمركم الشرع أن لاتقتلوا ، وتأمركم الموعظة أن

لا تغضبوا فان الغضب يدعو الى البغضاء والشر ويؤدى الى القتل والأذى . الا أن عليكم أن تعلموا الناس أن من ساق رجلا غيره الى قتل رجال آخرين فقد قتله وقتلهم ، والقتل أو الايذاء لا يكون خيرا أبدا ولا يسوغه مقصد مهما يكن ساميا . سيقول الناس ان القتل حلال حين يكون قطعاً للفتنة والفساد ، ألا فاعلموا أن الله ورسله وحدهم يعلمون ما هو فتنة وما هو فساد ، وليس لرجل لا يوحى اليه أن يحكم على أمر أنه فتنة تدعو الى القتل ، وليس لأحد من التفوق على غيره ما يجعل أمره بالقتل صواباً ، وليس لأحد من الحكمة والعلم بالغيب ما يحل له أن يحمل الناس على الموت من أجل رأى رآه .

سيحل الناس القتل والايذاء بدعوى الدفاع عن الدين وحماية العقيدة حيناً ، وبدعوى الدفاع عن الوطن والنفس حيناً آخر ، ألا فاحذروا الأمرين . ان من حمل السلاح أو آذى الناس دفاعاً عن الدين فقد وضع الدين فوق الله الذى يأمر بالحب لا بالقتل ، والله كفى بحفظ دينه وليس فى حاجة الى عبيد خاطئين ينقذونه ، وليس لأحد من العصمة ما يجعل رأيه فى زيغ العقيدة صواباً لا يأتيه الباطل الى حد يسوغ فيه القتل . ان الذين يدافعون عن الدين بايذاء الناس انما يدافعون عن رأيهم وحدهم ، بل أكثرهم انما يدافع عن حقوقه ومزاياه ، ويتخذ الدفاع عن العقيدة عذراً يعتذر به .

أما الدفاع عن الوطن بالاعتداء على الأعداء فهو باطل
يزينه للناس رجال أخطأهم التوفيق ، ولو كانوا أكثر حكمة
لجنبوا قومهم الموت في سبيل أخطاء ارتكبوها . والذي
يسوق قومه الى الحرب انما يقتل قومه قبل أن يقتل أعداءه ،
وكلا المتقاتلين يظن أن عدوه المعتدى ، وأنه هو الذي يدافع
عن نفسه وعن وطنه ، وهو وهم يخدعهم به رجال بين أمرين
أما أن يكونوا لا ضمير لهم ولا رادع . وأما أن يكونوا جهلاء
مخطئين . والقتل يدعو الى الثأر والمتقاتلان أحدهما مهزوم
حتما فالشر جزء منه لا يتجزأ ، فإن الظلم يقع على المهزوم
لامحالة ، والمتنصر لا يستطيع العدل ، وظالم العدو تقوى
شهوته الى الظلم فيظلم أهله بعد النصر . ولن تجد قوما
ظالمين لأعدائهم ثم يظلمون عادلين بين قومهم . ومن أراد أن
يعود ساسته العدل فليمنعهم أن يتعودوا الظلم بالاعتداء
على من يظنونهم أعداء . والدفاع عن النفس لا يكون حلا
للرجل الا اذا وقع عليه الاعتداء مباشرة ، أما دعوى الاعتداء
العام على أمة أو بلد فهي دعوى باطلة لاتسوغ حمل الناس
على القتل الجماعي كما نراه في الحروب .

ان الله وحده الحق على الانسان أن يسلبه الحياة أو يلحق
به أذى في نفسه ، وليس لانسان أن يكون سببا في موت
أحد أو ايذائه كائنا ما يكون السبب ، فذلك اعتداء على
حق ليس لغير الله . واذا كان الانسان لا يستطيع أن يرد

الحياة الى أخيه اذا فقدها ، ولا يستطيع أن يهبه الصحة اذا حرمها ، فليس له أن يعترض حياته أو صحته ، ومن يفعل ذلك يتعد حدود الله وينسب لنفسه علما وحكمة ليست الا لله وحده .

وقد بينت لكم الموعظة أمر مملكة السماء فقالت لكم انها للفقراء والبسطاء والمحزونين والمتواضعين والساعين الى الحق والرحماء وظاهري القلوب والداعين الى السلم . وعليكم أن تبينوا لغير هؤلاء من الأغنياء والأذكياء والأقوياء طريقهم الى مملكة السماء ؛ ذلك بأن الفقر والبساطة ليس لهما فضل الا ما يصحبهما من طهارة النفس . فالغنى يشحذ الشهوات الجامحة ، والقوة والذكاء يغريان بالظلم . والنجاح يقضى على صفاء القلوب بما يحمل الناس عليه من خضوع لنظم الحياة التى يضعونها لأنفسهم وما فيها من نقص وسوء . والذين يستطيعون أن يحافظوا على طهارة نفوسهم من الأغنياء والأذكياء والأقوياء يكونون عند أهل مملكة السماء فقراء من غير فقر بسطاء من غير بساطة . ولهم أن يدخلوها آمنين . فليس الغنى وليس الذكاء بمانع أحد من أن يدخل مملكة السماء فان العبرة بطهارة النفس وصفاء الضمير .

ويقول لكم الشرع لا تتركبوا الفحشاء ، وتقول لكم الموعظة من نظر الى امرأة فاشتهاها فقد ارتكب الفحشاء . ومن الناس من يظن أن هذا وحده مظهر الفحشاء ، وأن

شُرور العالم كلها أصلها عقاب من الله على ما يكون بين رجل وامرأة لا تحل له ، وإن أكبر الذنوب الشهوة الى النساء . ألا فاعلموا وعلموا الناس أن هذا ليس الا مثلاً للشهوة الجامحة ، اختارتها الأديان مثلاً لما فيها من قوة غالبية ، ولأن من كبج جماحها استطاع أن يكبح جماح كل شهوة غيرها . حقيقة التحريم في شأن النساء أن الله يحرم كل شهوة جامحة تدعو الى اعتداء الناس على حق غيرهم ، ومن الشهوات الأخرى ما هو أبعد أثراً وأشد ضرراً وأدعى الى الفتنة والقتل . وفوضى الشهوة أمر ياباه الضمير الانساني سواء أكان ما يشتهي الانسان امرأة أم مالا أم جاهاً . ومن الخطأ أن تقولوا للناس ان التحريم يرجع الى حفظ الانساب وحماية الأسرة ، وقد تتغير النظم الاجتماعية فلا يكون ذلك رادعاً ، والنهي عن الفحشاء على كل حال أعمق من ذلك كثيراً . ثم اني أوصيكم أن لا تسرفوا في تركيز الاثم كله في الشهوة الى النساء ، فقد يظن الناس أن غيرها من الشهوات مباح وبذلك تفوتون عليهم حقيقة التحريم فان الشرع أراد تحريم كل شهوة غالبية . علموهم أن كل من نظر الى ما في يد غيره فاشتتهاه شهوة تجعله يفكر في ايذائه ليلفها فقد ارتكب الفحشاء .

قيل للناس قديماً أحبوا جيرانكم وكرهوا أعداءكم ، والموعظة تقول لكم أحبوا أعداءكم وادعوا للذين يسبونكم . ألا فاعلموا أنه يجب أن لا يكون لكم أعداء ، فان العداوة

لا تقوم بين الناس الا حين تقوى شهوتهم الى ما عند غيرهم
فيريدون أن يسلبوهم ما عندهم عنوة ، وأكثر ما يشتنون
أموال لا تتعلق بها السعادة ولا الهناء ، وأكثر ما يحسد
الناس بعضهم بعضا من أجل ما يكون في المأكول والملبس
ومظاهر الترف وما يبلغه الغنى بماله ، وكل ذلك لا يدل على
السعادة ، فأطباق الذهب لا تقوى الشهية ، ولباس الحرير
لا يجلب الصحة . كل ذلك لا يستحق عداوة ولا بغضا
ولا حسدا . ولو تعلم الناس أن ينعموا بما حولهم من
جمال وما في نفوسهم من خير ، وما فيهم من قوة وصحة ،
ما حقد فقير على غنى . وليست العداوة والبغضاء والحسد
طبيعة في الناس ، وانما هي أمور أصلها عجز الناس عن تذوق
ما في الحياة من جمال ، وظنهم أن لا خير الا ما عند غيرهم ،
وسوء تنظيم العلاقة بين الناس .

ولقد نهت الشرائع كلها عن عبادة الأوثان والشرك بالله،
وجعلتها أكبر الذنوب وأخطر المحرمات ، ولو أن المراد من
هذا التحريم أن لا يعبد الناس الحجارة ما حفلت بها الأديان
وما جعلتها على رأس الكبائر كلها . ذلك أن عصر عبادة
الحجارة يزول من تلقاء نفسه حين يخرج الناس عن طور
البداءة الأولى . وسيأتي يوم قريب لا يكون فيه على وجه
الأرض انسان يرى أن يعبد حجرا أو حيوانا ، والعقل
الانسانى وحده كاف لهداية الناس الى أن الحجارة لا تعبد

ولا تقدم لها القرابين . وما كان أغنى الشرائع عن كل هذا التأكيد في تحريم عبادة الأوثان والشرك بالله لو أن الأمر مقصور على عبادة الأصنام . وإنما أرادت الشرائع النهى عن أمر أخطر من ذلك كثيرا هو أصل الشرور كلها .

ألا فاعلموا وعلموا الناس أن من الأوثان التى يعبدونها ما ليس حجارة ولا أصناما ، وسيصنع الناس لأنفسهم أصناما ليست من الحجارة يعبدونها من دون الله فيضلون بها ضلالا أبعد من ضلال عبادة الأصنام ، وسيسمونها مبادئ ، وسيضفون عليها من الاجلال ما يزيد على اجلالهم الضمير ، وسيقدمون حياتهم لها قربانا على مذابحها ، وستلهيهم عن الهدى حتى يقشع الناس من ضعف ضمائرهم وضلال عقولهم وفساد أحلامهم ، كل ذلك تضحية لأوثان يعبدونها من دون الضمير ، وكلما قضى على معبود مما يخلقون صنعوا غيره ونبدوا الأول واحتقروا من عبدوه قبلهم . ومن هذه الأوثان التى سيعبدها الناس الكرامة القومية ، والوطنية ، والولاء ، والحرية ، والطاعة لأولى الأمر ، والقانون ، وسيسمون ذلك الفضائل المدنية وهناك أوثان أخرى يسمونها الفضائل كالشجاعة والتضحية والصالح العام . وسيعكفون على تقديس النجاح والتفوق ، وستبلغ بهم عبادة الأوثان أن يقتلوا أنفسهم دفاعا عن أعلام جيش أو حدود دولة أو ردا لكرامة ملك . كل هذه أوثان يعبدها

الناس ، وقد لا يكون فيها ضرر حتى تصطدم بالضمير أى بأمر الله ، عند ذلك يكون الخضوع لها وعبادتها من دون الضمير كفرا وشركا وضلالا دون اثمها ما تكون عليه عبادة الأصنام . ان من يعبد الدين نفسه عبادة تحمله على أن يتخطى حدود الضمير فيؤذى الناس فى سبيل حماية الدين يكون قد أشرك بالله . وسيضل الناس حين يعتقدون أن الجماعة أعظم من الفرد ، وأن خيرها أعظم من خير الفرد ، وأن نفعها يسوغ الاغضاء عن ضمير الفرد . انما الجماعة صنم يدعوكم الى عبادته من تنفعهم هذه العبادة . ويزنون لكم أن الجماعة تسعد وان لم يسعد أفرادها ، وهو وهم يقول به من يعنيه أن يشقى عدد كبير من الناس ليسعد عدد قليل منهم ، ان الصالح العام لأخطر الأوثان وأشدّها ضررا حين يعبد فيطغى على أوامر الضمير .

قولوا للناس « لا يغرنكم ما يقوله الذين يدعون الى هذه المبادئ ويزينونها لكم كأنهم لا يرغبون لكم الا الخير ، وليس عليكم أن تطيعوا أمرهم اذا كان أمرهم أن تخالفوا ضمائرهم ، فان هذا طريق الضلال واضحا » .

والشريعة تأمر الناس أن لا يسرقوا ، وليست السرقة ما اصطلاح عليه الناس عادة ، انما الواقع أن كل من كسب شيئا لم يبذل فيه جهدا فقد سرق ، ولو كانت طريق هذه السرقة مما يبيحه القانون الوضعى ، ومن أحرز شيئا بذكائه

ودهائه دون جهد بل ابتزازا ممن بذل فيه غاية جهده فقد
سرق . والموعظة تقول لكم انكم لا تستطيعون أن تعبدوا
الهين ، وانكم لا تستطيعون أن تجمعوا بين عبادة الله
وعبادة المال .

وعليكم أن تؤكدوا للناس أن خير ما يعبدون به الله ،
أن يجب بعضهم بعضا ، فإن الشريعة الموسوية أكدت العدل
أكثر من تأكيدها الحب ، وإذا رأيتم الناس لا يستطيعون هذا
الحب وحدهم فاهدوهم أن يجب بعضهم بعضا في الله ؛ ذلك
سر التقوى وأصل الخير . ولن يجد أحد شيئا يفرح به طول
حياته فرحا لا تشوبه شائبة من ندم أو أسف أكثر من أن يتاح
له اسعاد غيره ، ولن يندم الانسان على شيء ندمه على ايذاء
غيره في سبيل نجاح موقت أو شهوة طارئة . ان سر السعادة
أن يسعد الانسان انسانا آخر ولا يكون هذا الا بالحب .

أما الدعوة الى الدين بين أهل الأرض فعمل مرهق لكم ،
ولا أخشى على الدين شيئا مما حدث اليوم ، انما أخشى عليه
أمورا من أنفسكم وممن سيجملون عبء الدعوة من بعدكم ،
ومن الصدام بينه وبين حياة الناس ، وبينه وبين العقل
الانساني حين يشتد ويقوى .

أخشى عليه حماستكم في حمل الناس على الايمان به
جملة وتفصيلا ، لا تفرقون بين أصله وفروعه ، ولا بين ما هو
دين وما هو حكمة وما هو رأى صائب ، وبين ما هو حق دائم

وما هو صلاح موقوت ، وبين ما يرجع الى طبيعة الانسان ، وما يرجع الى نظم وضعية من عمل الناس — هذا الخلط سيزعجكم ويزعج كثيرا ممن تدعونهم اليه .

والرأى عندي أن تقيموا دعوتكم على أصول ثلاثة للدين لاتعدونها ، أن لايعبد الناس الأوثان على اختلاف أنواعها ، وأن يجب بعضهم بعضا ، وأن يجتنبوا الشهوة الجامحة حين تخرج بهم عن حد الضمير . هذه الأسس الثلاثة ، الايمان والحب وكبح الشهوة هي التي تدعون اليها على أنها دين ، وادعوا الى ما عدا ذلك على أنه حكمة وسداد رأى ، فقد تتغير الحكمة وتتغير الرأى . اجعلوا رقعة الدين واسعة حتى لايصعب على الناس أن يظلوا داخلها ، واتركوا لهم حرية العمل الذى يعرض لهم كل يوم ، اجعلوا الدين أوامر ونواهى كبرى لها قيمة دائمة فذلك أدعى الى احترامها .

وأخشى على الدين أن تسرفوا فى السمو به عن طباع الناس فلا يتبعونه . ان عليكم أن تجعلوه مقبولا لكل من فى طبعه الايمان . وأخشى على دينكم أنه قام بينكم على عقائد لا يصدقها الا المتصوفون ، وعلى مبادئ لا يفهمها الا خيار الناس ، وعلى أخلاق ليست سهلة الا على البسطاء والفقراء والزهاد . وسيأتى يوم يقل فيه المتصوفون فلا يفقه أحد عقائده ، ويقل فيه خيار الناس فلا يفهم أحد مبادئه ، ويقل فيه الزهاد والبسطاء فلا يتبع أحد أخلاقه .

ولتحدثوا الناس بما يفهمون ، ولا تسرفوا في الرمز ،
فان ذلك يصلح للساميين ومن في طبعهم الايمان ، واعلموا ان
لغتك السامية لغة زاهية براقه ، فيها ضخامة في التصوير
وشدة في التخيل تجعل الرمز حقيقة والخيال واقعا ، منتخبة
الأوداج ، محتقنة الأسلوب ، أما لغات الذين تدعونهم الى
الدين الجديد ففيها دقة وحدة ونفاذ ، لغة لا يكون الحديث
فيها رمزا ، فلو أنكم قلتم لفلاسفة اليونان أن القوة الحيوية
في الناس تدفعهم الى الشر وتسوقهم الى اىذاء بعضهم بعضا ،
وان في طبائع الناس ضميرا يمنعهم أن تطغى عليهم هذه
القوة فيهلكوا ، فالضمير أصل الخير ، والقوة الحيوية
الكامنة فينا أصل الشر ، لو قلتم ذلك لفيلسوف يوناني لفهم
عنكم ذلك حق الفهم ، ولعله بعد ذلك يطمئن اليكم فيفهم
العبادات والصلاة والتحرير والخطيئة . ولو انكم ألقيتم اليه
ذلك كله فجاءة لوجدتم منه أحجاما ونفورا لاختلاف أسلوب
تفكيره عن ما نشأتم عليه .

وأخشى على الدين ، بل على الأديان كلها ، عامل الزمن
وعامل الرقى ونمو العقل ، فان للدين صفة الدوام ، وعليكم
أن لاتجعلوه يعرض لما يستطيعه العقل ، فان الرقى العقلي
يغير من فهم الناس لهذه الأمور ، ولا يجوز على الدين أن
يتغير معها حتى لايفقد قدسيته .

ولا يدعون أحدكم الناس الى اتباع الدين لأن فيه صلاح
أمورهم الدنيوية ، فانكم ان تفعلوا تجعلوا للناس سبيلا

الى انكار الدين كله حين يرون أن اتباعهم لأوامره يعرضهم
لخطر أو يحرمهم متعة في الحياة . وانما يدعى اليه على أنه
إيمان ، وأن الايمان جزء لا يتجزأ من تكوين الانسان ، وأن
الانسان بدونه يظل بالطبع حيوانا .

سيطلب الناس اليكم أن يمنع الدين الظالم أن يظلم ،
وسيطالبونكم أن تقفوا للظالمين بالمرصاد ، وأن تضعوا
للناس نظاما يقضى على الظلم ، وليس ذلك من عمل الدين ،
فان الدين يحكم الضمير ، والجماعة لاضمير لها ، انما يؤثر
الدين في النظم والجماعات وسياستها على طريقة غير مباشرة ،
فهو يؤثر في الجماعة حين يؤثر في الأفراد . فلو أن كل فرد
حرص على أن لا يخرج على ما يوحيه اليه ضميره لامتنع
الشر عند الأفراد وعند الجماعات ، يستوى عند ذلك النظام
الحسن والسيئ والنظام القديم والحديث . أما أن يحاول
الدين أن يغير نظاما بنظام فعلم لا يتعلق به ، ثم ان النظام
الجديد لا يلبث أن يصبح في حاجة الى التغيير لأن هذه
النظم تتكون وتقوى ثم تنهار لأسباب خارجة عن الدين ،
خارجة عن سلطان الفرد . ولو أن الدين وضع للناس نظاما
للحياة ثم رأوا أن يعدلوا عنه الى غيره لذهب ذلك باحترام
الدين وطاعة الناس له في ما هو من أخص أوامره .

ان النظم الاجتماعية تتغير دائما ، وهى في حاجة الى هذا
التغير ، والدين لا يتغير ، فهما أمران يجب أن لا يتعلق

أحدهما بالآخر . وقد درست أنا واخوتي أسباب الضلال بين الناس فوجدناها عبادة الأوثان ، والشهوة الجامحة ، وانعدام الحب . وقد لاينفع الناس كثيرا أن نهديهم تفصيلا الى الخير بل قد يكون أنجع لو علمناهم الايمان والحب وكبح الشهوة ، وتركنا لعقولهم أن تنظم أمورهم في حدود ما لا يحرمه الضمير .

كان كثير من قوله يتعلق بأمور لاعهد للحواريين بها ، فهم لم يكونوا قد خبروا التبشير بعد ، ولم يكونوا قد علموا شيئا من صعابه وطرق النجاح فيه ، ولم يكونوا قد علموا من دينهم ألا ما هو نفسى فردى . فلما تبين لهم ما هم قادمون عليه دبّت فيهم الحياة ، وشملهم فرح الرجاء ، وأحسوا أن أمامهم جهادا طويلا ينجيهم من ألم الحسرة ، وذلل الضعف ومرارة الاستسلام . وعلموا أن هذا هو الجهاد الحق الذى ينفع الناس ولا يضر أحدا ، وعزموا أن يضربوا للناس فى ذلك مثلا لم يعرفه التاريخ من قبل ، وانتشروا فى الأرض يدعون الى الحق .

خاتمة

لو كان الناس متعظين بشيء لكانت لهم في أحداث ذلك اليوم عبر وعظات . ولكنهم لا يتعظون أبدا . وقد علموا كيف ضل أهل أورشليم ضلالا مبينا ، حين عصفت بهم قوى متباينة ، فيها الخير والشر ، فغلب الشر الخير وغلب الضلال الهدى وهم لا يدرون ما يفعلون . ولا يزال الناس في مهبط هذه القوى تغورهم فيضلون بها كما ضلت أمم كثيرة من قبل ، وهم لا يقدرّون على توجيهها وجهة تكفل لهم العصمة من الخطأ .

القوى التي تعمل في حياة الناس ثلاث: القوة الحيوية وما فيها من غرائز وشهوات ونزعات . وقوة العقل وما فيها من قدرة على المعرفة . وقوة الضمير وما فيها من إدراك للحق وللباطل . وفي كل من هذه القوى خير وشر . أما القوة الحيوية فالخير فيها أنها تحفز إلى العمل ، وتدعو إلى بذل الجهد ، وهي مصدر النشاط ، ولولاها لخدمت الحياة الجسمية والنفسية ، وشرها أنها عنيفة ملحة وأنها قوة عمياء ، لا غاية لها إلا الإبقاء على الحياة لاتسمو فوق ذلك ولا تعرف لنفسها حدودا ولا هداية . أما العقل فالخير فيه أنه نور يضيء للناس سبل الحياة بما يهيئ لهم من علم وما يزيد فيهم من قوة وخبرة

ومهارة ، والشر فيه يأتي من الغرور وإيمان أهله أنه ليس وراء العقل مذهب يعلو عليه . أما الضمير فخير كله ، إلا أن الذين يقومون بأمره يكثرون فيهم ضيق الصدر والضجر بما يخالف عقائدهم ، والرغبة في حمل الناس جميعاً على واجبات محددة يفرضونها عليهم لا يقدرُونَ في ذلك ما في الطباع من تباين وما في العقول من اختلاف .

ومن عجب أن أوجه الخير في هذه القوى الثلاث تتعارض وتتصادم فيمحو خير كل منها خير الأخرى وينجم الشر ؛ على حين أن أوجه الشر فيها تتساند وتتعاون فيشتد بأسها . ذلك أن النشاط في القوة الحيوية يصطدم بالعقل فيأبى أن يخضع لعلمه أو يهتدى بحكمته . ثم تعترضه أوامر الضمير وحدوده فلا يأبه لها . والعقل لا يريد أن يعبأ بقوة الغرائز ، ولا يريد أن يحفل بالضمير أوامره ونواهيه ، والقوامون على أمور الضمير يرون أن يكتبوا القوة الحيوية وأن يسخروا العقل حتى لا يشذ عن سلطانهم . هذا التصادم كفيل بالقضاء على الخير في هذه القوى . أما في الشر فإن طغيان القوة الحيوية يتفق وغرور العقل ، وكلاهما يوافق ما في مذاهب التفكير الديني من ضيق صدر وضجر .

كيف السبيل إلى المواءمة بين أوجه الخير في هذه القوى حتى تشد كل منها أزر الأخرى في الخير فتستقيم حياتنا على الحق .

لكل من هذه القوى فريق من الناس يؤمنون بها ويدعون إليها ويرون أنها منفردة تؤدي إلى استقرار الحياة وأنها لا تخفق إلا لأن القوى الأخرى تعترض سبيلها وتضعف من شأنها فرجال الحياة يرون أن الغرائز قوة لا تقهر وأن العبث بها يؤدي إلى أمراض نفسية متعددة ، وأن محاولة القضاء عليها مقضى عليها بالاختناق حتما . وهم يرون أنها تدعو إلى الكفاح وتنازع البقاء وذلك يؤدي إلى بقاء الأصلح وأن شرها يأتي من مقاومتها وكتبها . ورجال العقل يريدون له السيطرة على كل شيء يستبد بقوى الحياة فيقهر منها ما يشاء ، ويتجاهل من الدين ما لا يتفق وعلمه وخبرته . وهم يرون أنه كفيل بهداية الناس لو ترك وحده يدبر أمورهم وأنه إنما أخفق لأن قوى الحياة تطفئ عليه أحيانا ولأن الضمير يعرقل سيره ويفت في عضده . ورجال الدين يريدون أن يكون الأمر أمرهم في شؤون الحياة كلها صغيرها وكبيرها ، ما يدخل منها في العقائد وما لا يدخل . وهم لا يعبأون باختلاف الطباع ، واختلاف العصور ، ولا يريدون أن يقبلوا من الغرائز أو العقل شيئا يخالف رأيا رأوه .

يرى كل فريق أن تسود القوة التي يؤمن بها . وهذا التفكير خطأ وهذه الأثرة أصل الداء والنمو البالغ لأحدى هذه القوى يزيد في طغيانها فيشتد التصادم بين خيرها والتساند بين شرورها ، والناس على كل حال يختلفون في قبولهم

للتأثر بكل منها ولا يفيدون الا من هذا الذي يقبلونه
ولا يؤثر فيهم الا خيره .

كلا . ليست هذه وسيلة الاصلاح . وليس سبيل الخير أن
يتعصب كل فريق لرأيه وليس الاصلاح أن نحدد للناس
أعمالا مفصلة دقيقة من اتبعها أصاب ومن خالفها أخطأ .
وليس الاصلاح أن تقوى احدى هذه القوى فتطفى على
الأخرى مهما يكن فيها من خير ، فان الضمير نفسه — على
ما فيه من خير — لم تصلح به وحده حال الناس الا في
العصور الأولى لكل دين ، حين يكون الدين قويا تقيًا
طاهرا ، وحين تكون الحياة بسيطة والعقول هادئة حتى اذا
امتد به الزمن وقع الخلاف بينه وبين الحياة والعقل ، ويكون
من أثر ذلك أن يصيبه الضعف حتى لا يتأثر به أحد ، أو
يشدد بطشه فيذبل العقل ويضعف النشاط . أما سلطان
القوى الحيوية وحدها فشر لاشك فيه ولا يقنع به الا أهل
البداءة والجهل ، وان كان علماء الحياة يسرفون في التحدث
عن روائع نظامها . وأما العقل فانه حين يعظم سلطانه وحده
— كما هي الحال في عصرنا — يصبح الناس منه في رعب
مستمر وخوف دائم . ونحن اليوم في قبضة هذا السلطان
وجبروته ويروعنا منه قوة الشر التي تكمن فيه . والناس
يلهجون اليوم بالحديث عن هذا الشر ويرون أنه من الضروري
أن يصحب نمو العقل نمو في قوة الضمير وما فيه من خير ،

وذلك قول لا غناء فيه . وإذا كان الضمير لم يستطع في أوج
قوته أن يمنع الشر وهو ضعيف فهو على منعه بعد أن عظمت
قوته أضعف .

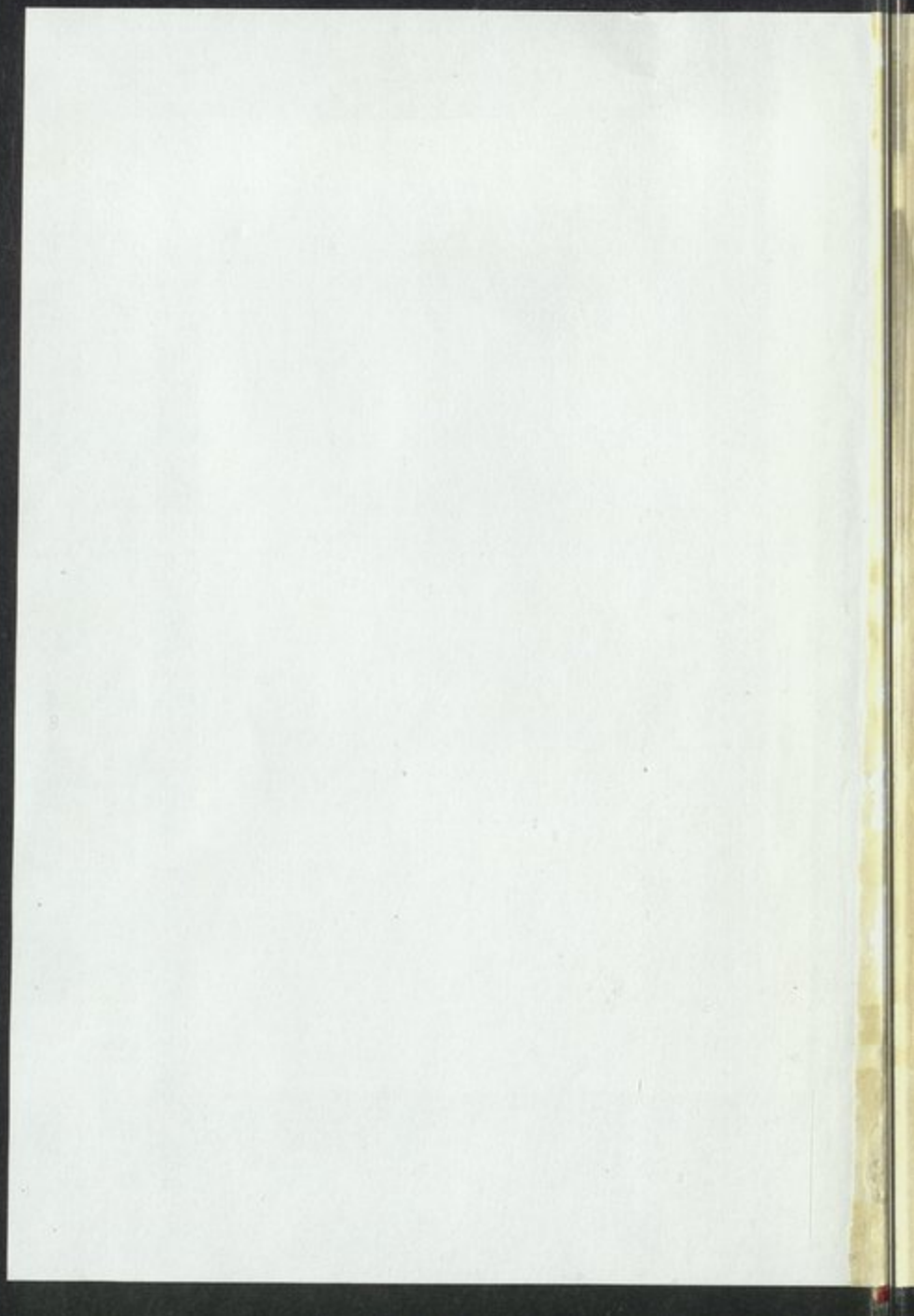
طبيعة العقل أن يكون دليلا هاديا وطبيعة الضمير أن
يكون رادعا ونذيرا ولو بقي كل منهما على طبيعته لعم
خيرهما . أما أن يكون الضمير هاديا والعقل رادعا فهو خروج
عن طبيعة كل منهما .

انما يكون الاصلاح في تهذيب هذه القوى وتحديدها
ورياضتها على أن لا تطغى احدهما على غيرها حتى في الخير،
فإن الخير حين يتعدى حدوده يصبح شرا لما يؤدي اليه من
اختلال التوازن . والاعتدال وحده هو الذي يجمع هذه
القوى على الحق فتكون القوة الحيوية مصدر النشاط
وتكون قوة العقل دليلا ، وتكون قوة الضمير مانعة لهما من
الشطط على أن يكون لكل منهما ميدان واسع تعمل فيه ،
يتسع لاختلاف مشارب الناس وطبائعهم ومدى قبولهم للتأثر
بما فيها من خير .

وقد جرى أكثر المفكرين والمصلحين على أن يحددوا
غايات الخير والصواب ووسائلهما ، وأن يعدوا كل ما عدا
ذلك شرا وخطأ ، وهذا وهم لم يتحقق به صلاح حال الناس
في أى وقت . انما علينا أن نحدد للناس الشر والخطأ وأن
نعلمهم أن كل ما عدا ذلك خير وصواب ، وأنهم اذا لم يخطئوا

في حق القوى التي تعمل فيهم فهم بمنجاة من الشر . فخطوهم
في حق القوى الحيوية يكون بالخمول ، وخطوهم في حق
قوة العقل يكون بالجهل ، وخطوهم في حق قوة الضمير
يكون بعبادة الأوثان — مهما يكن نوعها — والشهوة
الجامحة والبغض بين الناس . ولنعلمهم أنهم أحرار في حياتهم
بعد ذلك ما داموا يجتنبون هذه الأخطاء فكل ما عداها
خير وصواب .

في أحداث يوم الجمعة ذلك كل عوامل الضلال والخطأ ،
وفي كل يوم من أيام الحياة تتكرر مآسى ذلك اليوم . فليتدبر
الناس هذه العوامل ، وليجتنبوها ، وسيجدون بعد ذلك
آمامهم مجالا واسعا لعمل الخير ، يسعدون به فينعمون بحياة
طيبة جميلة .

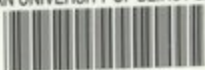


CLUB LIBRARY

DATE DUE

[illegible]

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00512459

LIBRARY

